

الكسندر بيك

قصة الرعب والجرأة



ولد الكسندر بيك مؤلف هذا الكتاب في عام ١٩٠٣ في عائلة طبيب عسكري. وقد تطوع في الجبهة وهو في السادسة عشرة، واشترك في الحرب الأهلية التي حمي وطيسها في البلاد بعد انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى. لقد بدأ الكسندر بيك في النشر منذ عام ١٩٢٢ ، فكتب عدة قصص وروايات. و «قصة الرعب والجرأة» التي تقدم لقراء العربية تتمتع باكبر شعبية من بين كتب الكاتب .

ان الكتاب الذي تمسكه بيديك يمكن ان يسمى عليه، بحق، واحداً من احسن الكتب السوفييتية التي تدور حول القتال العظيم ضد الفاشية الهتلرية في اعوام ١٩٤١ — ١٩٤٥. ان ابطاله وجدوا حقيقة. انهم جنود وضباط الفرقة المجيدة للجنرال بانفيلوف الذين قاتلوا ببطولة في ايام اكتوبر القاسية من عام ١٩٤١ ضد القوات الهتلرية على مشارف موسكو — عاصمة الاتحاد السوفييتي .


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

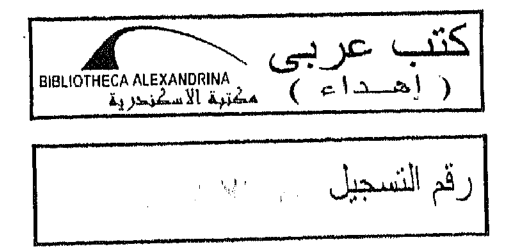
مكتبة الادب المغربي

اهداءات ٢٠٠٢
أ.د/ مصطفى الصاوى الجوينى
الاسكندرية

الكسندر بيك

قصة الرعب والجرأة

/طريق فولوكولامسك/





دار التقدم
موسكو

ترجمة محمد المعصراني
الرسام ليفاذوف

АЛЕКСАНДР БЕК

ВОЛОКОЛАМСКОЕ ШОССЕ

На арабском языке

« لو اتفق للانسان ان يشاهد شيئاً غير عادي : كأن تتدفق الحمم من بركان فتهلك الزرع والضرع ، او ان يثور شعب مضطهد على سيده القوي او ان يقتحم ارض الوطن شعب مجهول يعيث فيها فساداً ، — كل هذا يجب ان يسجله شاهده على الورق . واذا كان جاهلا في فن تحريك الريشة لنظم عقد قصة من القصص كان عليه ان يسرد مشاهداته لكاتب مجرب حتى يرسم هذا ما يقال له على ورق قوي ليكون عبرة للاحفاد واحفاد الاحفاد » .

من رواية يان « جنكيز خان »


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



القصة الاولى


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرجل الذي لا كنية له

١

لست انا في هذا الكتاب إلا ناسخاً اميناً ومجداً . وهذه هي قصته .

٢

— كلا ! — قال باورجان ماميش اوغلي ، — لن اقص عليك شيئاً . اني لا احتمل الاشخاص الذين يكتبون عن الحرب معتمدين على اقاصيص غيرهم .

— ولماذا ؟

اجاب بسؤال :

— هل تعرف ما هو الحب ؟

— اعرف .

— كنت انا ايضاً قبل الحرب اظن اني اعرف . لقد احببت امرأة ، وعانيت الوجد ، ولكن هذا لا يقاس بذلك الحب الذي ينشأ في القتال . ففي الحرب ، في القتال ، ينشأ اقوى الحب واقوى الحقد ، مما لا يستطيع تصوره إلا من عاناه . وهل تعرف ما هو الصراع الداخلي ، ما هو الضمير ؟

اجبت بثقة اقل : — اعرف .

– كلا ، انك لا تعرف هذا . انك لا تعرف كيف يتصارع ويتغالب شعوران : الخوف والضمير . ان اضرى الوحوش لا تستطيع ان تتصارع بالقسوة التي يتصارع بها هذان الشعوران . انك تعرف ضمير الكادح ، وضمير الزوج ، ولكنك لا تعرف ضمير الجندي . هل رميت مرة قنبلة يدوية على استحكام للعدو ؟

– كلا ...

– فكيف اذن ستكتب عن الضمير ؟ المحارب يهجم مع سريته ، ورصاص الرشاشات مصوب إليه ، وإلى جانبه يتساقط رفاقه ، وهو يزحف ويزحف . وتمر ساعة ، ستون دقيقة . وفي الدقيقة ستون ثانية ، وفي كل ثانية يُحتمل مئة مرة ان يصاب مقتلاً . ولكنه يزحف . انه ضمير الجندي ! والفرحة ؟ هل تعرف ما هي الفرحة ؟

فقلت : – لا بد اني اجهل هذا ايضاً .

– صحيح ! انك تعرف فرحة الحب ، وربما فرحة الابداع . وقد تكون زوجتك قد شاطرتك فرحة الامومة . ولكن من لم يعرف فرحة النصر على العدو ، فرحة البطولة في الحرب ، لا يعرف ما هي الفرحة الكبرى . فكيف تريد أن تكتب عن هذا ؟ هل ستعمد إلى التلفيق ؟

كان على المنضدة عدد من مجلة نشرت فيه مقالة عن رجال بانفيلوف ، عن محاربي ذلك الالاي نفسه الذي كان يقوده باورجان ماميش اوغلي .

قرّب المجلة بحركة سريعة نحو المصباح – كانت كل حركاته سريعة ، حتى عندما القى بعود الكبريت بعد أن اشعل سيكارته ، – وتصفحها ، وانحنى على صفحة معينة ، ثم ابعد عنه المَجلة وقال :

– لا استطيع القراءة . لقد قرأت في الحرب كتاباً كتبت سطوره

بالدم لا بالحبر : ومن بعده لم اعد احتمل اية كتابة . وماذا تستطيع ان تكتب انت ؟

حاولت ان اجادل ولكن باورجان ماميش اوغلي كان صلباً ، فقاطعني قائلاً :

— كلا ! اني لابغض الكذب ، وانت لن تكتب عن الحقيقة .

٣

كان تعارفنا على هذا النحو .

وكنت قد بحثت طويلاً عن رجل يستطيع ان يقص عليّ حوادث معركة موسكو ، ويشمل حديثه فكرة العمليات وخطتها المبيتة ، ويحمل المستمع في الوقت نفسه إلى حيث يصير التحقق من كل شيء وتقرير كل شيء ، اي القتال .

لن اصف ما قمت به من بحث : ولكني ساقول فقط ما يجب قوله :

عرفت من دراسة الوقائع والمستندات ان العدو ، عندما هجم على موسكو في تشرين الاول وتشرين الثاني من عام ١٩٤١ وحاول اطباق الكماشة على العاصمة ، انطلق إلى هدفه في اتجاه مباشر ، مصوباً ضربته الرئيسية على طول طريق فولوكولامسك ثم طريق لينينغراد .

وفي ايام تشرين الاول الصعبة ، عندما فتح الالمان ثغرة عند فيازما واندفعوا بالدبابات والدراجات النارية وسيارات الشحن نحو موسكو ، قامت فرقة القناصة رقم ٣١٦ ، المعروفة الآن باسم فرقة الجنرال — ماجور بانفيلف الثامنة ، بسد المداخل إلى طريق فولوكولامسك . وعندما قام العدو بهجومه الثاني على موسكو في شهر تشرين الثاني ، وضرب اسفيناً في الاتجاه نفسه ، حاربه رجال بانفيلوف

مرة اخرى ، فاوقفوا الهجوم وردوا العدو ، إلى جانب وحدات اخرى من الجيش الاحمر * ، في معارك دامت سبعة ايام عند كريوكوفو البعيدة عن موسكو ثلاثين كيلومتراً .

ذهبت إلى رجال بانفيلوف ، وكنت مؤمناً باني ساقابل الرجل الذي يستطيع أن يحدثني عن تاريخ هذه الموقعة الكبرى التي دامت شهرين ، مع اني لم اكن اعرف اسمه ولا رتبته .

ولقد قابلته بالفعل .

كان هو باورجانماميش اوغلي ، الذي كان ايام موقعة موسكو ملازماً اول ، واصبح الآن ، بعد سنتين من تلك الحوادث ، كولونيلاً في الحرس .

٤

عندما تعارفنا سمى لي نفسه . ولكني لم اميز الاسم فاعدت السؤال . فاعاد بوضوح :

— باورجان ماميش اوغلي .

فلحظت في لهجته نبرة بدت لي آنذاك نبرة نزق . فقلت في نفسي انه ربما كان يحب من الناس ان يفهموا عنه على الفور .

اخرجت دفتري من جيبي على عادة الصحفيين وقلت :

— عفواً ، كيف تكتب كنيتك ؟

فاجاب :

— ليست لدي كنية .

فدهشت . وقال ان كلمتي ماميش اوغلي تعنيان بالروسية « ابن ماميش » .

---

* اسم سابق للقوات المسلحة في الاتحاد السوفييتي ، والآن الجيش السوفييتي . الناشر .

واضاف : ــ انه اسم ابي . وباورجان اسمي . وليست عندي كنية .

لم تكن في وجهه تلك النعومة الحالمة التي نحب ان نلصقها بالشرق . وانما كان هناك وجوه كثيرة تبدو كأنها مخلوقة احياناً بعناية ودقة وإحياناً اخرى من قفا الدست ــ كما يقولون . كان وجه باورجان ماميش اوغلي اشبه بنقش لا بقالب . كان يبدو وكأنما حفر من البرونز او خشب البلوط المدهون بآلة حادة لم تترك اي خط منحن . وقد اثار فيّ ذكرى من ايام الطفولة ، ذكرى صورة جانبية لوجه هندي احمر نحيف ، مرسوم على الجلد الازرق القاسي لمجموعة مؤلفات ماين ريد أو فينيمور كوبر . فالمنظر الجانبي لوجه باورجان ماميش اوغلي بدا لي شبيهاً بذلك الرسم .

كان الوجه اسمر منغولياً ، عريض عظم الوجنتين قليلاً ، هادئاً في معظم الاحيان لا يسبر له غور ، وبخاصة في لحظات الغضب ، مزداناً بعينين يندر ان تجد لهما مثيلاً في اتساعهما وسوادهما . وكان شعره اسود لامعاً يستعصي على المشط ، اسماه باورجان مازحاً بشعر الحصان .

كنت استمع إليه واتفحصه بامعان . كان هذا الكازاخي ضليعاً باللغة الروسية ، لم يكن يتعثر بلفظ الكلمات وصياغة التعابير حتى في لحظات الاضطراب . كل ما في الامر ان شيئاً من التلكؤ كان يظهر احياناً في كلامه مصطنعاً . وقد لاحظت فيما بعد ان الكلمات كانت تندفع بسرعة اكبر عندما كان يتحدث بالكازاخية .

اخذ سيكارة ، واغلق علبة السكاير بحركة سريعة وانهى كلامه بعناد :

ـ اذا كتبت مع ذلك عني يوماً من الايام فسمنى باسمي الكازاخي : باورجان ماميش اوغلي . وليكن معروفاً اني كازاخي ، راع ، كان يرعى الاغنام في البادية ، اني رجل لا كنية له .

٥

وفي اول مساء من تعارفنا اسعدني الحظ ان اسمع كيف تحدث باورجان ماميش اوغلي مع ضباط حديثي العهد في العسكرية جاءوا إلى الالاي ؟

تحدث عن نفسية الجندي ، وتوسع متماهلاً في توضيح فكرتا فتحدث عرضاً عن احدى المعارك التي دارت عند طريق فولوكولامسك

فخفق قلبي وسارعت إلى اخراج دفتري وسجلت بلهفة . وقبل ان اطمئن لنجاحي كنت اقول لنفسي : ها هي صفحات القصة التي انتظرتها طويلاً . واغتنمت الفرصة بعد انتهاء حديثه مع الضباط فرجوته ان يحدثني منذ البداية حتى النهاية عن قصة معارك طريق فولوكولامسك .

فاجابني : ـ كلا ، لن اقص عليك شيئاً .

ويعرف القارئ ما تبع ذلك من حديث .

٦

لم اكن اشك في ان باورجان ماميش اوغلي كان آنذاك غير محق . فقد كنت اريد ما يريد : الحقيقة . ولكن آراءه في الناس وبخاصة في اولئك الذين لم يشاركوا الجنود حياتهم ، كانت احيانا تخز كالابرة . ولعل بعض السبب في ذلك يعود إلى شبابه ، فقد كان عمره في تلك الايام التي قابلته فيها ، ثلاثين عاماً .

كففت عن الحاجي بعد رفضه القاطع ، ولكني قضيت اياماً غير قليلة معه جنباً إلى جنب .

كان يحب الحديث ويجيده . وكنت كلما سنحت الفرصة سجلت بصبر ما يقوله . وقد اعتاد على ذلك والفني .

وعرفت من اصدقائه تاريخ حياته . كان يطلق عليه وهو في المدرسة لقبان : ابو العيون وشان تيميس ، وهذا الاخير يعني حرفياً « الذي لا يناله الغبار » . وقد كان هذا الاسم يطلق في الخرافات على جواد كان من سرعة عدوه ان الغبار الذي يثيره بحوافره لا يمسه .

وكانت لحظة قلت فيها لباورجان :

- ومع ذلك فاني كاتب عنك . وساذكر حتماً انك كنت في المدرسة شان تيميس .

فابتسم وتغيرت ملامح وجهه بهذه الابتسامة ، فقد زالت عنه صرامته واصبح ليناً كوجه الطفل .

وقال لي بحنان . – اما انت فحصان من احصنة المدفعية . لا يسئك هذا ، فهو مديح . فحصان المدفعية يجر ببطء ، وتصعب ادارته ، ولكنه اذا اندار جر المدفع وراءه . ولقد ادرتني انت ... ساقص عليك كل ما تريد . ولكن لنضع الشروط ...

ومال قليلاً إلى الوراء وامتشق سيفاً من غمده ، فلمع نصله الناصع المرقش في الاستحكام الواطئ الرطب الذي ينيره بشح مصباح صغير لا زجاج له .

استمر يقول : - لنضع الشروط . انت ملزم بكتابة الحقيقة . وعندما ينتهي الكتاب تأتيني به ، فاقرأ الفصل الاول واقول : « سيئ ! غير صحيح ! ضع يدك اليسرى على المنضدة » ، فاقطعها وتبقى بدون يد يسرى . ثم اقرأ الفصل الثاني واقول : « سيئ ! غير صحيح !

ضع يدك اليمنى على المنضدة » ، فاقطعها وتبقى بلا يد يمنى . موافق ؟

اجبت : ــ موافق .

كنا كلانا نمزح ، ولكننا لم نبتسم .

وكانت عيناه الواسعتان السوداوان اللتان لا تشبهان عيون المنغول ، تران إلي بتفحص وامعان .

قال : ــ عال ، خذ ورقاً وقلماً واكتب : « الفصل الاول . الخوف».

الخوف

١

قال باورجان ماميش اوغلي : ــ اكتب ، « الفصل الاول . الخوف » .

وبعد قليل من التفكير قال :

ــ « انطلق رجال بانفيلوف ، دون ان يعرفوا الخوف ، إلى المعركة الاولى ... » ماذا ترى : هل هي بداية صالحة ؟

فقلت متردداً : ــ لا اعرف .

فقال محتداً : ــ هكذا يكتب المبتدئون في الادب . اني في هذه الايام التي عشتها معنا هنا ، امرت عن قصد باخذك إلى الاماكن التي ينفجر فيها احياناً لغمان او ثلاثة وتصفّر العيارات النارية . وقصدي من ذلك أن تعرف الخوف وتحس به . تستطيع ألا تؤكد ، فاني اعرف هذا دون ان تقول ، ان لحظات مرت عليك خنقت فيها شعور الخوف .

فلماذا اذن تتصورون انت ورفاقك في التأليف ، أن الذين يحاربون اناس فوق الطبيعة وليسوا مثلكم ؟ لماذا تفترضون ان الجندي

لا يعرف المشاعر الانسانية التي تعرفونها انتم ؟ هل هو في رأيكم من نوع احط ، أو بالعكس ، مخلوق فوق المخلوقات ؟

ربما كانت البطولة في رأيكم هبة من هبات الطبيعة ، أو من هبات عريف المهمات الذي يوزع الجرأة مع المعاطف ويسجل في دفتره : « استلمت » ، « استلمت » ؟

لقد حضرت ميادين القتال وقتاً غير قصير واصبحت آمراً للالاي ويحق لي — كما اظن — ان اقول : ليس الامر على ما تصفون .

علام كان اعتماد الالمان عندما هجموا على بلادنا الشاسعة الارجاء ! لقد كانوا موقنين بانهم في الحملة الشرقية ، سيرافقهم في طليعة طوابير الدبابات ، الجنرال « الخوف » الذي سيحني له كل حي هامته أو يهرب من وجهه .

وهكذا فان اول معركة خضناها في ليلة الخامس عشر إلى السادس عشر من شهر تشرين الاول سنة الف وتسعمائة واحدى واربعين ، كانت معركة ضد الخوف . وبعد سبعة اسابيع ، عندما صددنا الالمان عن موسكو ، كان الجنرال « الخوف » يلاحقهم . وعرفوا اخيراً ، ربما لاول مرة في تلك الحرب ، ماذا يعني أن يتتبعك الخوف على اعقابك .

٢

بقينا بمعزل عن القتال حتى اواسط شهر تشرين الاول ، اي الى ان بدأت الحرب تدق ابواب موسكو . وكنا قد جئنا من كازاخستان ، وبقينا شهراً ونصف الشهر في مستنقعات منطقة لينينغراد ، على بعد ٣٠ - ٤٠ كيلومترا من الجبهة ، عند ما يسمى بخط الدفاع الثاني ، معدودين في احتياطي القيادة العليا .

وفي صبيحة اليوم السادس من شهر تشرين الاول ، تلقيت الأمر

باعداد الكتيبة لساعة الخطر وبالذهاب إلى اقرب محطة للسكة الحديدي
وهناك كانت بانتظارنا عربات القطار المسقوفة والمكشوفة ، فملأن
باجسامنا وانطلقنا تحت جنح الليل .

إلى اين ؟ حتى انا ، قائد الكتيبة ، لم يكن مسموحاً لي ان اعر
ذلك قبل مرور وقت معين . فكان يخيل الينا اننا لسنا في سبيلنا
الجبهة بل نبتعد عنها . وكان القطار يسير مسرعاً نحو محطة بولوغو
التي تتقابل فيها عدة خطوط حديدية ، دون أن يتوقف في المحطا
الصغيرة التي يمر بها في طريقه .

وقيل لنا في الطريق ان طعام الغداء معد لنا في بولوغويه . ولك
كان كأنما ثمة احد يستحث قطاراتنا وينهال عليها بالسوط ، فلم يتس
الوقت لتوزيع الطعام . واستبدلت القاطرة بغيرها في دقيقتين او ثلاث
وصفرت الصافرة ، وانطلقنا في سبيلنا من جديد .

وكان كل واحد فينا يترقب بفضول الوجهة التي سنتجه فيها ب
محطة بولوغويه . ثم تبين كل شيء . فنحن ذاهبون إلى موسكو

كانت قطاراتنا التي تقل فرقة القناصة ٣١٦ ، تنطلق مسرعة وبي
القطار والقطار مسافة ساعة ونصف او ساعتين ، دون ان تخفف م
سرعتها عند المحطات الصغيرة .

لماذا ولأية اهداف يرسلوننا ؟

لسنا نعرف .

لماذا ننطلق بهذه السرعة ؟ وإلى اين سنذهب بعد ان نمر بموسكو
واين سنتوقف ؟

لسنا نعرف . لسنا نعرف .

وقد اثارت سرعتنا غير العادية مشاعر من القلق عند الجميع
فنحن اخيراً منطلقون إلى العمل الحق ، إلى القتال .

٣

في السابع من تشرين الاول ، نزلنا في غابة قرب فولوكولامساك ، على بعد مئة وعشرين كيلومتراً من موسكو إلى ناحية الغرب .

ودعيت إلى آمر الالاي في المحطة .

رأيت صفاً من الابراج الواطئة المصفوفة بقرب الخط الحديدي ، والمدهونة برسوم لا شكل لها ، خضراء ورمادية ، للتمويه على العدو . لقد كانت تلك مستودعات للبترول والبنزين .

وهل كان بوسعي ان اعرف اني سأرى قريباً ، على صفحة سماء تشرين الاول المتجهمة ، هذه الابراج الحديدية ترتفع دفعة واحدة ببطء وتبدو في لحظة سريعة وكأنها معلقة في السماء ، ثم تنهار دون القرقعة التي ترامت منها بعد لحظات ، ودون السنة النار والدخان التي حجبت الافق فيما بعد ؟

ورأيت وانا اقترب من مبنى المحطة ، — ولم يبق منه فيما بعد إلا اربعة جدران من الطوب ترتسم فوق نوافذها الفارغة السنة من السخام الاسود ، — رأيت من بعيد قطاراً طويلاً من العربات المكشوفة ، المشحونة جميعاً بالمدافع .

سمعت صوتاً يناديني . ورأيت عند القطار الكولونيل مالينين آمر الآي المدفعية في فرقتنا .

قال : — متع طرفك ايها المرتد . هل هي جيدة ؟

كان يسميني بالمرتد منذ ان عرف اني انا المدفعي ، آمر البطارية ، انتقلت بطلبي انا إلى المشاة .

كانت المدافع مدهونة بشحم المصنع وهو عبارة عن طبقة غليظة من شحم المدافع الكثيف ، اسودّ ظاهرها . وكانت قد وصلت لتوها كامدادات لمدفعية فرقتنا .

قلت : ــ اوه ! ان بينها ايضاً مدافع ثقيلة !

ــ سنضع افراس البحر هذه كمدافع القلاع .

ــ وهل نحن هنا لمدة طويلة ؟

ــ قد نقضي هنا فصل الشتاء.

فشعرت بخيبة امل . فنحن مرة اخرى اذن في المؤخرة ، في الاحتياطي .

ولم اكن اعرف ان الالمان ، هناك وراء فيازما اخترقوا الجبهة التي تحمي موسكو ، وان هتلر اعلن للعالم في الراديو لاربعة ايام خلت : « ان الجيش الاحمر ابيد ، وان الطريق إلى موسكو اصبح مفتوحاً » .

وكانت موسكو في تلك الايام تبذل كل جهودها لانشاء جبهة جديدة على بعد ١٢٠ ــ ١٥٠ كيلومتراً من اطراف المدينة ، عند خطوط عرفت في التاريخ باسم « ابعد المشارف إلى العاصمة » . وكانت تنطلق من محطات موسكو ، بلا خطابات ولا جوقات موسيقية ، كتائب شيوعية في الالبسة المدنية ، متلقية السلاح والالبسة العسكرية وهي في الطريق . وقبل وصولنا بيوم او يومين ارسلت إلى بحر موسكو ، عبر فولوكولامسك ، على متن سيارات الشحن ، مدرسة المشاة التي تحمل اسم السوفييت الاعلى ، وعلى اثرها ارسلت ، مع اسلحة التدريب ، مدرسة العلم الاحمر للمدفعية في موسكو . ان موسكو ، ــ اني لالفظ هذه الكلمة الساميه فاتصور القيادة العليا والكرملين والوطن ، ــ ان موسكو ارسلت للقاء العدو قوى جديدة واسلحة جديدة ، ومنها هذه المدافع .

وكان يقال في رئاسة الالاي إن الفرقة امرت باتخاذ وتجهيز المنشآت الدفاعية في منطقة فولوكولامسك . ودُلت على مكان كتيبتي .

٤

بدأنا مساء في مسير ليلي إلى نهر روزا ، البعيد عن فولوكولامسك ثلاثين كيلومتراً .

كنت معتاداً ، بوصفي من سكان كازاخستان الجنوبية ، على ان يحل الشتاء متأخراً . اما هنا ، في منطقة موسكو ، فقد كان الماء يتجلد كل صباح منذ بداية شهر تشرين الاول . واقتربنا عند الفجر من قرية نوفلانسكويه ، في طريق مصاب بالصقيع ، على طين متجمد قلبته دواليب العربات . وكانت قرية نوفلانسكويه اكبر قرية في منطقة عمل كتيبتنا .

ولمحت العين فوراً زول قبة جرس غير مرتفعة ، اسودت في السماء غير الصافية .

تركت الكتيبة في الغابة ، على مقربة من القرية ، وذهبت مع آمري السرايا للاستطلاع .

وكُلفت كتيبتي بسبعة كيلومترات على طول شاطئ روزا المتعرج . وهي في القتال ، حسب قواعدنا ، مساحة كبيرة حتى على الاي . ولكن هذا لم يثر قلقي . فقد كنت واثقاً بان العدو ، اذا اقترب حقاً من هذا المكان ، لن يواجه كتيبة واحدة ، بل خمس أو عشر كتائب . وعلى هذا الحساب كان يجب ، في ظني ، إعداد الاستحكامات .

لا تنتظر مني وصفاً للطبيعة . فلست اعرف هل كان المنظر الممتد امامنا جميلاً او غير جميل .

كل ما اعرف انه على صفحة الماء الداكنة لنهر روزا الضيق البطيء كانت تسبح اوراق كبيرة وكأنها مقصوصة ازهرت عليها في الصيف ، على الارجح ، زهور السوسن البيضاء . قد يكون ذلك جميلاً

ولكن الذي خطر ببالي آنذاك ان هذا النهر نهر حقير ضحل ملائم لعبور العدو .

ولكن منحدرات الشاطئ من جهتنا جُعلت ممتنعة على الدبابات : فقد كانت هذه المنحدرات الشديدة التي تسمى بالاسكارب في اللغة العسكرية تنزل في اتجاه الماء بزاوية حادة وتلمع بالطين الذي قطعته المجارف.

ومن وراء النهر كانت تتراءى حقول مكشوفة ومجموعات اشجار متفرقة ، أو كما يقال ، اسافين من الاشجار . وكانت الاشجار تقترب كثيراً من الشاطئ الآخر ، في احد الاماكن المجانبة لقرية نوفلانسكويه ، حتى تمس الماء . وكان فيها ، حسب ظني ، كل ما يتمناه رسام يسعى لرسم الغابة الروسية الخريفية ، ولكن ذلك النتوء بدا لي بغيضاً : ففيه يستطيع العدو ان يحتمي من نارنا ويحتشد للهجوم .

لعنة الله على هذا الصنوبر والشوح ! يجب قطعها وابعاد الغابة عن النهر !

ومع ان احداً منا — كما قيل — لم ينتظر احتدام القتال عاجلاً في هذا المكان ، إلا انه وضعت امامنا مهمة تجهيز خط الدفاع . وكان علينا ان ننجز هذه المهمة بكل عناية ودقة ، كما هو واجب على ضباط الجيش الاحمر وجنوده .

٥

ظهرت اولى بوادر التراجع في اليوم التالي : فقد كان السكان يسيرون متعبين تاركين كل شيء وراءهم ، وفيهم المحاربون الذين تخلصوا من التطويق جماعات صغيرة .

كان اول ما لقيتهم — هؤلاء المتشردين المرتدين البسة الجنود — في مطبخ الكتيبة .

كانوا يصطلون عند النار ، ينظر إليهم بفضول ، آمر فصيلة الادارة الملازم الكهل بونوماريف ، الذي كان قبل الحرب مديراً لورشة بناء غير كبيرة . وقد اجتمع هنا ايضاً الطهاة والمحاربون الذين كانوا يعملون في ذلك اليوم في المطبخ .

صرخ بونوماريف: « تهيأ ! » وسارع إلى تقديم التقرير .

نظرت من طرف عيني إلى الجالسين عند النار : فنهض بعضهم واقتصر بعضهم الآخر على التململ في مكانه .

سألت : — من هؤلاء ؟

فتقدم جندي قصير القامة مجدور الوجه قليلاً وقال :

— من التطويق ايها الرفيق الملازم الاول !

في ذلك الصباح سمعت لاول مرة بهذه الكلمة .

— اي تطويق ؟ واين ؟

— عند فيازما ايها الرفيق الملازم الاول ... انه يندفع الآن إلى هنا .

— من ؟

— معروف من ... الالمان ...

— هل رأيتهم ؟

— وهل يمكن رؤيتهم ؟ انهم ينثرون الالغام كما ينثرون حب الحمص ... او انهم يندفعون في الطرقات على الدبابات ويطلقون النار في جميع الجهات .

— هل رأيت الدبابات ؟

في السينما ايها الرفيق الملازم الاول يمكن النظر إلى الدبابات بهدوء ... اما هنا فلا يتسع الوقت للرؤية ! فكل شيء يعيق العين عن النظر ، حتى النور لا تراه ، عندما تهدر الدبابة وتطلق نارها هنا وهناك .

ـ اين بندقيتك ؟

ـ معي ، وسليمة . ولكنها غير نظيفة ، فالمعذرة ايها الرفيق الملاز الاول . . .

ـ وإلى اين انتم ذاهبون ؟

ـ إلى موسكو ، للالتحاق بالوحدة . . . لقد سرنا بنشاط وسبقن الكثيرين . لقد استلمت ، ايها الرفيق الملازم الاول ، رئاستهم لكي اقودهم . . . يقال اننا سندخل غمار القتال في موسكو . . . سنذهب الآن . . . لا يجوز ان نتماهل هنا ، فسيكون العدو هنا قريباً . . . ألا تسمح لنا بتناول الطعام من قدركم ايها الرفيق الملازم الاول ؟

كانت البساطة التي اعترف بها هذا الجندي المجدور القصير بالهرب ، رهيبة جداً . كان المحيطون به يصغون إليه ظامئين .

ونظرت مرة اخرى إلى « وحدته » . لقد مضى عليهم جميع زمن طويل دون ان يحلقوا فيه لحاهم أو يغتسلوا ، ولهذا كانت وجوههم ذات لون رمادي واحد . وجف الطين عند النار على جزماتهم وطماقاتهم . ولم يكن على المعاطف العسكرية شارات الرتب .

سألت : ـ هل كلكم جنود ؟

فبدت الحيرة على الوجوه . ثم نهض احدهم وكان شاباً في الثانية والعشرين من عمره ذا عينين حزينتين حائرتين .

قال : ـ اني ملازم ، آمر الفصيلة .

لست ادري اذا كان تعبير وجهي قد تغير ، ولكني في سريرتي شعرت بما يشبه اللطمة : كيف يهرب من الجبهة آمر فصيلة ، ملازم ، ضابط في الجيش الاحمر ، مع نفر من الجنود ، تحت رئاسة جندي مجرب .

في هذه اللحظة وضع الطاهي امام « المطوقين » صحفة من الحساء الساخن . وقال :

ــ كلوا ، لن تضيعوا بعد الآن ، فقد وقعتم بين ذويكم . . . استعيدوا صحتكم !

صرخت :

ــ قفوا ! ايها الملازم بونوماريف ! اعتقل الهاربين وخذ منهم سلاحهم !

فقال الجندي المجدور : ــ لن اعطي بندقيتي .

ــ اسكت ! ايها الملازم بونوماريف ، نفذ الامر !

لم اكد انهي كلامي حتى رأيت ان بونوماريف ينظر إلى ناحية معينة من ورائي ، رافعاً حاجبيه من الدهشة .

التفت ، فرأيت زهاء عشرة اشخاص باللباس العسكرى ، يسيرون تعبين نحو مطبخ الكتيبة ، هذا يحمل بندقية وذاك صفر منها . وقد رفع بعضهم قبات معاطفه ووضع ايديه في جيوبه . لم يحدث عندي هذا اطلاقاً ، وكان واضحاً حتى من بعد انهم ليسوا من رجال كتيبتي . اقتربوا ، فسألت :

ــ ما هؤلاء الناس ؟

فكان الجواب :

ــ من التطويق ايها الرفيق الملازم الاول .

٦

تفقدت في ذلك اليوم ، كالعادة ، كل منطقة دفاع الكتيبة . كان الطقس بارداً والريح غير هادئة . وكان ثلج قليل واخز يبقى حبوباً جليدية على العشب ويتكوم اكواماً صغيرة عند كتل الارض

المفلوحة المتصلبة . وكانت الساعة ساعة الغداء ، فكان الجنود يأكلون في اماكن مغطاة – في خنادق غير جاهزة أو وراء اكوام الطين المجروف.

وفيما انا مار بالخط المعلم بالمجارف المنصوبة ، سمعت :

– كلا ، ياجماعة ، انه لن يضرب من حيث تنتظرون ان يضرب . . . انه لا يحب هذا ، لا يحب التسلل من حيث يُنتظر منه ذلك . . .

وسمع صوت اصطكاك المعالق . كانت جماعة تتناول غداءها في حفرة وراء كومة غير عالية من التراب المهال .

– وماذا يحب ؟

وعلمت من اللهجة ان السائل كازاخي .

– يلف ويدور . . . وعندئذ تعرف ماذا يحب .

ومن جديد سأل الكازاخي :

– وعندئذ ماذا ؟

لمن هذا الخندق ؟ واي كازاخي هناك ؟ اسعفتني الذاكرة باسم بارامبايف . نعم انه هو ، فهنا طقم رشاشه . او غاليولين . . . فهما من طقم رشاش واحد . عليهم اللعنة ، انهم يطعمون ايضاً هؤلاء القادمين الجدد !

فال الصوت الجديد : – عندئذ اصمد ، وإلا فالهلاك . . .

– في الغابة الستر ! انه لا يحب الغابة .

وعادت المعالق إلى اصطكاكها الخافت . كان يأكل مع جنودي اولئك الذين خرجوا من التطويق . وقال صوت آخر من الاصوات التي لا اعرفها :

– كيسي بقي هناك ، وكذلك قدري . . . كنا جالسين نأكل ، كما نحن الآن ، وفجأة . . .

« . . . وفجأة هربتم ايها الانذال ! » ـ اردت ان اصرخ بهذه الجملة ، ولكن فكرة امسكتني عن ذلك .

رأيت على مسافة غير بعيدة ، ماسورة فولاذية مصقولة لامعة لرشاش مغطى وراء التربة المعشبة المرتبة في عناية . كان صاحب الرشاش المناوب هناك . وكان شريط الخرطوش مهيأ في الخزنة .

سألت : كل شيء على ما يرام ؟

ـ لم يبق إلا الضغط على الزناد ايها الرفيق آمر الكتيبة .

جلست ووجهت ماسورة الرشاش إلى صفحة الماء ، وضغطت . فراح الرشاش يشتغل وهو يرتجف . ولم يكن بعد قد اطلقنا النار بعد أن حفرنا الارض للتغطية ، فكانت اول نار تنفتح فوق خطنا .

واندفع شخص من الحفرة .

فصرخت : ـ الخطر ! إلى السلاح !

وفي الحال قال صوت كأنه صدى مشوه :

ـ الالمان !

كان صوتاً مبحوحاً إلى حد الغرابة ، صوت رجل لم يصرخ ، بل تنفس ، وكأنما بالفعل اصبح الالمان على قاب قوسين .

وفي اللحظة التالية ، هرب شخص ، وتبعه آخرون . ولم يتسع لي الوقت حتى ارى كيف حدث هذا . فقد حدث كل شيء في لمح البصر .

كانت الغابة قريبة ، على بعد مئة وخمسين او مئتي خطوة . فهربوا إليها .

ارتقيت كومة الطين ووقفت هناك انظر صامتاً إلى الهاربين .

ودوى إلى جنبي صوت غاضب :

ـ قف !

ثم انهالت الشتائم .

كان صاحب الصوت الرشاشي بلوخا الذي ظهر من مكان ما . وعندما رآني اندفع صوبي ، صوب الرشاش . ووخزتني دفقة من الحب القوي كالابرة . اني لم احب امرأة كما احببت بلوخا الرشاشي وهو يندفع إلّي .

ورأيت غاليولين يقف ، وهو كازاخي ضخم الجثة ، مهنته التعليب ، يحمل الرشاش الثقيل بسهولة على كتفيه المفرطتين في العرض . فطأطأ رأسه وضغط يده على صدره ، طالباً الصفح صامتاً . وحملته رجلاه إلي ، وراء بلوخا .

ثم التفت مورين ابو النظارات ، الذي كان قبل الحرب طالباً في التوجيهي في الكونسروتوار ، وكان يكتب المقالات في تاريخ الموسيقى . ولكن احداً لكزه مشيراً له إلى الغابة القريبة . فتواثب مرة اخرى كالارنب . ثم التفت مرة اخرى . ثم توقف . وكان وجهه الذي يتصبب منه العرق يندار على رقبته الضعيفة تارة نحوي وتارة نحو الغابة . ثم مسح نظاراته باصابعه عجلاً واندفع نحوي .

كانوا جميعاً من حضيرة واحدة ، من طقم رشاش واحد. ولم يبق الآن غائباً إلا آمر الحضيرة ، السرجنت بارامبايف .

كنت كثيراً ما امتع نظري برؤية الكازاخي بارامبايف وهو يفك الرشاش ويركبه بمهارة ، ويحزر بمهارة ، كالميكانيكي ، موضع العطل وسببه . وكنت اقول في نفسي عندما التقى به : « ها اخيراً نحن الكازاخ نصبح كالروس شعباً يفهم في الميكانيك » .

أما الآن فلا بد ان يكون قد لطى في مكان ما غير متجريء على النظر إلي .

كنت اقابل العائدين وانا صامت . كنت اعرف ان رجالي ناس

شرفاء ، وان الخجل يعذبهم الآن . . . فكيف امنعهم في مرة ثانية من هذا الاحساس الاليم ، كيف انقذهم من العار؟ هل انا موقن بانهم لن يهربوا في مرة ثانية ولن يفهموا ايضاً بعد ذلك كيف حدث هذا لهم ؟ ماذا افعل معهم ؟

اقنعهم ؟ احدثهم ؟ اصرخ فيهم ؟ احبسهم ؟

اجب : ماذا ؟

احكم علي!

١

كنت جالساً في استحكامي ، محملقاً في الارض ، سانداً رأسي المتدلي بيديّ ، هكذا (وابان باورجان ماميش اوغلي كيف كان يجلس) ، وافكر ، وافكر .

ـــ هل تسمح بالدخول ايها الرفيق آمر الكتيبة ؟

فاشرت برأسي دون ان ارفعه .

فدخل القائد السياسي لسرية الرشاشات جال محمد بوزجانوف .

وقال بوزجانوف بصوت خفيض باللغة الكازاخية :

ـــ اكساكال ...

واكساكال تعني حرفياً « اللحية الشائبة » . وبها يسمى عندنا كبير العشيرة ، الاب . وبها كان بوزجانوف يدعوني احياناً .

نظرت إلى بوزجانوف فرأيت وجهه المستدير الطيب محزوناً كئيباً .

ـــ اكساكال . . . حدثت في السرية حادثة غير عادية . فالسرجنت بارامبايف اطلق النار على يده .

ـــ بارامبايف ؟

ـــ نعم . . .

شعرت كأنما احد يضغط على قلبي . واحسست بالالم دفعة واحدة في صدري ورقبتي وبطني . فبارامبايف كان مثلي كازاخياً ــ كازاخياً ذا يدين ماهرتين ، آمراً لطقم رشاش . ذلك الذي لم انتظره .

ـــ ماذا فعلت به ؟ قتلته ؟

ـــ كلا . . . بل ضمدت يده و . . .

ـــ وماذا ؟

ـــ اعتقلته وجئت به اليك .

ـــ واين هو ؟ جئني به .

وهكذا اذن . . . ظهر في كتيبتي اول خائن ، اول شخص يهرب من المعركة بجرح نفسه . ومن ؟ بارامبايف !

دخل وهو يخطو على مهل . فلم اعرفه في الوهلة الاولى . كان وجهه الذي اصبح بلون الرماد وبرخاوة العجين يبدو جامداً كالقناع خالياً من كل تعبير ، كان كتلك الوجوه التي لا تراها إلا عند المرضى النفسيين . كان يسند يده اليسرى المضمدة على محمل ، وقد رشح الدم الحار عبر شاش الضماد . وانتفضت يده اليمنى ــ ولكنه ، وقد تقابل نظره بنظري ، عاد ولم يجرؤ على ان يرفعها بالتحية . وتدلت يده خائفة .

قلت آمراً : ــ تكلم !

ـــ اني ، ايها الرفيق آمر الكتيبة ، لا اعرف كيف . . . اني لم اقصد ذلك . . . لست اعرف كيف .

وتمتم بهذه الجملة بعناد .

ـــ تكلم !

لم يسمع مني شتيمة ، وان كان ينتظر ذلك على الارجح . ففي العمر لحظات لا يكون فيها ما يدعو للشتم . وقال بارامبايف انه تعثر وهو راكض نحو الغابة ، فوقع فانطلقت رصاصة من البندقية .

قلت : — كذاب ! انك جبان ! خائن ! ان الوطن يعدم امثالك !
ونظرت إلى الساعة فكانت حوالي الثالثة .

— الملازم رحيموف !

كان رحيموف رئيس مركز رئاسة الكتيبة . فنهض واقفاً .

— ايها الملازم رحيموف ! ادع الى هنا الجندي بلوخا . عليه ان يحضر في الحال .

— حاضر ايها الرفيق آمر الكتيبة .

— بعد ساعة وربع ، في السادسة عشرة تماماً ، صف الكتيبة في فسحة الغابة عند هذا الطرف . . . انتهى .

امرت رحيموف : — اذهب !

-- ماذا تريد ان تفعل بي ؟ ماذا تريد ان تفعل بي ؟ — قال بارامبايف هذا بعجلة ، وكأنه يخاف ألا يتسع له الوقت لذلك .

-- ساطلق عليك النار أمام الجنود !

فتداعى بارامبايف على ركبتيه . ورفع إلي يديه جميعاً ، الصحيحة منهما والمضمدة الملوثة بدم العار .

-- ايها الرفيق آمر الكتيبة ، ساقول الحق ! . . ايها الرفيق آمر الكتيبة ، اني انا . . . لقد قصدت ذلك . . .

قلت : انهض . مت على الاقل بغير ميتة الديدان .

. اصفح عني !

-- انهض !

فنهض .

وقال بوزجانوف بلهجة غير خشنة : — ايه يا بارامبايف ، يا بارامبايف ! بم فكرت ؟

وبدا لي في لحظة عابرة اني انا الذي قلت هذا ، وكأنما افلت مني ذلك الذي امرته بان يسكت .

تمتم بارامبايف : — لم افكر . . . لم افكر دقيقة واحدة ! لا اعرف انا نفسي كيف .

وتمسك مرة اخرى بهذه الجملة كما يتمسك الغريق بحبل العرمض .

قال بوزجانوف : — لا تكذب يا بارامبايف ! قل الحق لآمر الكتيبة .

— هذا حق ، هذا حق . . . لم اثب الى رشدي إلا عندما رأيت الدم ، فسألت نفسي : لماذا فعلت هذا ؟ ان ابليس هو الذي اوقعني . . . لا تعدمني ! اصفح عني ايها الرفيق آمر الكتيبة !

ربما كان في تلك اللحظة يقول الحق فعلاً . ربما كان هذا ما حدث له حقاً : انعدام ملكة التفكير ، والانهيار النفسي بسبب الخوف .

ولكن هكذا يهرب الهاربون من ميدان القتال ، وهكذا يصبحون مجرمين بحق الوطن ، دون ان يدركوا في كثير من الاحيان سبباً لما حدث .

قلت لبوزجانوف :

— سيكون بلوخا مكانه آمراً للحضيرة . وهذه الحضيرة ، هؤلاء الناس الذين عاش معهم والذين هرب منهم ، هم الذين سيطلقون النار عليه امام الجنود .

فانحنى بوزجانوف علي وقال لي هامساً :

— اكساكال ، هل نملك الحق في ذلك ؟

اجبت : — نعم ! ساتحمل فيما بعد مسئولية ذلك أمام اي كائن كان ، ولكني بعد ساعة سانفذ ما قلت . فاعد التقرير .

ودخل الجندي بلوخا الى الاستحكام وهو يلهث . واعلن حضوره

بشيء من الخرق ، وهو ينفخ انفه ويحرك حاجبيه الاشقرين اللذين يكادان لايريان .

سألت : — هل تعرف لماذا دعوتك ؟

— كلا ايها الرفيق آمر الكتيبة .

— انظر إلى هذا . . . هل تعرفه ؟

واشرت إلى بارامبايف .

فقال وفي صوته ازدراء واسف : — واسوأتا لك ! لقد اصبح وجهك كالزفت !

— ان حضيرتكم هي التي ستطلق النار عليه . . .

فشحب وجه بلوخا . وقال وهو يتنهد :

— سننفذ الامر ايها الرفيق آمر الكتيبة .

— واعينك آمراً للحضيرة . اعدّ الناس مع القائد السياسي بوزجانوف.

واقتربت من بارامبايف وانتزعت منه شارات الرتبة ونجمة الجيش الاحمر .

وكان يقف شاحب الوجه جامده ، متدلي اليدين .

٢

خرجت في الموعد المحدد ، في تمام الساعة الرابعة ، إلى الكتيبة المصطفة على شكل Π. وكان بارامبايف واقفاً في وسط الخط الخالي غير المملوء بالناس ، مرتدياً معطفه بدون حزام ووجهه إلى الصف .

وصرخ رحيموف : — كتيبة ، تهيأ !

ودوى في الهدأة صوت خاص تلتقطه اذن الآمر دائماً ، هو صوت البنادق وقد تحركت ثم جمدت وكأنها بندقية واحدة .

وبرقت ومضة فرح في عتمة نفسي الحزينة . كلا ، ليس هؤلاء

رعاعاً في معاطف عسكرية ، بل هم جنود ، بل هم قوة ، بل هـ
كتيبة .

وقدم رحيموف تقريره بدقة — اصطفت الكتيبة بناء على امرك
في تلك الساعة ، على هذه الأرض الروسية ، حيث يقف اما
الصف رجل مضمد اليد في خزي ، بلا حزام ولا نجمة ، كانت كل
كلمة — حتى كلمات التقرير العادية — تثير الانفعال في النفس .

امرت : — آمر الحضيرة بلوخا ! تقدم لعندي مع الحضيرة !

فساروا عبر الحقل في صمت وسكون — يتقدمهم بلوخا ربع
القامة ، وغاليولين العملاق ، ومن ورائهما مورين ودوبرياكوف الذي
كان مناوباً امس عند الرشاش ، — ساروا بجد كبير ، بصف منتظم
وخطوات موزونة ، لا يحولون وجوههم عن الريح التي كانت تعصف
عليها من جانب ، يحاولون عن غير ارادة ان يكونوا مستقيمي القامة
تحت نظرات المئات من الناس .

ولكنهم كانوا منفعلين مضطربين .

امر بلوخا : — حضيرة ، قف !

فانحدرت البنادق ، في حركة واحدة ، عن الكتف إلى جانب
الرجل . ونظر إلي ناسياً تقديم تقريره .

فتقدمت إليه بنفسي ورفعت يدي بالتحية . فرد بالمثل وقال بصوت
غير هادئ تماماً ، كما يتطلب النظام انه مثل والحضيرة .

قد تسأل : لماذا كل هذا ، وخصوصاً في مثل تلك الساعة ؟
نعم ، في تلك الساعة بالذات ، اردت أن ابين بكل صغيرة وتافهة ،
اننا جيش ، اننا وحدة عسكرية .

وبعد ان وقفت الحضيرة في صف واحد أمرت فدارت بحيث
أصبحت وجوهها إلى الصف العام .

قلت :

ــ ايها الرفاق المحاربون والآمرون ! ان الناس الواقفين امامكم قد هربوا عندما صرخت : « خطر ! » ــ وامرت بالاسراع « إلى السلاح! » . ولكنهم عادوا بعد دقيقة ، إذ رجع اليهم صوابهم ، إلا واحداً لم يعد ، هو الذي كان آمرهم . وقد اطلق النار على يده حتى يغادر الجبهة . ان هذا الجبان ، هذا الخائن لوطنه ، سيعدم رمياً بالرصاص بامر مني . هذا هو !

التفت إلى بارامبايف واشرت إليه باصبعي . وكان ينظر إلي ، إلي وحدي ، باحثاً عن كوة من الامل .

قلت متابعاً :

ــ انه يحب الحياة ، انه يريد التمتع بالهواء وبالارض وبالسماء ! وقد قر قراره هكذا : موتوا انتم ، اما انا فساحيا . هكذا يحيا الطفيليون ــ على حساب الآخرين .

كانوا يصغون إلي دون ان تند عنهم حركة .

كان مئات الناس الواقفين امامي يعرفون ان الحياة لن تتوفر للجميع وان الموت سيختطف بعضهم ، ولكنهم جميعاً اجتازوا في تلك اللحظات حداً معيناً ، وما كان يعتمل في نفوسهم اعربت عنه بالكلام .

ــ نعم سيقتل من يقتل في المعارك . ولكن من سيموت محارباً لن ينساه الوطن . انما سيقول عنه الابناء والبنات بفخر واعتزاز : « لقد كان والدنا بطل الحرب الوطنية ! » وسيقول هذا عنه احفاده واحفاد احفاده . ولكن هل سنموت جميعاً حقاً ؟ كلا . ان المحارب يذهب إلى القتال لا لكي يموت ، بل لكي يقتل العدو . ألا وان من يعود إلى بيته بعد ان يؤدي واجبه في ساحة الوغى ، سيسمى هو الآخر ببطل الحرب الوطنية . بطل ! لشد ما في هذه اللفظة من اعتزاز وحلاوة . اننا معشر

المحاربين الشرفاء نعرف حلاوة المجد ، اما انت ــ وتوجهت مرة اخرى إلى بارامبايف ، ــ فسترمى هنا كالجيفة ، لا شرف ولا ضمير . وسينكرك اولادكَ ويعرضون عنك .

ــ الصفح . . . ــ قال بارامبايف هذه الكلمة بصوت خفيض وفي اللغة الكازاخية .

ــ هل تذكرت اولادكَ ؟ انهم الآن اولاد خائن . ولسوف يشعرون بالخزي والعار منك ، وسيخفون اسم ابيهم عن الناس . اما زوجتك فستكون ارملة جبان خائن اعدم بالرصاص امام الجنود . انها ستذكر بالهول ذلك اليوم المنحوس الذي رضيتك فيه زوجاً . سنكتب عنك إلى مسقط رأسك حتى يعرف الجميع اننا ازلناك من الوجود بايدينا .

ــ الصفح . . . ارسلوني إلى القتال . . .

لفظ بارامبايف هذه الكلمات بصوت غير مسموع جيداً ولكن بدا ان الجميع سمعوه .

قلت : ــ كلا ! سنذهب نحن جميعاً إلى ساحة القتال ! ستذهب الكتيبة كلها إلى القتال ! هل ترى إلى هؤلاء المحاربين الذين دعوتهم إلى هنا من الصف ؟ هل تعرفهم ؟ انهم حضيرتك التي كنت آمرها . انهم هربوا معك ولكنهم عادوا . ولن يحرموا شرف الذهاب إلى القتال . لقد عشت معهم ، واكلت معهم من قدر واحدة ، ونمت إلى جانبهم تحت معطف واحد ، كجندي شريف . انهم سيذهبون إلى القتال . سيذهبون جميعاً ، بلوخا ، وغاليولين ، ودوبرياكوف ، ومورين ، سيذهبون تحت الرصاص والقذائف . ولكنهم قبل ان يذهبوا سيطلقون النار عليك ايها الخائن الذي هرب من القتال !

وهتفت بالأمر :

ــ حضيرة ، در !

فاصفرت وجوههم جميعاً واندارواً . وشعرت ان وجهي ايضاً قد انتابته قشعريرة من البرد .

ـ ايها الجندي بلوخا ! اخلع عن الخائن معطفه !

فاقترب بلوخا ، كئيباً ، من بارامبايف . ورأيت كيف ارتفعت يد بارامبايف اليمنى غير المصابة وراحت تفك المشابك . فادهشني ذلك . كلا ، انه ، وهو الذي بدا اكثر الناس تشبثاً بالحياة ، لم يكن يشعر الآن برغبة فيها . لقد كان يستقبل الموت بغير اكتراث .

خلع المعطف ، والقى به بلوخا إلى الارض وعاد إلى حضيرته .

ـ خائن ، در !

ونظر بارامبايف إلي للمرة الاخيرة بضراعة وتوسل ، واندار على عقبيه .

وامرت :

ـ على الجبان ، خائن الوطن ، الناكث بالعهد . . . حضيرة . . .

فارتفعت البنادق إلى الكتف ، وجمدت . ولكن احداها كانت تضطرب وترتجف ، هي بندقية مورين الذي ابيضت شفتاه واخذته الرجفة .

وشعرت فجأة بشعور طاغ من الاشفاق على بارامبايف

٣

وكأنما كانت البندقية المضطربة في يدي مورين تقول لي : « ارحمه ، اصفح عنه ! » .

وكأنما كان الناس ، الذين لم يشهدوا القتال بعد ، ولم تقس افئدتهم بعد على الخائن ، والذين كانوا واقفين متوتري الاعصاب ينتظرون مني ان اقول : « نار! » ، ـ كأنما كان هؤلاء يسألونني ايضاً : « لا لزوم لهذا ، اصفح عنه ! » .

وفجأة هدأ الهواء لحظة ، وجمد كأنما لكي اسمع هذه الضراعة الصامتة .

ونظرت إلى ظهر غاليولين العريض ، وقد برز رأسه فوق الصف . كان ، وهو الكازاخي ، واقفاً مستعداً لتنفيذ الامر واطلاق النار على كازاخي آخر كان ، لعدة ساعات خلت ، اقرب الناس إليه في هذه الارض البعيدة عن مسقط الرأس . وكان ظهره ، ظهر غاليولين ، يقول لي ايضاً : « لا تضطرنا إلى ذلك ، واعف عنه ! ».

وتذكرت كل ما اعرفه عن بارامبايف من اشياء حسنة : تذكرت كيف كان يركب الرشاش ويفكه ، بعناية ومهارة ، وحذاقة استاذ في السلاح . وتذكرت كيف كنت في سري اعتز به واقول : « ها نحن الكازاخ نصبح شعباً نفهم في الميكانيك » .

اني لست وحشاً ، بل انسان . . . فصرخت :

ــ دع !

وبدا كأن البنادق لم تسبل اسبالاً بل سقطت سقوطاً ككتل من الحديد . وانزاح عبء ثقيل عن القلوب .

وصرخت : بارامبايف !

فالتفت ونظر إلي متسائلاً غير مصدق ، ولكن عينيه عاد اليهما بريق الحياة .

ــ البس المعطف !

ــ انا ؟

ــ البس . . . وقف في الصف ، في الحضيرة !

فابتسم ابتسامة حائرة ، وامسك بكلتا يديه معطفه ، واسرع إلى الحضيرة وهو يلبس معطفه ماشياً لا يستطيع ادخال يديه في الكمين .

أما مورين ، مورين الطبيب ذو النظارات ، الذي اضطربت

بندقيته ، فقد دعاه بكف يده المسبلة دعوة غير ملحوظة : « قف بجانبي ! » ، ثم زحمه بكوعه في حركة ودية . وعاد بارامبايف مرة اخرى مقاتلاً ، ورفيقاً .

اقتربت منه وربتّ على كتفه وقلت :

ـ هل ستحارب الآن ؟

فهز برأسه علامة الايجاب وضحك . وابتسم كل من حولنا . وتنفس الجميع الصعداء . . .

وانت ايضاً لا بد انك تنفست الصعداء ؟ وكذلك كل من سيقرأ هذه القصة سيتنفس الصعداء عندما يصل إلى كلمة « دع ! » .

ولكن الامر لم يكن كذلك . ان ما قصصته عليك لم يكن إلا في المخيلة : لقد خطر على بالي كل ذلك بلمح البصر وكأنه في حلم .

أما الذي حدث فشيء آخر .

عندما رأيت بندقية مورين ترتجف صرخت :

ـ مورين ، هل ترتجف ؟

فانتفض ، واستقام ، واثبت عقب البندقية على كتفه بقوة اكبر ، واصبحت يده راسخة . فاعدت الامر :

ـ على الجبان ، خائن الوطن ، الناكث بالعهد . . . حضيرة . . . نار !

وسقط الجبان .

احكم علي !

لقد عضت والدي البدوي ، مرة ، وهو في الصحراء ، رتيلاء سامة ، وكان وحده بين كثبان الرمال ، ليس معه احد إلا الناقة . وكان يعرف ان سم هذه الرتيلاء مميت . فاخرج مديته وقطع قطعة من لحمه في المكان الذي عضته فيه الرتيلاء .

وهكذا فعلت الآن انا ، اذ قطعت بمديتي قطعة من لحمي .

اني انسان . وقد صرخ كل ما كان فيّ من احاسيس بشرية : « لا لزوم لذلك ، ارحمه واعف عنه ! » ولكني لم اصفح .

اني آمر ، اي أب . وقد قتلت ابناً لي ، ولكن كان يقف امامي مئات من الابناء . لقد كان عليّ ان اطبع بالدم في النفوس هذه الجملة : لا مكان للرحمة ولن يكون مكان للرحمة عندنا للخائن .

لقد اردت ان يعرف كل محارب انه اذا جبن وخان فلن يصفح عنه مهما كانت الرغبة في الصفح كبيرة .

اكتب كل هذا ، وليقرأه كل من لبس أو يهم بلبس معطف الجندي . ليعرف كل شخص منهم انه مهما يكن صالحاً ومهما كان من قبل موضع حب واعجاب ، فان الاعدام نصيبه اذا ارتكب جرماً حربياً ، او جبن أو خان .

لا موت ، بل حياة

١

عند الصباح تفقدت الموقع مرة اخرى .

وكان المحاربون كما في الامس يحفرون الخنادق .

ولكنهم كانوا كئيبين ، فلم تسمع الاذن ضحكة ولم تر العين بسمة .

ان من الصعب ان يكون المرء آمراً لجيش غير مرح .

اقتربت من الخندق فرأيت جندياً غطى خندقه بالقضبان واهال التراب عليها .

– ماذا صنعت ؟

– خندقاً ايها الرفيق آمر الكتيبة .

– وما هذا الذي من فوق ؟

– اخشاب ايها الرفيق آمر الكتيبة .

– اخرج من هناك ! ساريكَ الآن اية اخشاب هذه .

فقفز الجندي ، فاخرجت مسدسي وافرغت في الدروة الامامية عدة رصاصات .

– عد وانظر ، هل اخترقها الرصاص ؟

فخرج بعد نصف دقيقة وصرخ بعجلة :

– اخترقها ايها الرفيق آمر الكتيبة !

– ماذا انشأت ؟ كوخ ناطور كما في آسيا الوسطى ؟ هل ستحتمي هنا من الشمس ؟ . لماذا لا تتكلم ؟

فقال الجندي غصباً عنه :

– انه ينال الانسان في كل مكان . . .

– من هو ؟

فلم يجب . وعرفت انه يخاف الموت . فسألت :

– ألست تريد الحياة ؟

– بل اريد ايها الرفيق آمر الكتيبة .

– واذن اخرج من هنا كل هذه القضبان ! وضع اعمدة بغلظ اعمدة البرق ، في خمسة صفوف ، حتى لا تدخل القذيفة اذا سقطت .

فنظر الجندي حزيناً إلى الخندق ثم إلى الغابة : فمن هناك ، من الغابة ، من مكان بعيد عن طرفها ، يجب الاحتطاب وجر الاعمدة الثقيلة .

قال : – ربما لن يصيب .

لقد كانت كلمة « ربما » تحيا هنا ايضاً ، وان لم تكن لتسر احداً . انها لم تكن كلمة جديرة بمحارب على اهبة القتال .

صرخت : — هدم كل هذا ! ساجبرك على التهديم مرة اخرى اذا لم تضع خمسة صفوف .

فاخذ المجرفة وهو يتنهد وراح يزيح التراب من فوق الخندق .

ورحت انظر اليه صامتاً . كلا ، انه لم يصدق ان هذا الخندق سيجعله يضرب الالمان دون ان تناله ضرباتهم . انه لا يصدق انهم سيتساقطون تحت رصاصه . ان في قلبه شيئاً آخر .

٢

كانت بعض الفصائل ، حسب الجدول ، تتمرن في ذلك اليوم على اطلاق النار .

وقد اقيمت على الضفة الاخرى من النهر ، حيث يمكن ان ينجم العدو ، اهداف قريبة وبعيدة ، تمثل الفاشيست حتى زنانيرهم أو بقامتهم كلها .

كنت اريد ان يحصل كل محارب على عادة التصويب من خندقه ، من بيته التحترضي ؛ كنت اريد ان يصاب كل المكان الممتد امامنا برصاصنا .

كان الرصاص ينطلق على الاهداف من الرشاشات والبنادق . وكنت اتجول في الخنادق واشتغل مع كل جندي .

— لم تصب الهدف ! فكر في السبب . إما انك لم تحكم التسديد او انك لم تمسك البندقية كما يجب . هيا جرب . . . اطلق النار مرة اخرى . . .

واخيراً اصاب المحارب رسم وجه فاشيستي بطلقتين من ثلاث . وهي نتيجة غير سيئة ، وليس يسهل على الجندي في مثل هذه الحالة ان يخفي اعتزازه ، ولكن . . .

ـ لماذا هذا التجهم ؟ هكذا ستزيلهم من طريقك عندما يندفعون .

ـ وهل تنالهم بالرصاص ؟ ثم انهم ، ايها الرفيق آمر الكتيبة ، لن ينجموا من هنا .

ـ ومن اين اذن ؟

ـ ومن يعرف ؟ . .

انها كلمات سمعتها من قبل . انه الخوف من المجهول .

٣

رحت من جديد افكر .

كنت افكر وانا اتفقد الخط الممتد على طول سبعة كيلومترات ، كنت افكر وانا اعود إلى الاستحكام ، وانا اتناول طعام الغداء ، وانا اعمل في مركز الرئاسة ، وانا مستلق ليلا للنوم .

ماذا حدث للكتيبة ؟ ألم اقتل امس رمياً بالرصاص أمام الجند ، خائناً هرب لينجو بحياته ، ألم اقتل بهذا كل ما لحب الحياة من قوة عظيمة ، ألم اخنق غريزة حب البقاء الشديدة ؟

تذكرت ما قرأته مرة في احدى المقالات من « ان الانسان في القتال تتنازعه قوتان : تفهم الواجب وغريزة حب البقاء . ثم تتدخل قوة ثالثة هي النظام ، فيتغلب عندئذ الواجب » .

أليس الامر كذلك ؟ لقد تحدث جنرالنا ايفان فاسيليفتش بانفيلوف عن هذا بطريقة اخرى . لقد قال مرة ، وكنا لا نزال في آلما ـ آتا ، في حديث انعقد بيننا ليلاً (لا تسألني الآن عن هذا الحديث حتى لا نبتعد عن الموضوع ، سانقل لك فيما بعد كل هذا الحديث) ، قال : « ان الجندي ينطلق الى القتال لا لكي يموت بل لكي يعيش » .

وقد اعجبتني هذه الكلمات ، ورحت اردده‍ا في بعض الاحيان .

والآن ، ونحن نستعد للمعركة الاولى ، تذكرت وانا افكر بالكتيبة التي كتب عليها ان تحارب عند مشارف موسكو ، تذكرت بانفيلوف وكلماته تلك .

هل صحيح ان الرغبة في الحياة ، ان غريزة حب البقاء ، — هذا المحرك الاول الجبار لكل كائن حي ، — لا تظهر إلا في الهروب ؟

هل ان هذه الغريزة نفسها لا تظهربكل قوتها ، ولا تعمل بكل ضراوة وشدة ، عندما يحارب الكائن الحي ويقاتل ويعض في شجار مميت ، ويدافع ويهاجم ؟

كلا ، ان حب الحياة ، ان الرغبة في الحياة ، ان غريزة حب البقاء المتأصلة في النفس ، يجب ألا تكون عدواً لنا ، بل صديقاً ، في هذه الحرب الفذة التي نخوضها في سبيل مستقبل وطننا ومستقبل كل انسان فينا .

ولكن كيف نوقظها ونشحذها ؟

٤

كانت الاحاديث تلقى والجرائد تقرأ بصوت عال امام السرايا في الساعة المحددة لذلك .

فعزمت على المرور في تلك الساعة بالوحدات لارى ماذا يقوله القادة السياسيون للجنود .

كان دورديا القائد السياسي هو الذي يدير الحديث في السرية الاولى . فكان المحاربون ، وهم ممسكون ببنادقهم ، متكومين جماعة في الهواء الطلق عند الخنادق .

وكانت السماء تندف ثلجاً خفيفاً ، وقد ظهرت على أوراق الاشجار الابرية اولى الرسومات البيضاء التي لا تزال شفافة .

وكان الهدوء مخيماً ، ولكن كل امرئ كان ينظر امامه بشعور خاص ، كان كل امرئ ينتظر ان يفرقع كل شيء هناك ، وان تتطاير الالغام والقذائف في صفيروجثير لا يعرفهما حتى الآن إلا من احاديث الناس ، وتتقدم الدبابات في الحقل مطلقة نيرانها وتاركة آثاراً سوداء على طبقة الثلج الباكر ، ويخرج من الغابة اناس بالبسة خضراء ، ساقطين على الارض ثم ناهضين من جديد ، مندفعين نحونا لقتلنا .

كان دورديا يتكلم وهو يلقي بين الفينة والفينة نظرة على ورقة بيده . وكان ما يقوله اشياء صحيحة ، كان ما يقوله حقائق مقدسة . كان يقول ان الفاشيستية الالمانية قد هجمت غدراً على وطننا ، وان العدو يهدد موسكو ، وان الوطن يطلب منا ان نموت اذا لزم الامر ولا نترك العدو يدخل ، واننا محاربي الجيش الاحمر ملزمون بان نحارب غير ضانّين باعز ما نملك ، وهو الحياة .

نظرت إلى المحاربين . وكانوا جالسين ملزوزين بعضهم ببعض ، مطأطئي رؤوسهم أو ناظرين في الفضاء ، وعلى وجوههم امائر الحزن والتعب .

ايه ، ايها القائد السياسي دورديا ، انهم لا يصغون اليك كما يجب . . . وكان يبدو انه نفسه ، دورديا الحالم ، الذي كان معلماً قبل الحرب ، يتعذب بذلك . انه ليس ضيفاً في الكتيبة . ان القتال يعترض حياته لاول مرة ، مثله مثل اولئك الذين يتحدث اليهم .

من يدري ؟ فقد يلزمه غداً او بعد غد أن يقفز خافق القلب من خندق إلى خندق تحت وابل النار ، عندما تتفجر الارض إلى جانبه . وهناك ، وليس تحت قبة السماء الهادئة ، سيتحدث إلى المحاربين .

ولقد رأيته فيما بعد في احوال كهذه ، فكانت على وجهه بسمة وعلى فيه كلمات تتدفق غير مكتوبة على ورق .

ولكنه كان في ذلك اليوم يعاني كغيره شيئاً لا حدود لاهميته ، فلم يكن يستطيع ولا يعرف ادخال ذلك الشعور إلى قلوب المحاربين . كان يردد : « الوطن يطلب » ، « الوطن يدعو » . . . وكان عندما يقول « يجب الصمود حتى الموت » أو « الموت ولا التراجع » ، كنت تستشعر من لهجته انه يعبر عن افكاره وعن عزيمته التي اكتملت عنده ، ولكن . . .

لماذا تنطق بعبارات جاهزة ايها القائد السياسي دورديا ؟ فليس الفولاذ وحده ، بل الكلام ايضا ، مهما بلغ من قداسته ، يهترىء و « يغوص في الوحل » ، كالمسنن الذي انثلمت اسنانه ، اذا لم تشحذه !

ولماذا تردد كلمة الموت طيلة الوقت ؟ هل هذا ما يجب قوله الآن ؟ ربما كنت تفكر بان في هذه الكلمة حقيقة الحرب المرة ، الحقيقة التي يجب رؤيتها وجهاً لوجه وقبولها وغرسها في الاذهان .

كلا يا دورديا ! ليست حقيقة الحرب المرة في هذا ، ليست في هذا .

٥

انتظرت حتى انتهى دورديا من حديثه فانهضت احد الجنود .

— هل تعرف ما هو الوطن ؟

— اعرف ايها الرفيق آمر الكتيبة .

— قل اذن !

— انه اتحادنا السوفييتي ، انه ارضنا .

— اجلس .

وسألت آخر :

— وانت ماذا تقول ؟

ـ الوطن هو . . . هو الأرض التي ولدت فيها . . . هو . . . كيف اعبر عن ذلك . . . هو المكان . . .

ـ اجلس . وانت؟

ـ الوطن ؟ انه حكومتنا السوفييتية . . . انه . . . لنأخذ مثلاً موسكو . . . اننا ندافع عنها الآن . اني لم ازرها . . . لم أرها ، ولكنها الوطن . . . .

ـ واذن فالوطن لم تره ؟

فسكت .

ـ اذن ما هو الوطن ؟

فبدأوا يطلبون مني ان اشرح لهم .

ـ حسناً ، ساشرح . . . هل تريد ان تعيش ؟

ـ اريد .

ـ وانت ؟

ـ اريد .

ـ وانت ؟

ـ اريد .

ـ ليرفع من لا يريد العيش يده .

لم ترتفع يد . ولكن الرؤوس لم تعد مطأطئة ، بل ظهر الاهتمام على المحاربين . لقد سمعوا كثيراً في هذه الايام كلمة الموت ، وها انا اتكلم عن الحياة .

ـ كلكم يريد الحياة ؟ هذا حسن .

وسألت احد الجنود :

ـ هل انت متزوج ؟

ـ نعم .

— هل تحب زوجتك ؟

فاستحيا .

— قل : هل تحبها ؟

— لو لم اكن احبها لما تزوجتها .

— صحيح . وهل عندك اطفال ؟

— عندي صبي وبنت .

— وبيت ؟

— موجود .

— هل هو جيد ؟

— ليس رديئاً لي. . .

— هل تريد العودة إلى بيتك ، ومعانقة زوجتك ، وتقبيل اطفالك ؟

— ليس الوقت الآن وقت البيت. . . يجب ان نحارب .

— نعم ، ولكن بعد الحرب . هل تريد ؟

— ومن لا يريد !

— كلا ، انك لا تريد !

— وكيف لا اريد ؟

— ان العودة وعدمها متوقفان عليك . ان ذلك بيدك . اذا كنت تريد ان تبقى في الاحياء فعليك ان تقتل من يسعى لقتلك . فماذا فعلت لكي تحافظ على حياتك في القتال ولكي تعود بعد الحرب إلى بيتك ؟ هل تطلق النار جيداً من بندقيتك ؟

— كلا .

— هل رأيت ؟ . . واذن فلن نقتل الالماني ، بل هو الذي سيقتلك . لن تعود إلى البيت حياً . هل تحسن العدو ؟

— نصف على نصف . . .

— وهل تحسن الزحف ؟
— كلا . . .
— واذن . . . سيقتلك الالماني . فلماذا تقول اذن انك تريد ان تعيش ؟ هل تحسن قذف القنبلة اليدوية ؟ هل تحسن التمويه ؟ هل تحسن حفر الخنادق ؟
— اني احسن ذلك .
— تكذب ! انك تحفر الخندق متكاسلاً . كم مرة اجبرتك على رفع العوارض ؟
— مرة واحدة .
— وتقول انك تريد العيش ؟ كلا ، انك لا تريد . هل صحيح ما اقول ايها الرفاق ؟ هل يريد حقاً ان يعيش ؟

اصبحت ارى البسمات على الوجوه ، وعاد اليهم شيء من الانشراح. ولكن الجندي قال :

— اريد ايها الرفيق آمر الكتيبة .
— الرغبة وحدها لا تكفي. . . يجب دعم الرغبة بالافعال . أما انت فبالاقوال فقط تؤكد رغبتك في الحياة ، مع انك بالافعال تندس في القبر ، وانا اجرك منه بالكلابات .

تعالى الضحك ، اول ضحك من اعماق القلب سمعته في اليومين الاخيرين .

استمررت :

— عندما آمر برفع الغطاء الخفيف عن خندقك ، انما افعل هذا لاجلك ، لانك انت الذي ستجلس فيه . وعندما اؤنبك على قذارة بندقيتك انما افعل هذا لاجلك ، فلست انا الذي ساطلق النار منها . ان كل ما اطلبه منك ، وكل ما آمرك به ، انما افعله لاجلك . فهل فهمت الآن ما هو الوطن ؟

ـ كلا أيها الرفيق آمر الكتيبة .

ـ الوطن هو انت . فاقتل من يريد قتلك . منذا الذي يحتاج إلى ذلك ؟ تحتاجه انت ، تحتاجه زوجتك وابوك وامك واطفالك !

كان المحاربون يستمعون : وكان القائد السياسي دورديا يجلس معهم وينظر إلي ، رافعاً رأسه ، غامزاً بعينيه احياناً كلما جاءت ندف من الثلج واستراحت على اهدابه . وكان يبتسم احياناً بسمة غير مقصودة .

وكنت ، وانا اتكلم ، اقصده بالخطاب . كنت اريد ان يعلم هو ايضاً ، القائد السياسي دورديا ، الذي يعد نفسه كغيره للمعركة الاولى ، ان حقيقة الحرب المرة ليست في كلمة « مت » بل في كلمة « اقتل » .

لم استعمل تعبير « الغريزة » ، ولكنني كنت ادعو إليها ، إلى غريزة حب البقاء الجبارة . وكنت اعمل لشحذها واثارتها لكي يتم النصر في القتال .

تابعت اقول : ـ ان العدو قادم لقتلك وقتلي . فانا اعلمك واطلب منك ان تقتله ، ان تعرف كيف تقتله ، لاني انا ايضاً اريد ان اعيش . ان كل واحد منا يأمرك قائلاً : اقتل ، فنحن نريد ان نعيش . وانت تطلب من رفيقك ، بل يجب عليك ان تطلب منه ، اذا كنت حقاً تريد العيش : اقتل ! فالوطن هوانت ، الوطن هو نحن ، هو عائلاتنا ، هو امهاتنا ، هو زوجاتنا واطفالنا . الوطن هو شعبنا . ربما اصابتك مع ذلك رصاصة ، ولكن يجب ان نقتل العدو قبل ذلك ! اقتل ما استطعت ان تقتل ! فبذلك تنقذ من الموت هذا وهذا (واشرت باصبعي إلى المحاربين) ـ تنقذ رفاقك في الخندق رالبندقية ! وانا ، آمركم ، اريد ان انفذ ارادة زوجاتنا وامهاتنا ، ارادة شعبنا ، اريد ان اقودكم إلى القتال لا لكي تموتوا ، بل لكي تعيشوا ! مفهوم ؟ انتهى ! آمر السرية ! وزع الناس على نقاط النار .

٦

دوت الاوامر : « الفصيلة الاولى ، قف ! » ، « الفصيلة الثانية ، قف ! »

فهب المحاربون ، ووجدوا بسرعة اماكنهم ، وسوّوا صفوفهم كما يجب . وسوّي بسرعة صف الحراب بعد تذبذب . فكنت تشعر في الحال انك امام صف من المقاتلين ، امام قوة منظمة موجهة . وكانت الفواصل بين الفصائل تبدو كأنها اعشاش تجلس فيها بثبات اربطة غير منظورة .

قد يكون خطابي ساذجاً بعض الشيء ، ولكن بدا لي في تلك اللحظة اني بلغت مرامي. فقد تخلص الناس من كلمة « الموت » الثقيلة الخانقة ، دون ان يتهاونوا امام الواجب والشرف .

الجنرال ايفان فاسيليفتش بانفيلوف

١

قدم الينا في اليوم التالي ، في الثالث عشر من الشهر .

لم نكن ننتظره ، ولكن آمري السرايا كانوا ، بدعوة مني ، يجلسون في مركز الرئاسة ، وكأنما قد اجتمعوا قصداً لاستقباله .

هل يجب ان اصف لك مركز الرئاسة ؟ انظر من حولك : هناك ، في غابة قريبة من موسكو ، كان ملجؤنا مثل هذا الاستحكام : حجرة رطبة محفورة في الارض ومدعومة بالعوارض ، ولا يمكن المساس بجدرانها لانك ستلصق بالصمغ . وكان ثمة مصباح يضيء ليل نهار . ومن هذا المكان تخرج اسلاك إلى جميع الجهات وكأن يداً تمسكها هنا .

وكان الآمرون يرسمون على الخرائط اماكن حقول الالغام التي

يجب بثها ليلاً ولم يكن قد بقي لحركة العربات إلا طريق ذو جسر عند قرية نوفلانسكويه . أما جميع المنافذ الاخرى إلى خطنا فكانت تلغم .

كان على المائدة ، بقرب المصباح ، فرخ من ورق الواتمان الخشن رسم عليه باقلام ملونة مخطط دفاعنا . وقد رسم هذا المخطط رحيموف رئيس مركز الرئاسة ، الذي كان يجيد الرسم .

لقد احتفظت بهذه الورقة . هل لك ان تلقي نظرة ؟ . . جميل هه ؟ ليس جميلاً وحسب بل دقيق ايضاً .

هذا الشريط الازرق المتلوي هو نهر روزا . وهذا الخط المكسر بمحاذاة شاطئ النهر هو الحاجز ضد الدبابات . وهذه البقع الخضراء هي الغابات . وهذه النقاط السوداء في الضفة الاخرى هي حقول الالغام . وهذه الاقواس الحمراء الضعيفة الانحناء ذات الخطوط المتجهة نحو الغرب ، هي دفاعنا . وهناك كما ترى علامات مختلفة ، كلها احمر ايضاً ، تدل على خنادق الرماة ، واعشاش الرشاشات ، والمدافع المضادة للدبابات ومدافع الميدان الملحقة بكتيبتنا .

ان الخط الذي عين لنا كان كما تعرف طويلاً جداً : سبعة كيلومترات لكتيبة واحدة . وهكذا انمطنا ، كما قال بانفيلوف فيما بعد ، في « خيط » . وحتى في ذلك اليوم ، الثالث عشر من تشرين الاول ، لم اكن لاستطيع ان اتصور ان هذا الخيط وحده هو الذي كان يقف في طريق الالمان في منطقة طريق فولوكولامسك ، عندما يدنون في اندفاعهم نحو موسكو من « المشارف البعيدة » من خطنا .

ولكن . . .

كان آمرو السرايا جالسين عند المصباح يضعون على خرائطهم الطوبوغرافية علامات تدل على حقول الالغام .

وكانوا يتحدثون في مزاح عن الرقم ١٣ .
كان الملازم كرايف آمر سرية الرشاشات يقول :
ـ انه رقم سعد بالنسبة لي . فقد ولدت في ١٣ وتزوجت في ١٣ .
وكل ما اباشره في ١٣ اوفق فيه ، وكل ما اتمناه في ١٣ يتحقق .
كانت عنده طريقة خاصة في الكلام . كان يجمجم ولا يُعرف دائماً هل هو يمزح أو يجد .
وسأل احد : ـ ماذا تمنيت اليوم مثلاً ؟
ونظر الجميع باهتمام إلى وجه كرايف النحيف الناتئ العظام المتسع في قسمه الاسفل . كانوا يعرفون مقدرته على « قولبة النكتة » .
ـ زجاجة كونياك ! ـ قال هذا وراح يقهقه .
ودخل رحيموف رئيس مركز الرئاسة . كان يسير دائماً بسرعة وبلا صوت ، وكأنه منتعل حذاء خفيفاً لا جزمة .
قال بصوته الهادئ المعتاد : ـ ايها الرفيق آمر الكتيبة ! ان امرك قد نفذ .
كنت قد ارسلته في استطلاع بعيد ليستوضح على اية مسافة منا كانت المعارك تجري . ولم يكن احد في رئاسة الالاي يعرف عن هذا شيئاً معيناً .
وها قد عاد رحيموف بسرعة غير متوقعة .
ـ هل استوضحت الامر ؟
ـ نعم ايها الرفيق آمر الكتيبة .
ـ هات تقريرك .
ـ هل تسمح لي بتقديم تقريري خطياً ؟ ـ سأل هذا ومدّ الي ورقة مطوية .
كانت الورقة تتضمن ثلاث كلمات : « الالمان موجودون امامنا » .

فسرت القشعريرة في بدني . هل حقاً دنت ساعة القتال ؟

ان رحيموف ذكي ، جد ذكي ! فقد عرف من الديدبان اني غير وحيد في الاستحكام فكتب هذه الكلمات الثلاث على ورقة قبل ان يدخل ، حتى لا يقولها بصوت مسموع ، حتى لا يثير هنا الذعر لا بالهيئة ولا بالصوت .

ورأيت نفسي فجأة اريد انا الآخر اخفاء هذا النبأ عن الآخرين وكأني استطيع بذلك أن اجعل الواقع خيالاً وان ازيله وابعده .

نظرت في المخطط الملون ورأيت حقول الالغام ، والنهر الذي يحاذيه الحاجز ضد الدبابات ، والخنادق المسقوفة باربعة او خمسة صفوف من العوارض الخشبية ، والرشاشات ، والمدافع . وتصورت شيئاً آخر : تصورت رجلاً في بذة عسكرية ، رجلاً مقاتلاً .

سألت باللغة الكازاخية :

ـ هل رأيت بنفسك ؟

كنت اثق برحيموف ولكني مع ذلك سألت .

ـ نعم .

ـ اين ؟

ـ على بعد عشرين او خمسة وعشرين كيلومتراً من هنا : في قرية سيريدا وغيرها من القرى .

ـ والمسافة التي بيننا وبينهم ؟ ماذا فيها ؟

ـ ارض لا يسيطر عليها احد .

وقلت بالروسية : نعم ، ان رغبتك يا كرايف ستتحقق كما يبدو : ففي الطريق اليك كثير من زجاجات الكونياك . . .

فنظر الجميع نظرة استفهام .

ــ . . . وزجاجات روم ايضاً . ان الالمان موجودون امامنا . اوضح لهم الموقف يا رحيموف .

استمعوا إلى رحيموف ساكتين ، إلا كرايف الذي تمتم قائلاً :

ــ هذا حسن !

فسأل احدهم : ــ وأي حسن في هذا ؟

ــ هل الوقوف حسن ؟ لقد مللنا الوقوف .

ودخل إلى الاستحكام ، دون اذن ، سائس فرسي سينتشنكو . وهمس بصوت عال :

ــ ايها الرفيق آمر الكتيبة ! الجنرال قادم الى هنا . . .

فاعتمرت بسرعة واصلحت من هندامي واندفعت إلى مقابلته .

ولكن الباب انفتح . ودخل علينا آمر الفرقة ، الجنرال ــ ماجور ايفان فاسيليفتش بانفيلوف .

٢

نصبت قامتي وقلت :

ــ ايها الرفيق الجنرال ــ ماجور! الكتيبة تعمل على تقوية خط الدفاع . آمرو السرايا يرسمون مخطط الاماكن الملغومة . آمر الكتيبة الملازم الاول باورجان ماميش اوغلي .

وسأل بانفيلوف :

ــ هل حدثت حوادث غير عادية ؟

فقلت في نفسي : « انه يعرف » فاجبت :

ــ نعم ايها الرفيق الجنرال . اعدم امام الجنود جبان جرح نفسه في يده .

ــ لماذا لم تحله للمحاكمة ؟

فاضطربت ورحت اشرح له الامر .

قلت له انه لوكانت الظروف على غيرما هي عليه لاحلته للمحاكمة . ولكن في ظروفنا هذه كان لا بد من العمل بسرعة فاخذت على عاتقي مسئولية الامر .

لم يقاطعني بانفيلوف .

وكانت هذه اول مرة اراه فيها مرتدياً معطفه الفرائي القصير . وكان الجلد الابيض الطري الذي يثير رائحة خفيفة عذبة من القطران ، واسعاً عليه لم يخيط على قده ، ولكنه كان قد لان وزال انتفاخه فبان صدره الغائر الذي تقطعه حمالات المسدس واستبانت انحناءة ظهره . وكان يصغي الي ونظره في الارض ورقبته المجعدة محنية إلى تحت . وخيل إلي انه لا يستحسن فعلتي .

وسأل : — هل انت الذي اطلقت عليه النار ؟

— كلا ايها الرفيق الجنرال . اطلقت النار الحضيرة التي كان آمرها ، ولكنني انا الذي امرت .

فرفع بانفيلوف رأسه .

كان حاجباه الكثيفان مقطبين فوق عينيه الصغيرتين الحولاوين حولاً بسيطاً .

قال : — اصبت بعملك .

ثم كرر قوله بعد تفكير :

— اصبت بعملك ايها الرفيق ماميش اوغلي . اكتب بذلك تقريراً .

وعندئذ فقط ، كما بدا ، لاحظ ان الجميع واقفون من حوله .

فسارع الى القول : — اجلسوا ايها الرفاق ، اجلسوا ! وفك ازرار حزامه وراح يخلع معطفه الفرائي القصير .

وعندما اصبح في قميصه الجوخي ذي النجوم غير الملحوظة بسبب لونها التمويهي ، زاد بروز انحناءة ظهره .

ــ ولكن البرد عندك ايها الرفيق ماميش اوغلي شديد نوعاً ما . فلماذا لا تدفىء المكان ؟ واظن ان الشاي الساخن لا وجود له عندك ؟

واقترب من المدفأة الحديدية ولمس البوري البارد والقى نظرة وراء المدفأة وكأنما يبحث عن شيء ، وشاهد قدوما فجلس القرفصاء وراح بمهارة يقطع الحطب إلى اجزاء صغيرة بضربات دقيقة غير قوية .

اسرع اليه رحيموف ، وقال :

ــ ايها الرفيق الجنرال ، اسمح لي ، انا سوف . . .

ــ لماذا ؟ اني احب هذا . في مرة اخرى يترتب عليك طبعاً ان تهتم بأمرك .

كانت تلك طريقة بانفيلوف . كان كثيراً ما يأتي بالملاحظات بصورة ملتوية غير مباشرة .

ولكنه اضاف بلطف لكي يعدّل من وقع هذه الملاحظة رغم نعومتها :

ــ اجلس ايها الرفيق رحيموف اجلس ! هنا على هذه الحطبة .

لم ار في حياتي احداً ، سوى بانفيلوف ، يصفّ شظايا الحطب بهذه الطريقة : كالخيمة . كان يزن بعضها ، وهي التي اكبر من غيرها ، بيده . وقد اراد مرة ان يضع شظية ولكنه تردد قليلاً ثم سحبها .

لست ادري اذا كان يدور بخلدك ان الجنرال لا يبدي تردداً حتى في اشعال الموقد . ولكن بانفيلوف لم يتضايق من هذا . وعندما ادخل شيئاً من لحاء البتولا واولع كبريته اشتعلت النار فوراً في الموقد .

وجلس دقيقة عند النار . وكان الوهج الاحمر يتلاعب على وجهه غير التعب رغم تجاعيده وسنيه الخمسين .

قال وهو ينهض : ـ هكذا اكثر مرحاً . . . هل انتهيت ايها الرفيق ماميش اوغلي .

ـ انتهيت ايها الرفيق الجنرال .

ومددت له بتقرير موجز فقرأه على ضوء المصباح ووضع الورقة على المائدة وغمس الريشة بالحبر وكتب وهو يتنهد : « موافق » .

٣

كان على المائدة كما تعرف مخطط لدفاعنا مرسوم جيداً .

فازاح بانفيلوف التقرير جانباً وراح ينظر بامعان في هذا المخطط .

قال : ـ لا بأس ، على ما يبدو ، من احكام التحصينات ، ولكن . . .

وحك قذاله بحركة روسية محض .

ـ ساتفقد هذا معك فيما بعد ايها الرفيق ماميش اوغلي . سارى المكان . . . هل تعرفون الموقف ايها الرفاق ؟

كانت الاجوبة مترددة .

فاخرج بانفيلوف من حقيبته الجنبية خارطة اصبحت شبه ممزقة ، مهترئة عند مواضع الطي ، فبسطها ووضعها فوق المخطط .

قال : ـ اقتربوا ايها الرفاق لنر . ان العدو اخترق الخطوط هنا وهنا .

واشار إلى بعض المواضع قرب فيازما وتابع قوله وهو يتطلع الى الوجوه ليرى اذا كان الجميع قد رأوا وفهموا :

ـ ان قواتنا تحارب في منطقة غجاتسك وصيتشوفكا . هذه هي نقط المقاومة الرئيسية .

ورسم عدة دوائر غير صحيحة الشكل في مواضع مختلفة من الخارطة ، برأس قلم غير مبري ، ودون أن يضغط على الورق . ونظر من جديد فينا جميعاً .

وقال بعد ان وضع القلم جانباً : — ربما كنتم تظنون ان العساكر الخردة التي مرت بنا في هذه الايام هي جيشنا .

ابتسم وارتسمت على طرفي عينيه السائبين خطوط شبيهة بارجل الوز . ولم يجرؤ احد على هز رأسه إلا كرايف .

— اعترفوا ، هل كان هذا ظنكم ؟

لم يجب احد . لقد مس بانفيلوف ما يثقل قلب كل واحد منا .

— كلا ايها الرفاق . ان الجيش يحارب . هل تظنون ان الالمان تركونا هنا جالسين كل هذه المدة لو لم تحاربهم وحداتنا القتالية ؟ لقد اقترب العدو الآن من خطوطنا ، ولكن بقوات غير كبيرة . . . فالقوات التي تحاربه في مؤخرته تقيده . ان خط الفرقة كثير الامتداد ، ولكن . . .

وسكت بانفيلوف .

— وضعت تحت قيادة فرقتنا عدة الايات من المدفعية المضادة للدبابات . الرقم لن اذكره لكم . انها مدفعية القيادة العليا .

وتناول بانفيلوف القلم مرة اخرى وراح من جديد ينظر إلى الخارطة . واحنى رأسه المحلوق الذي يتساوي فيه — حسب الظاهر — عدد شعراته البيض والسود ، ووصوص عينيه وهو يتفقد العلامات الطوبوغرافية كأنه يبحث عن شيء غير واضح .

وقال بصوت خفيض كأنما يسأل نفسه : — فيم المهمة الآن ؟ المهمة هي مقابلة العدو بهذه المدفعية في المكان الذي يضرب فيه ضربته الرئيسية . فاذا كانت الضربة الرئيسية هنا ، عندكم ، كانت هنا

مدفعية القيادة العليا. تستطيعون ايها الرفاق الآمرون نقل هذه التعليمات إلى الجنود ولكن . . . بعد كم من الوقت تستطيع ايها الرفيق ماميش اوغلي جمع الكتيبة ؟

ــ بنفير الخطر ايها الرفيق الجنرال ؟

ــ كلا ، ولماذا بنفير الخطر . . . هل تكفي ساعة ؟

ــ نعم ايها الرفيق الجنرال .

كان من عادة بانفيلوف عندما يأتي لعندنا ان يتحدث مع الكتيبة بعد تفحص الاستعدادات . فاخرج ساعته وفكر واضعاً ابهامه على زجاجها .

ــ لا ايها الرفيق ماميش اوغلي ، لن استطيع . فهذا القائد الصغير ــ واشار الى ساعته ــ لا يسمح لي . لا تجمعوا الكتيبة ! واذن ، ايها الرفاق الآمرون سنبدأ القتال . . . سيزحف الماني ، فنصرعه . ثم يزحف آخر فنصرعه ايضاً . سنطحنهم . . .

ونهض بانفيلوف فنهض الجميع .

ــ نطحنهم . . .

اعاد بانفيلوف هذه الكلمة التي اعطاها الحزب للجيش الاحمر وكأنما استمع الى وقعها كيف يكون..

ــ هل فهمتم عني ؟

كان بانفيلوف دائماً تقريباً ينهي كلامه بهذا السؤال وهو يحدق في وجوه من يحدثهم .

ــ والآن . . . لا بأس الآن من كأس شاي بعد الطريق . . . يبدو لي ايها الرفيق آمر الكتيبة اني لمحت إلى ذلك من قبل ؟

فصرخت :

ــ سينتشنكو ! السماور ! على عجل !

ــ اوه ! اصبح عندكم سماور ايضاً ؟ هذا حسن . . .

فابتسم الجميع . لقد اعداهم بانفيلوف بثقته الصادقة التي لم يقصد اظهارها .

وصرف الآمرين وطوى الخارطة واخفاها .

٤

دخل سينتشنكو مهرولاً وفي يديه سماور يغلي .

فقال بانفيلوف : ــ مهلاً ، مهلاً . لماذا تركض والسماور في يدك .

فاجاب سينتشنكو بطلاقة : ــ انها الحرب ايها الرفيق الجنرال .

ــ لاجل الركض ؟

فوضع سينتشنكو السماور على المائدة بحذق ، وقال :

ــ اني اركض بحساب ايها الرفيق الجنرال .

فاعجب ذلك بانفيلوف . قال :

ــ حسناً ، حسناً . ولكن ايها الرفيق يترتب علينا ان نحارب الآن بغير حساب .

ــ باي شيء اذن ايها الرفيق الجنرال ؟

فضحك بانفيلوف وقال : ــ بثلاثة حسابات . أليس هناك شاي اخضر ؟

لقد عاش بانفيلوف طويلاً في آسيا الوسطى فاعتاد هناك على شرب الشاي الاخضر .

- كلا ايها الرفيق الجنرال .

- شيء مؤسف . . . ماذا تغلي ؟

فقدم سينتشنكو صرة مفتوحة . فنظر بانفيلوف إلى الغطاء وشمه :

ـ لا بأس به . . . حالت رائحته قليلاً . لو وضعته في علبة ايها الرفيق . . . هات ابريق الشاي ، سافعل بنفسي .

وبعد ان غسل ابريق الشاي الابيض الصغير بالماء الغالي ، رمى فيه قليلاً من الشاي ونظر ووصوص عينيه ثم اضاف كمية اخرى . ثم وضعه بلا ماء على السماور .

وشرح قائلاً : ـ ليحمّ قليلاً حتى تعود إليه نضارته .

كان الالمان امامنا وموسكو وراءنا ، وبانفيلوف عند خط القتال الرئيسي يغلي الشاي بحذق وذوق .

قال : ـ لا ترفع المخطط ايها الرفيق ماميش اوغلي . تعالوا معاً نلق نظرة . . . هل تشعر ايها الرفيق ماميش اوغلي بشيء من الكآبة ؟

كان سؤال بانفيلوف ناعماً ، ولكني كدت اقع ، فقد كان كأنما ضربني بكل قوته بهذا السؤال . ألست انا الذي قلت هذا القول نفسه بالامس لاحد المحاربين ؟ فهل انا مثله حقاً .

ـ ما الذي يحيرك ايها الرفيق ماميش اوغلي ؟ لا تنهض اجلس ، اجلس من فضلك .

قلت وقد شعرت آسفاً في لهجتي بانعدام الثقة الذي كنت احاربه عند الآخرين :

ـ اني ، ايها الرفيق الجنرال . . . قل لي ، ايها الرفيق الجنرال ، هل سيكون على الكتيبة اذن ان تحفظ سبعة كيلومترات ؟

ـ لا ، قال هذا بانفيلوف وسكت ثم ابتسم وهو يوصوص عينيه . ـ كلا . سآخذ منكم اليوم سرية من الايكم وربما سآخذ سرية اخرى فيما بعد . وبذلك سيترتب عليك ايها الرفيق ماميش اوغلي اضافة كيلومتر آخر او كيلومتر ونصف .

ـ كيلومتر آخر ؟

ــ ما العمل ايها الرفيق ماميش اوغلي ؟ امحضني مشررتك .

قال بانفيلوف هذا بدون اية سخرية ، وتقدم مني مع مقعده بحيوية شديدة ، كعهده دائماً ، كأنما انا ، الملازم الاول ، استطيع حقاً ان اشير على الجنرال بشيء .

كرر قوله : ــ ما العمل ؟ ان ما عندنا خيط ومن السهل قطعه . فاذا قطعه احد ، فما العمل بعد ذلك ؟

ونظر الي بفضول منتظراً الجواب . ولكني التزمت الصمت .

ــ لاجل هذه ال « بعد ذلك » آخذ منكم السرايا . هل هذا طيش ؟

سألني كما لو اني انا الذي قلت ذلك ، ولكني كنت اصغي اليه دون ان انبس ببنت شفة .

ــ الآن ايها الرفيق ماميش اوغلي لا يجوز الحذر . الآن يجب على المرء ان يكون . . . ــ ووصوص عينيه بشيطنة ــ حذراً ثلاثة اضعاف . وعندئذ نستطيع ، كما احسب ، مداعبته شهراً في هذا القطاع حتى فولوكولامسك .

ــ حتى فولوكولامسك ؟ أنتراجع ايها الرفيق الجنرال ؟

ــ اعتقد اننا لن نستطيع البقاء في مكاننا ، بل علينا ان نعمل بحيث يكون امامه دائماً بعض من قواتنا ، مهما اخترق من خطوط . هل فهمت عني ؟

ــ نعم ايها الرفيق الجنرال ، ولكن . . .

ــ قل ، قل ، ماذا يحيرك ؟ الجنود يخافون الالمان ، أليس كذلك ؟

ــ نعم ، ايها الرفيق الجنرال .

قدمت تقريري محاولاً ان اوجز فيه . ولكن كلمة التقرير ليست في محلها تماماً هنا . فبانفيلوف كان يحسن الاصغاء بحيوية تجعلك

تظن انك انما تتحدث عن شيء هام جداً بالنسبة له ، عن شيء بالغ الذكاء . ولم الاحظ انا نفسي اني لم اعد اقدم تقريراً وانما اتحدث ، اتحدث عما ارى واشعر .

وعندما سكت ، ظل بانفيلوف يفكر لحظة ثم قال اخيراً :

ــ نعم ايها الرفيق ماميش اوغلي . ليس ثمة ما هو مخيف لنا الآن إلا هذا .

نهض واقترب من السماور وصب في ابريق الشاي ماء غالياً ثم وضعه من جديد في مكانه وعاد .

انحنى على الورقة المرسومة دون ان يجلس وقال مرة اخرى كما عند النظرة الاولى :

ــ احكمتم الاغلاق على انفسكم .

لم يكن في لهجته دليل على الاستحسان .

ــ ثمة تضييق كبير على النفس . أليست الممرات التي تركتموها هنا قليلة ؟

اخذ قلماً واشار إلى حقول الالغام : ــ ألم تغلقوا على انفسكم بانفسكم ايها الرفيق ماميش اوغلي ؟

قلت متعجباً : ــ ولكن هذا امامنا .

ــ وانه لكذلك لانه امامنا . لا يمكن التحرك ، المكان ضيق .

فقلت في نفسي : « المكان ضيق ؟ ضيق والمسافة سبعة كيلومترات ؟ ماذا يقول ؟ » .

علّم بانفيلوف بخطوط دقيقة ، دون ان يضغط على القلم ، عدة ممرات في الحقول الملغومة . ولم اكن بعد قد فهمت السبب . ورسم بانفيلوف بشحطات خفيفة من قلم اسود عادي ــ لم يكن يحب

استعمال غيره – معالم خط دفاعنا واثبت سهماً متجهاً الى امام ناحية الالمان .

لم استطع ادراك قصده . هل يريد ان نبدأ الهجوم ، هل يريد ان ننقض على الجيش الالماني المحتشد ؟ وهذا بعد ان اعلن انه سيأخذ سرية وان على الكتيبة ان تمتد إلى كيلومتر أو كيلومتر ونصف آخر ؟ بعد ان قال ان علينا ان نكون منذ الآن اكثر حيطة وحذراً بثلاثة اضعاف ؟ بعد ان قال : «حتى فولوكولامسك» ؟ وما هذا . . . أمر ؟ ولكن هل هكذا تعطى الاوامر ؟

قال وهو يعلّم على السهم بحركة خفيفة : – لوكنت انا مكانك لكنت فكرت بان افعل . . .

ومن رأس السهم الموجه ناحية الالمان ، رسم خطاً معوجاً يشير إلى الرجوع نحو الخط وتابع كلامه وهو ينظر إلي :

– . . . لكنت فكرت . . . اني في رسمك لا ارى ولو فكرة لهذا .

واخرج بانفيلوف ساعته وعاد إلى السماور .

– هذا السيد يتطلب الاهتمام ايضاً . هيا نشرب فنجان شاي ونذهب .

سأل سينتشنكو : – هل ستنام عندنا ايها الرفيق الجنرال ؟

– كلا ايها الرفيق . ليس الآن اوان النوم . الآن اصبح ليلنا نهاراً .

ابتسم واخذ ابريق الشاي ورفع عنه غطاءه وشم ثم قال :

– يا له من شراب .

وقدم لي فنجاناً وهو ينظر إلي موصوصاً عينيه بشيطنة :

– لدينا اليوم عيد صغير . فاليوم تنقضي على مولد فرقتنا ثلاثة اشهر بالتمام . يجب الاحتفال بذلك على وجه افضل ، ولكن . . .

سيأتي زمان ذلك . . . منذ ثلاثة اشهر بالتمام اجتمعنا لاول مرة معاً انا وانت ايها الرفيق ماميش اوغلي . هل تذكركيف كنت تسير كامهر الجنود ؟

وابتسم مرة اخرى .

لثلاثة اشهر خلت

١

نعم ، اني لاذكر . لقد كان ذلك لثلاثة اشهر خلت على وجه الدقة ، في اليوم الثالث عشر من شهر تموز سنة الف وتسعمائة واحدى واربعين .

كنا في المفوضية العسكرية بكازاخستان ، حيث عملت مدرباً ، نتمتع بفرصة استراحة للغداء من الساعة الثانية عشرة حتى الواحدة . وكنت بعد الغداء خارجاً مرة من المطعم ، فرأيت وسط الساحة رجلاً محدودب الظهر غير طويل القامة يقف في لباس الجنرالية والى جانبه اثنان برتبة ماجور .

كنا في آلما – آتا نادراً ما نواجه الجنرالات . فرحت احدد النظر .

كان الجنرال واقفاً وظهره إلي ، واضعاً يديه وراء ظهره ، ومبعداً قليلاً بين رجليه . وبدا لي وجهه من نصف التفاتة شديد السمرة بل قريباً الى السواد كوجهي . وكان يصغي إلى احد الماجورين مطرق الرأس . ومن تحت قبة الجنرال العالية كانت تبدو رقبة مسودة من لفح الشمس ومخطوطة بالتجاعيد الكبيرة .

كنت مدفعياً احمل في رجليّ مهاميز ، مهاميز – ويجب ان

اعترف بهذا الضعف – غير عادية ، بل فضية في اطرافها ، لها رنة حلوة خفيفة ؟

وعندما حاذيت الجنرال خطوت خطوة استعراضية . فكانت كل خطوة تصدر رنة من المهاميز .

فالتفت الجنرال . ولم ار شيئاً في شاربيه المقصوصين على هيئة مربعين . وكانت عظمتا الوجنتين بارزتين للعيان . وكانت عيناه الضيقتان الموصوصتان مائلتين قليلاً كالعيون المنغولية . فقلت في نفسي انه تتاري .

وعندما دخلت الى الغرفة سألت الرفاق :

– من هذا الجنرال ؟ ولماذا جاء الينا ؟

فقيل لي انه الجنرال بانفيلوف ، المفوض العسكري لقرغيزيا .

هل تعرف من هو المفوض العسكري للجمهورية ؟ انه رئيس المفوضية العسكرية ، المؤسسة السوفييتية التي تشرف على تسجيل من تقع عليه الخدمة العسكرية وعلى الاعداد العسكري لمن لم يبلغ سن الخدمة . وكان بين مفوضيتينا العسكريتين – الكازاخية والقرغيزية – عقد بالتباري الاشتراكي . وكان هذا العقد يجدد مرة او مرتين في السنة . وقد ظن الجميع ان الجنرال انما جاء لهذا السبب على الارجح .

جلست الى المائدة وقربت إلي مصنفاً وفتحته . اني لاذكر اني في ذلك اليوم كنت اضع برنامجاً لسباق البدل الكومسومولي . وكان ذلك طبعاً ضرورياً وهاماً ، ولكن صدري كان منعصراً تحت وطأة عدم الرضا .

فلشهر مضى كانت الحرب قد بدأت ، وكانت تظهر في الصحف اسماء الاتجاهات الجديدة والمدن الجديدة التي احتلها العدو ، وانا الملازم الاول للجيش الاحمر ، كنت جالساً في آلما – آتا ، بعيداً عن الجبهة ثلاثة آلاف كيلومتر ، اضع برنامجاً لسباق البدل . ليس هذا ما يجب ، ليس هذا ما يجب يا باورجان !

٢

فتح الباب ودخل الجنرال . ومعه الماجوران . فنهضنا .

قال الجنرال : ــ اجلسوا ، اجلسوا . مرحباً . . . من منكم هنا الملازم الاول ماميش اوغلي ؟

ما الامر ؟ لماذا يسأل عني ؟ فنهضت مضطرباً . وابتسم الجنرال .

ــ اجلس ايها الرفيق ماميش اوغلي ، اجلس .

كان يتكلم بصوت ابح قليلاً وغير مرتفع . وجذب المقعد اليه وهو يقترب مني ، وجلس وخلع قبعته الجنرالية ذات الاطار الاحمر ، ووضعها على المائدة . وكان الشيب كثيراً في شعراته السود المقصوصة بالماكنة .

لم يكن في هيئته ولا في وجهه ولا في طريقة كلامه ورصانته ما يدل على الامر ، كما بدا لي . كل ما في الامر ان الحاجبين ، المتكسرين بصورة عمودية تقريباً في شكل زاوية قائمة ، كانا يتناقضان مع هذا تناقضاً غريباً . وكما في الشاربين ، كذلك في الحاجبين لم يكن الشيب قد حل .

قال : ــ لنتعارف . اسمي ايفان فاسيليفتش بانفيلوف . هل تعرف انه عندكم في آلما ــ آتا ستشكل فرقة جديدة .

ــ كلا ، لا اعرف .

ــ نعم ستشكل فرقة جديدة وقد عينت انا آمراً لها . وبناء على اوامر المنطقة العسكرية لآسيا الوسطى ستنقل إلى الفرقة بصفة آمر كتيبة .

واخرج من جيبه ورقة وقدمها لي .

ــ كم من الوقت يلزمك لتقديم الاوراق .

ــ وقت غير طويل . استطيع المثول بعد ساعتين .

ففكر وقال :

– لا لزوم لهذا . هل انت متزوج ؟

– نعم .

– اذن ودع اسرتك اليوم وتعال الي غداً في الساعة الثانية عشرة .

٣

وفي الغد كنت في الساعة الثانية عشرة إلا خمس دقائق ارتقي السلم العريض لدار الجيش الاحمر . ودللت على الغرفة التي نزل فيها الجنرال .

كان جالساً وراء مكتب كبير محني الظهر قليلاً مغرقاً رأسه بين كتفيه ، وهو ينظر إلى بعض الاوراق . لقد اتيح لي كثيراً فيما بعد ان التقي ببانفيلوف ، ولكني لم اره مع الاوراق إلا في تلك المرة . ان الورقة الوحيدة التي رافقته فيما بعد في كل مكان ، عند موسكو ، هي الخارطة الطوبوغرافية .

وكانت الخارطة مبسوطة امامه في تلك المرة ايضاً . وقد عرفتها على الفور : لقد كانت تصميماً لمدينة آلما – آتا وضواحيها . وكانت عليها ساعة جيب مفكوكة الحزام .

نظر الجنرال إلى الساعة ونهض بسرعة وابعد عنه المقعد الثقيل وترك المكتب . وكانت مشيته خفيفة لا تدل على عمره .

تكلمنا وقوفاً . وكان بانفيلوف تارة يمشي جيئة وذهوبا وتارة يقف واضعاً يديه وراء ظهره ومبعداً قليلاً بين رجليه .

بدأ الكلام قائلاً : هذه هي الحكاية ايها الرفيق ماميش اوغلي . ان الفرقة لم تشكل بعد . وليس هناك رئاسة ولا الايات ولا كتائب . وهذا يعني انك آمر على شيء لا وجود له . ولكن هذا كله سيكون ، سنشكل كل هذا . ومن الآن إلى ذلك الحين يترتب عليك ان تساعدني . اني اريد ان اتشاور معك .

خطا الجنرال نحو المكتب ، وتصفح الاوراق ، ووجد الورقة المطلوبة ، فاخذ قاماً احمر غليظاً ، واداره ثم التفت إلي وقال :

ــ اليك ايها الرفيق ماميش اوغلي ابلد قلم في العالم .

ــ ولماذا ايها الرفيق الجنرال ؟

فاجاب مازحاً : لان المقررات تكتب به . ثم تابع كلامه قائلاً : ــ بهذا القلم تستطيع بسهولة ان تقرر ما تشاء في دقيقتين دون ان تكون على علم بالامر . ترسم خطاً على الخارطة ، ويصبح كل شيء جاهزاً : المشكلة محلولة . تكتب قراراً وينتهي الامر : المشكلة محلولة . خذه حتى لا يقع في يدي . وانت ايضاً ايها الرفيق آمر الكتيبة ، اقلل من استعماله .

اعطاني القلم مبتسماً ثم سأل مهتماً :

ــ كيف تظن ؟ اين نبيض القدور بسرعة اكبر ؟

كانت نظرتي تعبر على الارجح عن الدهشة ، وقال مفسراً :

ــ ان فرقتنا ستكون من نوع الرديف : انها تتشكل زيادة عن البرنامج . على الجديد ليس لنا ان نعتمد . والى الطلب لن نلجأ .

اجبت على كثير من الاسئلة الاخرى ، ومعظمها بغرابة هذه الاسئلة ، والى ذلك لم استطع ان امنع نفسي عن الشعور بان بانفيلوف يهتم بامور لا يهتم بها ، كما بدا لي ، الجنرالات .

واخيراً مد إلي بورقة واعطاني تفويضاً .

قال : ــ هنا تجد عناوين المباني التي خصصت لنا من اجل نقاط التشكيل .

يجب تفقدها والتحقق من صلاحيتها جميعاً . أنظر الافنية وهل فيها مكان للتدريب ، وهل هناك مطابخ وافران وسخانات ؟

ومرة اخرى تعجبت : هل يليق بجنرال ان يشتغل بهذه القضايا ؟

اعطاني القائمة ونظر إلي في وجهي وسأل :

ــ هل فهمت عني ؟

ــ نعم ايها الرفيق الجنرال .

فتناول ساعته .

ــ كم يلزمك من وقت لانجاز هذا ؟

ــ سانتهي منه عند المساء ايها الرفيق الجنرال .

فارتفع حاجباه المتكسران بصورة عامودية :

ــ ماذا يعني هذا ــ عند المساء ؟

ــ في الساعة السادسة ايها الرفيق الجنرال .

ففكر ثم قال :

ــ في السادسة . . . كلا . . . قدم لي تقريرك عن تنفيذ الامر في الساعة الثامنة .

٤

كرت الايام وكنت انفذ مهمات صغيرة يكلفني بها الجنرال . وفي تلك الاثناء كانت الفرقة تولد والآمرون يتكاثرون .

وفي احدى المرات وكنت خارجاً من عند بانفيلوف رأيت كولونيل المدفعية يسير في اتجاهي . كانت رجلاه طويلتين ووجهه طويلاً وعند فمه تجعيدتان بارزتان .

ابتعدت من الدرب . فنظر الكولونيل إلى شاراتي على الياقة وتوقف . سألني بلهجة شديدة : ــ مدفعي ؟

ــ نعم ايها الرفيق الكولونيل .

ــ تحت امرتي ؟

ــ لا اعرف . لقد عينت آمر كتيبة .

ــ في المشاة ؟ كيف ذلك ؟ هيا بنا الى الجنرال.

وعرفت من سياق الحديث عند الجنرال ان الكولونيل الشديد اللهجة كان آمر الاي المدفعية في فرقتنا وقد وصل حديثاً .

— مره ايها الرفيق الجنرال ان يتوجه الى امرتي . وليستلم منذ اليوم فوج المدفعية .

فقال بانفيلوف مخاطباً اياي :

— وانت ايها الرفيق ماميش اوغلي ، ما رأيك في هذا ؟ هل تستطيع ان تقود فوج المدفعية ؟

— كلا ايها الرفيق الجنرال ، لا استطيع .

اصلح بانفيلوف من جلسته ، ولمع الفضول في شقي عينيه الموصوصتين المنغوليتين . لقد كانت تلك احدى خصاله : الفضول الذي لم يطفئه التقدم في السن والذي كان غريباً على عمره . وقد انتظر باهتمام كما يبدو : « ماذا تقول يا كولونيل ؟ »

سأل الكولونيل غاضباً : كيف لا تستطيع ؟ هل توليت امرة بطارية ؟

— نعم .

— عال . . . ام هل تريد ان نرسل الى فوج المدفعية ماجوراً بدلاً منك ؟ من الذين انهوا الاكاديمية ؟ لن نُعطى من هؤلاء احد . ارجوك ايها الرفيق الجنرال ان تعتبر الامر منتهياً .

ولكنني قلت باجلال واصرار :

— واجبي ايها الرفيق الجنرال ان اكون شريفاً . اني لا استطيع قيادة فوج المدفعية . ان تعليمي غير كاف .

هل تعرف من المسئول عن عنادي ؟ انه البروفسور دياكونوف الذي لا يحس ، على الارجح ، بوجودي . ان رجال المدفعية يحنون هاماتهم اجلالاً له ، هو صاحب الكتاب الضخم ذي المجلدات الثلاثة « نظرية نار المدفعية » . اني وانا الذي لا اعرف الرياضيات العالية ، ولم أنْه بعد المدرسة الثانوية إلا تسعة اشهر من دورات المدفعية ، لم آت على نهاية

هذا المؤلف . اي آمر فوج المدفعية ساكون ، وكيف سادير نار البطاريات الممركزة اذا كنت لا استطيع ان اعد الطلق « على طريقة دياكونوف » ، ولا استطيع اطلاق « طلقة دياكونوفية » صحيحة ؟

فيما بعد ، عندما شاهدت المدفعية والمدفعيين في الحرب ، ادركت ان المحق لم يكن انا وانما الكولونيل . فالحرب هي خير اكاديمية ، ولو كنت حاربت في المدفعية لما كنت اسوأ من غيري ولما سودت وجه المدفعية .

سأل الكولونيل : — ماذا تريد ؟

قلت : بطارية .

— ماذا تقول ! ان الملازمين الثانين عندي يقودون البطاريات . هل تريد ان تكون في الرئاسة ، معاوناً لرئيس مركز الرئاسة ؟

فهتفت : لا قدر الله !

ضحك الجنرال وهو يتتبع حديثنا باهتمام .

ـ عبثاً ايها الرفيق واميش اوغلي ، عبثاً . . . ان الرئاسة ليست اوراقاً حتماً . وليست قلما احمر حتماً . . .

فسأل الكولونيل : ـ اي قلم احمر ؟

فقال بانفيلوف مازحاً : اعتقد ان هذا يصح عليك ايضاً ايها الكولونيل . ساقول لك ذلك فيما بعد .

ثم اصبح جدياً واضاف :

ـ سافكر في الامر . انصرف ايها الرفيق واميش اوغلي .

٥

جاءت التتمة في تلك الليلة نفسها .

كنت مناوباً في الرئاسة . وكان بانفيلوف يشتغل الى ما بعد منتصف الليل بكثير . وكان كعادته لا يكف عن دعوة الآمرين اليه .

كانت الفرقة تولد . وكان يأتي في تلك الايام ، إلى المدارس الفارغة بسبب عطلة الصيف ، التي جعلت مراكز للتشكيل ، المطلوبون للخدمة من المدينة ومن الكولخوزات المجاورة ، وكانوا جميعاً اناساً تجاوزوا حد الشباب ، كانوا في الثلاثين او في الخامسة والثلاثين من العمر ، لم يعرف معظمهم ما هي الخدمة العسكرية .

كانوا في تلك الساعة — اعني اولئك الذين سيصبحون رجال بانفيلوف — نائمين .

وساد الهدوء اخيراً عندنا ايضاً في البيت الحجري الكبير .

صعد الباب صريفاً وسُمع وقع خطوات في الدهليز . فنهضت واصلحت من قميصي العسكري بعد ان عرفت مشية الجنرال .

واطل من الباب المفتوح .

— هل انت هنا ايها الرفيق ماميش اوغلي ؟ هل انت المناوب ؟

كان الجنرال يسير حاملاً المنشفة ، غير مرتدٍ سترة الجنرال ، بل كان في قميصه الداخلي الابيض .

وكان وجهه متعباً .

كان هواء الغرفة مشبعاً بدخان السكاير . ففتح النافذة على رحبها وجلس على كتفها .

قال : — كنت افكر بك ايها الرفيق ماميش اوغلي . انصحني بما افعل بك .

— اني ايها الرفيق الجنرال اذهب إلى حيث تأمرني . ولكن اذا سألتني رأيي . . .

— اجلس ، اجلس . . . نعم ، نعم ، اذا سألتك رأيك . . .

— . . . فاني عندئذ ارجوك ايها الرفيق الجنرال ان لا ترسلني إلى فوج المدفعية ، بل إلى بطارية او كتيبة .

ـ كتيبة ؟ ان الكتيبة ايها الرفيق ماميش اوغلي ليست سهلة على القيادة ايضاً . . . هل اطلعت على تكتيك القوات ؟ هل قرأت شيئاً في هذا ؟

فسميت بعض الذي قرأته .

ـ والقتال الانسحابي ؟ هل اطلعت عليه ؟

ـ كلا ايها الرفيق الجنرال . . .

فكرر بانفيلوف قوله : ـ نعم ، ان الكتيبة ليست لك سهلة على القيادة .

ونظر إلي نظرة جعلتني احمر خجلاً . نعم ، لقد نطق الاعتداد بالذات .

قلت : ـ جائز . ولكني استطيع الموت بشرف ايها الرفيق الجنرال .

ـ مع الكتيبة ؟

ـ مع الكتيبة .

فضحك بانفيلوف على غير انتظار :

ـ اشكرك على هذا الآمر . . . كلا ، ايها الرفيق ماميش اوغلي ، استطع ان تخوض مع الكتيبة عشر معارك ، عشرين معركة ، ثلاثين ، ثم تحتفظ بها سالمة . على هذا يشكرك الجندي !

هب من كتف النافذة وجلس الى جانبي على الديوان المنجد بالقماش المشمع .

ـ انا نفسي جندي ايها الرفيق ماميش اوغلى . الجندي لا يريد الموت . انه يذهب الى القتال لا ليموت بل ليحيا . وهو بحاجة إلى آمرين كهؤلاء . وانت تقول بكل سهولة : ـ « ساموت مع الكتيبة » . في الكتيبة ايها الرفيق ماميش اوغلي مئات الاشخاص . فكيف تريدني ان أأتمنك عليهم ؟

سكت . وسكت بانفيلوف وهو ينظر إلي . ثم قال اخيراً .

ـ ماذا تقول الآن ايها الرفيق ماميش اوغلي ؟ هل تتولى امرهم في القتال ـ لا ليموتوا بل ليحيوا ؟

ـ نعم ايها الرفيق الجنرال .

ـ هه ، هذا هو جواب الجندي . وهل تعرف ماذا يجب لذلك ؟

ـ اسمح لي ايها الرفيق الجنرال ان اسألك ان تقول انت لي ذلك .

ـ شيطان ، شيطان . . . اولاً ايها الرفيق ماميش اوغلي ، هذا . . .

ـ وربت بيده على جبهته . ـ ساقول لك سراً ، ـ ونظر خلفه مازحاً ثم عاد الى حالته وهمس : ـ في الحرب ايضاً يوجد حمقى .

ثم كف عن الابتسام واستطرد قائلاً :

ـ ويجب ايضاً شيء قاسٍ جداً . . . قاسٍ جداً ، وهو الانضباط .

فنطق لساني :

ـ ولكنك انت . . . ـ ثم امسكت .

ـ قل ، قل! لقد اردت ان تقول شيئاً عني ؟

ولكني لم اجرؤ .

ـ قل . أم هل اصدر امراً بذلك ؟

ـ اردت ان اقول ايها الرفيق الجنرال . . . انك لين العريكة . . .

ـ كلا اطلاقاً . ان هذا يخيل اليك .

لقد جرحته كلماتي على ما يبدو . فنهض واخذ المنشفة وسار بضع خطوات .

ـ لين العريكة . . . اعرف ايها الرفيق ماميش اوغلي ان القيادة لا تكون بالصراخ . لين العريكة . . . لست على الاطلاق بلين العريكة . . .

واذن لا تريد ان تتولى قيادة فوج المدفعية ؟ آ ؟

لم اجب بشيء ، بل نظرت فقط إلى الجنرال .

قال :

ـ انت بحاجة إلى دراسة في الاكاديمية ... ولكن ، .. لا بأس ! سيغضب علي الكولونيل ، ولكني ... ساعمد إلى القتال الانسحابي ... ستكون آمراً لكتيبة .

ـ ساكون آمراً لكتيبة ايها الرفيق الجنرال .

وهكذا حدث اني ، وانا المدفعي ، اصبحت آمراً لكتيبة .

٦

قضيت عدة ايام اخرى في مركز الرئاسة . وكنت ، وانا اتفقد الامور ، احاول ان افهم كيف يستطيع قيادة فرقة ، هذا الرجل الطيب القلب اللين العريكة الخالي ، كما يبدو ، مما يسمى بـ«قوة الشكيمة» .

ولكنه لم يكن دائماً لين العريكة .

ولقد رأيت مرة كيف أن آمر الرئاسة ، وقد اعتاد على سماع هذه الكلمات منه : «اجلس ، تفضل ، اجلس» ، دخل على بانفيلوف وجلس دون اذن .

فقال بانفيلوف بلهجة شديدة : ـ انهض ! اخرج من هنا . فكر وراء الباب قليلاً ثم ادخل من جديد .

وكلما اعطى بانفيلوف اوامر ما تحقق دون ان ينسى اطلاقاً من تنفيذ الأوامر في موعدها . وكانت عنده حركة يحبها وهي ان يفرك بابهامه زجاج ساعته المحدودب . وقد بدا لي احيانا وكأنه يحدب على مخلوق صغير حبيب اليه . وكان اذا تأخر احد طالب تبيان السبب . وقد اتيح لي مرة ان اشهد كيف وبخ آمراً لم ينفذ واجبه في الموعد :

ـ انك عديم الضمير ، انك رجل لا انضباط له . اني لا اعرفك إلا منذ عدة ايام ، ولكنك اثبت مع الأسف في هذه الايام القليلة انك رجل كسول .

واجتمع حاجباه الغريبان وبدا مكان انكسارهما اشد انكسارا . ولم يكن يصرخ ، بل كان يتكلم بصوت اعلى واوضح بقليل جداً من المعتاد . ولكن كلماته كانت لذلك اشد وقعاً .

وقد نقشت في ذاكرتي حادثة لا يؤبه لها .

بناء على تكليف الجنرال استلمت مع احد الجنود مدفعاً من مدافع الهاون ارسل الى الفرقة ، ونقلته إلى المستودع . واراد الجنرال ان يرى إلى هذا المدفع .

فصرخت بالجندي من النافذة :

ــ جر المدفع من المستودع الى هنا ! بسرعة ! ليكن هنا في خمس دقائق !

ولما التفت رأيت ان بانفيلوف ينظر إلي موصوصاً عينيه . انها نفس النظرة الساخرة التي جعلتني مرة احمر من الخجل .

قال الجنرال : ــ انه ايها الرفيق ماميش اوغلي لا يستطيع جلبه في خمس دقائق .

ولم يضف بانفيلوف على ذلك شيئاً . ولكن هذه الملاحظة البالغة البساطة اثارت دهشتي .

كم مرة صرخت دون تفكير : « في خمس دقائق » . ولكن بانفيلوف كان يفكر .

الفرس الغراء و «حكاية الفرس»

١

وحل اخيراً اليوم الذي ودعت فيه الجنرال وانطلقت لقيادة الكتيبة . ولكن حادثة جرت قبل هذا يجب ذكر قصتها .

كنت استعمل لتنقلاتي في المدينة فرساً من خيل رئاسة الفرقة .

كان اسمها الغراء وكانت جميلة مكتملة القد بيضاء القوائم لها بقعة بيضاء على جبهتها ، سهلة القياد .

وقد تمكنت في الاسبوع والنصف الذي قضيته في الرئاسة ، ان ادرب الغراء على اشياء .

كان يجب علي ان اذهب في اية سيارة إلى الكتيبة التي اصبحت ترابط في دسكرة تالغار على بعد ٢٥ كيلومتراً من آلما ـ آتا .

نهضت باكراً ، في الساعة الخامسة ، عندما كان الهدوء لا يزال مخيماً في الرئاسة ، ولبست ثيابي وخرجت إلى الفناء .

كانت السيارة قد تأخرت ، واردت ان ارى الغراء للمرة الاخيرة . فدخلت إلى الاسطبل وطبطبت على جسمها ومسحت عليه . فمدت شفتيها الطريئتين الى راحة يدي منتظرة على جاري عادتها ان تنال قطعة خبز او سكر جزاء طاعتها . فلم اعطها ، ولم اعطيها ؟ . . فأخذت في مكانها تؤدي الخطوة الاسبانية بقائمتيها الاماميتين كما علمتها . فابتسمت واسرجتها بسرعة وخرجت بها .

درت بالغراء في الفناء عدة دورات وهي تسير خبباً ثم جعلتها تسير الهرولة ، ثم سرت بها ، وانا افكر بشيء ما ، بالخطوة الاسبانية .

كان الوقت باكراً جداً كما قلت . وكان الفناء يبدو خالياً .

وفجأة سمعت صوتاً يقول :

هل تستطيع ايها الرفيق ماميش اوغلي ان تكون بمثل هذه المهارة في الفن العسكري ايضاً ؟

كان الجنرال واقفاً عند الباب . فنزلت عن الفرس مضطرباً .

قال بانفيلوف : استمر ، استمر . انه ليلذ لي ان ارى .

واقترب مني .

ــ هذا اذن ما ينطوي عليه اهابك . . . وهناك ، ــ واشار إ
بعيد ، ــ هل تستطيع القيادة ؟

فاجبت :

ــ هل تعرف ايها الرفيق الجنرال . . . لقد قيل لي هذا بالذا
مرة على وجه الدقة . اعني انه لم يقل لي ، ولكن . . .

ــ نعم ، نعم . . .

ــ لقد حدث ما جعلني مغتماً طوال السنة . . .

ــ شيء مثير للاهتمام . . . قل . . .

ولكني كنت قد ندمت . لعنة الله على زلقات اللسان ! لماذا اشغ
وقت الجنرال بقصص من حياتي الشخصية لا تهم سواي ؟ فحاولت ا
اوجز وقلت اني في زمن ما ، وكنت ملازماً ثانياً ، كنت فظاً مع الروسا
واصرخ في المروؤسين ولا استطيع ضبط الفصيلة . فكنت اعاقب
واعتقل . ثم دعاني آمر الالاي والقى علي محاضرة عجيبة عن قيادة الخيل
قال لي هكذا : « هل تعرف ما هي القيادة ؟ ان مثال سائق القاطرة أو
سائق السيارة لن يكون مفهوماً جيداً عندك وانت رجل البادية . . . » وراح
يتحدث عن الخيل . وقد تركت المحاضرة اثرها .

فقال بانفيلوف مستجوباً اياي : ــ لا ، قل لي بتفصيل اكثر
ماذا قال لك ؟

ــ ان ما قاله معروف لدى الجميع ايها الرفيق الجنرال . ما قال
كنت اعرفه بدونه . . .

ــ ومع ذلك ؟

ــ تحدث عن الفارس الماهر . قال ان الحصان عند الفارس الماهر
يستطيع ان ينتصب على قائمتيه الخلفيتين وان يسير الخطوة الاسبانية

وحتى ان يرقص . . . ثم تحدث عن وسائل القيادة . وهي اولاً المقود — سواء أكان لجاماً اوشكيمة اوحركات البنصر — ها هي القيادة .

— نعم ، نعم ، شيء طريف !

— وقال ان الفارس الماهر لا يحرك ابداً يده أو حتى معصمه . . . وان رعيان الخنازير هم وحدهم الذين ينترون الحصان . وهكذا دواليك على هذا المنوال . . .

— كلا ، كلا ! . . استمر . ماذا قال لك ايضاً ؟

كان يبدو على بانفيلوف انه مهتم بالامر الى اقصى حد .

وكان يبتسم ، والتجاعيد تتلاعب عند عينيه .

— تحدث عن وسائل اخرى للقيادة . . . نقل نقاط الاستناد على ظهر الفرس ، نقلاً لا تلمحه العين ، هو ايضاً قيادة . . . ورجل الفارس ؟ هناك عشرون طريقة للقيادة بواسطة المهاميز وحدها — وخز مباشر ، وخز بالتماس ، وغيره . . . ولكن الفارس الماهر لا يستعمل المهاميز إلا نادراً . يكفيه ان يلمس الفرس ببطة رجله حتى تفهم الفرس ما يريد . ولكن كيف يكون ذلك ؟

ـ نعم ، نعم . . . كيف يكون ذلك ؟

واصابني اهتمام بانفيلوف بعدواه . فاصبحت اتحدث بحماسة :

ـ نعم . كيف العمل حتى تنفذ الفرس في الحال اقل مطلب من الفارس ؟ اهم شيء هو الاصرار . اذا لم تنفذ الطلب فعاقبها ، ولا تسامحها مرة واحدة . اذا احسنت العمل فشجعها ! وافعل ذلك لا مئة مرة بل الف مرة . وقد لخص كل هذا بهدوء وقال : « انصرف » .

ـ وانت ؟

ـ لم افهم في البدء لماذا دعاني . فدرت على عقبي وذهبت . وفي العتبة ضربت دماغي فكرة كالقدوم : «هل الانسان عنده فرس ؟ هل

انا عنده فرس ؟ » واردت ان اعود واصرخ به : « انا لست لك بفرس ! »

فاغرق بانفيلوف بالضحك . ولم اره من قبل بمثل هذا المرح . واخرج منديلاً مسح به عينيه اللتين تبللتا ، وقال :

ــ حكاية مفيدة ، جد مفيدة . واذن فرعيان الخنازير هم وحدهم الذين ينترون الحصان ؟

وأمر يده على جسم الغراء وهو يضحك وسأل :

ــ هل تعجبك هذه الفرس ايها الرفيق ماميش اوغلي ؟

ــ جداً ايها الرفيق الجنرال .

ــ خذها معك . انها هدية لك . . . لتكن معك في الكتيبة .

ــ اشكرك ايها الرفيق الجنرال .

فلم انتظر السيارة وذهبت إلى كتيبتي على متن الغراء .

٢

لقد كان اتفاقي معك على ان لا اصف الطبيعة . غيري يفعل ذلك خيراً مني .

ولكنك اذا جئت مرة بعد الحرب إلي ضيفاً في الصيف رأيت مبلغ جمال كازاخستان ووصفت ضواحي آلما ـ آتا ودسكرة تالغار ونهر تالغاركا الجبلي الصاخب .

فتشت في الدسكرة عن مبنى المعهد الزراعي حيث نزلت الكتيبة . وتعرفت على رئيس مركز الرئاسة ، الكازاخي رحيموف النحيف الجسم السريع الحركة الذي كان بالامس مهندساً زراعياً ولا يزال مرتدياً لباسه المدني . وكانت تلمع على سترته شارة متسلق الجبال ، ولكن متسلق الجبال هذا لم يكن يحسن النهوض حسب النظام ولا تقديم التقرير .

تفقدت معه المكان . وكان غاصاً بالجند ، ولكني كنت وحدي باللباس العسكري . وكان الناس يتسكعون في الدهاليز . وكانوا يغنون في احدى الغرف . ومن الدهليز كانوا يهتفون للنساء عبر النوافذ . ولم يصرخ فيهم احد : « تهيأ ! » . ولم يحي احد منهم الآمر .

ورأيت اعقاب سكاير على الارض ، فاخرجت زفرة حرى وأمرت بصف الكتيبة .

فاصطفوا بغير حذق ، وفي مدة طويلة . ووقفت الى جانب انظر وافكر . تصور في نفسك هذا الصف : كثيرون خرجوا بالملابس الداخلية ، وبعضهم بالاحذية المنزلية ، ـ أما اكثرهم جداً فبالجاكتات . وكان بعضهم بالعمرات المدنية وآخرون حاسري الرأس .

سوّى متسلق الجبال الصفوف كيفما اتفق وهتف : « تهيأ ! » وراح ينظر إلّي بدلاً من ان يقدم تقريره . فاخرجت زفرة حرى مرة اخرى واقتربت من الصف .

حييت ، فاجاب من استطاع كيفما استطاع .

قدمت نفسي وقلت اني قد عينت آمراً للكتيبة ثم قلت :

ـ لا زلتم مرتدين الالبسة المدنية ، ولكن الوطن جعلكم جنداً . بعضكم مرتد بدلات حسنة ، وبعضكم الآخر ابسط من ذلك . . . بالامس كنتم اناساً مختلفين من حيث المهن ومن حيث الحالة المادية ، بالامس كان فيكم الكولخوزيون العاديون والمدراء . اما اليوم فمن الآن فصاعداً انتم جنود وآمرون صغار في جيش العمال والفلاحين الاحمر . وانا آمركم . آمرُكم فتطيعون . املي عليكم ارادتي فتنفذون .

تكلمت بشدة زائدة عن قصد .

ـ كل واحد منكم سينفذ كل ما آمره به . بالامس كان بوسعكم مجادلة رئيسكم . بالامس كان لديكم الحق في مناقشة ما يقول : هل

صحيح ما قال وهل حق ما فعل . ومنذ اليوم يسلبكم الوطن هذا الحق . منذ اليوم ليس عندكم الا قانون واحد ، هو أمر الآمر .

نظرت فرأيت بعضهم ينظر من زاوية عينه كأنما يقول : ما باله بحركة يد واحدة قضى على كل الديموقراطية . وتابعت قولي :

– من كان عنده رأي آخر فليضعه في ظرف وليرسله الى البيت ما دمنا قريبين منه . ان النظام العسكري قاسٍ ، ولكن الجيش يصان به . هل تريدون ان تصدوا العدو الذي انقض ليستعبد بلادنا ؟ فاعرفوا انه هكذا يجب لاحراز النصر !

ثم تحدثت باقتضاب عن الاستقامة والضمير والشرف . وقلت ان الاستقامة تجاه الوطن ، تجاه الحكومة ، تجاه الآمر ، هي اعلى مرتبة من مراتب كرامة الجندي . والمستقيم من كان عنده ضمير .

قلت : – لتكن عندك المعارف والمؤهلات ، لتكن عندك المهارة والحذق ، ولكن اذا عدمت الضمير فلا تنتظر مني الرحمة !

واخيراً الشرف . ولقد فسرت هذا على طريقتي . هناك مثلان كازاخيان ، احدهما يقول : « الارنب يموت من خشخشة العشب والبطل يموت في سبيل الشرف » . أما الآخر فيتألف من اربع كلمات : « الشرف اقوى من الموت » .

قلت هاذين المثلين بالكازاخية ثم ترجمتهما للروسية . فثلث الكتيبة فقط كان كازاخياً أما الباقون فروس واوكرانيون .

وعندما انهيت كلمتي دوى من الصف صوت جريء :

– ايها الرفيق آمر الكتيبة ، اسمح لي ان اقول . . .

وخرج من الصف لمسافة نصف خطوة شاب قوي الجسم متورد الوجه توردأ يحسد عليه ، مرتدياً قميصاً اسود خفيفاً .

قلت : ــ لا اسمح . ليس هذا اجتماعاً . آمري السرايا ، انطلقوا بوحداتكم !

ذلك كان اول خطاب لي واول تعارف بكتيبتي .

٣

كنت اسير في الدهليز إلى الغرفة المعدة لي .

ــ ايها الرفيق آمر الكتيبة ! اسمح لي بالقول ؟

كان امامي هو نفسه ، ذلك الذي كان اول من اسماني بآمر الكتيبة . كان شعره لم يقص بعد بالماكنة ، وكان قذاله محلوقاً حلاقة ناعمة ، ومن تحت عمرته المدنية كانت غرة تتجعد .

سألت : ــ ما اسمك ؟

ــ المحارب كورباتوف .

كان يقف وقفة عسكرية ، مستقيم القامة في وضع « تهيأ » .

ــ هل خدمت في الجيش ؟

ــ كلا ايها الرفيق آمر الكتيبة . بل خدمت في الحراسة المسلحة للخطوط الحديدية .

ــ اليك ما اقول ايها الرفيق كورباتوف : قبل ان تخاطب آمر الكتيبة يجب ان تنال بذلك الاذن من آمر السرية . فانصرف اليه .

ــ انه ايها الرفيق آمر الكتيبة لا يأبه لذلك . . . اني اقصد الحراسة . . . ان الباب الخلفي ايها الرفيق آمر الكتيبة لا يحرس . والبوابة ايضاً . واذا فجأة ايها الرفيق آمر الكتيبة . . .

قلت في نفسي : « ياللشهم » . واعجبني فيه اندفاعه واصراره ونظرته الخالصة وكتفاه العريضان ، ولكني قلت :

الى الوراء . . . در !

فتدفق الدم إلى وجه كورباتوف . واصبحت نظرته متوترة لا تشف عن طيبة . ولقد كنت افهمه ولكني نظرت إليه ايضاً بحدة . وبعد تردد لم يدم لمحة بصر ، دار كورباتوف كجندي وسار في الدهليز . وكان حتى قذاله المحمر يبدو مهاناً .

قلت لرحيموف الذي كان قريباً .

ـ ايها الرفيق رئيس مركز الرئاسة ، عين المحارب كورباتوف آمراً لحضيرة .

ولمسني احد من ورائي . فالتفت ورأيت يداً قد انسحبت بغير ثقة .

ـ لقد قلت لآمري فقال لي ان اذهب اليك ايها الرفيق آمر الكتيبة . . .

رأيت رجلاً يحمل نظارات على عينيه . وكان ذلك اول لقاء لي مع مورين . كان يرتدي جاكيتاً وربطة عنق مائلة الى جانب قليلاً ، وراح يتكلم مبتسماً لا يعرف اين يخفي يديه . وكانت يداه الرفيعتان ووجهه المستطيل الشاحب لم يسمر بعد من الشمس مع ان الوقت كان تموز .

قال بعزة نفس : ـ انا ملحق بالخدمة الادارية ايها الرفيق آمر الكتيبة ، ولقد رجوت ان انقل إلى الكتيبة ، واثبت اني بالنظارات ارى بوضوح تام . انظر إلى السقف ايها الرفيق آمر الكتيبة ، ـ ذبابة ! اني اراها بوضوح .

ـ حسناً ايها الرفيق لقد اقتنعت بذلك . وبعد .

ـ ولكن في الكتيبة ايضاً ايها الرفيق آمر الكتيبة عينت في الخدمة الادارية . اعطيت فرساً وعربة . ولكني لا املك اية فكرة عن الفرس . وليس لهذا جئت . ارجو ايها الرفيق آمر الكتيبة ان تعينني في الخدمة العسكرية . اريد ايها الرفيق آمر الكتيبة ان اكون على الرشاش .

عرفت اسمه وقلت :

ـ هذا ممكن ايها الرفيق مورين . سانقلك . فانصرف .
ولكنه على ما يبدو لم يكن واثقاً بان القضية انتهت عند هذا الحد . فسارع إلى الاتيان بحجج اضافية .

ـ لقد سمعت خطابك ايها الرفيق آمر الكتيبة . انه صحيح كل الصحة . ان كل أمر من اوامرك ايها الرفيق آمر الكتيبة سيكون ملزماً لي .

فاعدت قولي : انصرف .

فنظر بدهشة واستمر كأنما لم يحدث شيء :

ـ انا ايها الرفيق آمر الكتيبة موسيقي . طالب في صفوف التخصص في الكونسرواتوار . ولكننا جميعاً الآن ايها الرفيق آمر الكتيبة يجب ان نطلق النار .

واخذ يلعب باصابعه تدليلاً على ما يقول .

صرخت :

ـ كيف تقف ؟ الايدي !

فاستقام مورين منعقد اللسان من الدهشة .

ـ قلت لك مرتين : انصرف ! وانت ؟ يخيل اليك انك تدعو نفسك لاصعب الاشياء ـ وهو اطلاق النار . كلا ايها الرفيق مورين ، ان اصعب الامور واشدها وطأة على الانسان في الجيش هو الطاعة !

اراد مورين ان يفتح فمه ليقول شيئاً ولكني واصلت كلامي :

ـ سيبدو لك مراراً كثيرة ان الآمر غير محق ، فانت تريد النقاش وهو يصرخ فيك : اسكت ! اني اعدك بذلك . انصرف . وذهب مورين .

٤

تعرفت في ذلك اليوم على آمري السرايا والفصائل ، ووضعت جدولاً للخدمة ، وانشغلت بتنظيم الحراسة والاتصال والمهمات ، ولم ابق وحدي إلا في ساعة متأخرة من الليل .

واخرجت من حقيبة الميدان نظام المشاة الذي اعطيت اياه في الرئاسة ، وعكفت اقرأه ثم ابعدته عني ورحت افكر .

هناك حرب وطنية كبرى . الهتلريون يزدادون كل يوم تغلغلاً في اراضينا . والآن ، بعد شهر من بدء الهجوم ، وصلوا إلى سمولينسك واجتازوا نهر الدنيبر ، وراحوا يعملون ، كما يُرى من الخارطة ، للاستيلاء بسرعة على لينينغراد وموسكو وحوض الدون . انهم يعتمدون على الحرب الصاعقة ويثقون بها وعليها يبنون تكتيكهم . ان حسابهم ان ينتهوا منا قبل أن نحضر الاحتياطي .

متى تدعو الأركان العامة للجيش الاحمر فرقتنا إلى الجبهة ؟ كم يوماً ، كم اسبوعاً سنُمنح للتدريب ؟

ان الحوادث تتطور بسرعة والحالة في الجبهة متوترة حتى ان القيادة العليا قد تضطر إلى ارسالنا للقتال بعد ثلاثة او اربعة اسابيع .

فكيف يمكن ، في مدة بالغة القصر كهذه ، تحويل سبعمائة شخص ، ينامون الآن بغير هدوء تحت هذا السقف متخذين حقائب الظهر وسادات لرؤوسهم غير المحلوقة ، سبعمائة شخص من الاصحاء الشرفاء المخلصين لوطنهم ولكن ليسوا بعسكريين ولا متدربين على نظام الجيش وانضباطه ، — كيف يمكن تحويل هؤلاء إلى قوة قتالية قادرة على الصمود في وجه العدو وارعابه ؟

قد يبدو لك ذلك غريباً ، ولكني ، في تلك الليلة ، عندما كنت افكر في الحرب الكبرى ، في الجبهة ، في الوجهة التي ساذهب اليها قريباً مع الكتيبة ، عندما كنت افكر في الحياة والموت ، فيما هو اعظم شيء واهم شيء مما لا يمكن دائماً تركيز الفكر فيه ، تذكرت بـ « حكاية الفرس » . لقد قهقه الجنرال بانفيلوف عندما سمعها ، ولقد ضحكت معه آنذاك ، ولكن . . .

تذكرت كيف جُعل مني جنديا ، انا الكازاخي الطليق ، حصان البادية ، الذي لا يطيق المقود . لقد كانت الاشهر الاولى التي قضيتها في الجيش ثقيلة ثقيلة ، لا تطاق . لقد بدا لي مهيناً ان اقترب من الآمر راكضاً ، وان اقف امامه بتهيؤ ، وان اسمع قوله الآمر الموجز : « بلاكلام ! در ! » . لقد ثار كل ما في داخل نفسي : « لماذا بلاكلام ؟ ماذا اكون عنده ، عبد ؟ من انا ، ألست انساناً مثله ؟ »

ولم يثر ما في داخل نفسي وحسب ، بل لقد كنت اصفر واحمرّ واغلظ القول ولا اخضع ؟

وهل تعرف ماذا فعلوا معي في آخر الامر ؟ ارسلوني إلى دورات الامارة ، وجعلوني آمراً متوسط الرتبة ، ضابطاً في الجيش الاحمر .

وبالتدريج ادركت ما للطاعة العمياء لمشيئة الآمر من ضرورة مطلقة .

على هذا تقوم دعامة الجيش . بدون هذا لن ينتصر الناس في القتال مهما كانوا محبين لوطنهم .

ولكن كيف الوصول إلى هذا باسرع ما يمكن ؟ فتحت تصرفنا ايام معدودات فقط ، اسابيع قليلة . . . كيف يمكن في مثل هذه المهلة انشاء قوة انضباطية متدربة مرعبة للعدو اسمها الكتيبة ؟

مسيرة التبغ

١

لن اقول بكل التفاصيل كيف سار اعداد المحاربين .

ساصف فقط مسيرة واحدة تسمى في روايات الكتائب التي لم يسجلها احد بعد ، بـ« مسيرة التبغ » .

كان قد مر على استلامي الكتيبة سبعة او ثمانية ايام . وكنا قد استلمنا الالبسة العسكرية والاسلحة واصبحنا نشتغل بالبنادق ونحفر الخنادق ونعدو ونزحف ونمشي المشية العسكرية .

وفي احدى الامسيات تلقينا امراً بالبدء عند الفجر بالانطلاق في مسيرة خمسين كيلومتراً والوصول إلى علامة في وادي النهر وقضاء الليل هناك ثم العودة في نهاية اليوم التالي إلى تالغار قاطعين من جديد مسافة الخمسين كيلومتراً . وكانت قد اعطيت الاوامر بالقيام بمثل هذه المسيرة الشاقة إلى الكتائب الاخرى ايضاً — فقد كان الجنرال بانفيلوف يدرب الفرقة على التنقل .

استعد الناس في المساء للمسيرة واستراحوا ليلاً . أما في الفجر ، عندما كانت الشمس لا تزال مختبئة ، فقد اصطفت الكتيبة .

قد يبدو لك ، انت الذي لم تكن جندياً ، ان امامك وحدة قتالية مرعبة : فالصفوف حسنة الترتيب ، وعلى البنادق تلمع الحراب الجديدة ، والمقاتلون كأنهم شخص واحد في معدات سير مناسبة كاملة ، انهم كشخص واحد بالمعاطف الملفوفة والاقنعة المضادة للغاز والمجارف القصيرة ، الموضوعة في اغمادها الخضراء التي لم يحل لونها ، وفي الخوذ الفولاذية المربوطة بحقائب الظهر ، وعلى الاحزمة تتدلى ، مجذوبة بحملها قليلاً ، القنابل اليدوية وجعب الخراطيش الحية — لكل محارب مئة وعشرون خرطوشة . قلت ان الاحزمة مجذوبة قليلاً بحملها ، ولكنها عند الكثيرين مجذوبة غير قليل ، حتى ان العين تلحظ ذلك على الفور . ورأيت المعاطف الملفوفة منتفشة غير ملفوفة بشدة ، وحقائب الظهر غير محزومة باحكام ، واكياس القنابل اليدوية تتدلى على البطن . لم يكن إلا القليلين من رتبوا كل شيء كالجنود الحقيقيين . ومن هؤلاء القليلين كان كورباتوف .

دعوت كورباتوف من الصف وقلت :

ـ ايها الرفاق ! هذا آمر صغير اعد المعدات للمسير كما يليق بالجندي . فسيكون المسير عليه اسهل مما على الآخرين . انظروا كيف أحسن وضع كل شيء وكيف شد الحزام ! لقد شرحت لكم هذا الامر عشرين مرة ، واريتكم كيف يكون ، ولكنكم مع ذلك لم تفهموا . ان لساني اذن تنقصه اللذاعة . لن اتكلم بعد الآن ، بل اترك الكلمة لمعطفكم الملفوف ومجرفتكم وحقيبة الظهر . فلتقل لكم هذه الاشياء . هل تعتقدون انها خرساء لا تنطق ؟ كلا ، إن لها لساناً ، وانه لالذع من لساني ! ايها الجندي غاركوشا ، اقترب !

فهرع غاركوشا الافطس الدائم الابتسام . وكانت حقيبة القنابل اليدوية عنده قد انزلقت الى امام واصبحت تهتز كلما مشى .

ـ هل انت مستعد للمسير ؟

ـ مستعد ايها الرفيق آمر الكتيبة .

ـ قف الى جانب كورباتوف . ايها الجندي غولوبتسوف ، اقترب !

كان المعطف الملفوف عند غولوبتسوف من الغلظ بحيث وصل إلى خده . أما حقيبة الظهر فلم تكن على ظهره بل على إليتيه .

ـ هل انت مستعد للمسير ؟

ـ مستعد ايها الرفيق آمر الكتيبة .

ـ قف إلى جانب غاركوشا .

انتقيت هكذا حوالي عشرة اشخاص ممن انتفخت ملابسهم واحدالهم اكثر من غيرهم ، ووضعتهم في مقدمة الطابور .

ـ كتيبة ، تهيأ ! الى اليمين . . . در ! ورائي . . . سر !

وتحركنا .

سرت إلى جانب اولئك الذين دعوتهم ، ورحت انظر اليهم من طرف عيني . وقد مشوا بسهولة عشر دقائق او خمس عشرة دقيقة . وكانت حقيبة القنابل اليدوية طوال الوقت تخفق بين رجلي غاركوشا . واخيراً امتدت يده إلى الحقيبة لازاحتها .

واراد غولوبتسوف دفع المعطف الملفوف عنه ، لان وبر المعطف الخشن اخذ يحتك برقبته .

وكانت المجرفة تضرب رجل الثالث .

وكانوا يصلحون من اوضاع احمالهم وهم سائرون : ولكن هذا لم يكن يفيدهم .

ولم تمض عشر دقائق اخرى حتى قوّس غاركوشا قامته وابرز بطنه الى امام لكي لا تخفق الحقيبة . وعندما تقابلت نظرته بنظرتي قسر نفسه على الابتسام . أما غولوبتسوف فقد برم رقبته محاولاً برأسه ان يدفع عنه المعطف الملفوف . واصبحت حقيبة الظهر تسبب له الانزعاج . فادخل يده تحت الحبل واراد خلسة ان يرفع الحقيبة لفوق . أما غاركوشا فلم يعد يقوس ظهره ، وراح يسير محنيا ومبطئاً من خطوه .

امرت :

ـ غاركوشا ! وسع خطوك ! لا تتأخر عن كورباتوف !

ولكن الحقيبة اللعين بدأت من جديد تخفق .

وهكذا قطعنا ستة كيلومترات . ومن جديد اريت الجنود كورباتوف ثم صرخت :

ـ غاركوشا ، اقترب !

فهرع محني الظهر . وضحك الجنود .

ـ والآن يا غاركوشا قدم تقريرك . هل انت مستعد للمسير ؟

التزم الصمت كئيباً .

– هل تكلمت معك حقيبة القنابل اليدوية .

– تكلمت . . .

– قل اذن للجنود ماذا قالت لك الحقيبة .

فسكت .

– قل ولا تستحي !

– ماذا اقول لهم ؟ ان صاحبنا لا يصدق بالكلام ، فهو يقول : دعوني ألمس .

– وهل لمست ؟

– انا لم المس ، اما هي . . .

وهنا قال غاركوشا ما لا يمكن اثباته على الورق . فقهقه الجنود . وضحك هو معهم وقد خف عنه .

ودعوت غولوبتسوف ، وكان العرق ينضح منه ورقبته حمراء من الاحتكاك .

- انظروا ايها الرفاق الآن إلى هذا . هل تكلم معك المعطف الملفوف ؟ هل تكلمت حقيبة الظهر ؟ قل لنا ماذا علّماك ؟

وحملت غولوبتسوف ايضاً على ان يتحدث امام الجند . وهكذا عرضت ، الواحد بعد الآخر ، كل من آلمته حوائجه اكثر من غيره . ثم قلت :

على من يصعب السير عندما يكون المعطف الملفوف غليظاً وحقيبة القنابل اليدوية في غير محلها وحقيبة الظهر في غير محلها ؟ أعلى الجندي أم على الآمر ؟ على الجندي ! لقد شرحت لكم عشرين مرة هذا الامر ، ولكنكم على الارجح قلتم في نفسكم : « طيب ! سنفعل هذا من اجله حتى يكف عنا ! » وفعلتم كيفما اتفق . وظهر ان هذا ليس «من اجله» بل من اجلكم . لقد ابانت الحوائج لبعضكم هذا .

والآن ، في فترة التوقف هذه ، ليرتب كل شخص منكم حمله من جديد . فاذا وجدت ان احداً منكم لم يفهمني حتى الآن ، فاني سادعوه من الصف وليتحدث امامي مع الحوائج وليقتنع بان لها لساناً احدّ من لساني .

وبعد فترة التوقف هذه لم اضطر الى دعوة احد من الصف . ذلك ان احداً لم يشأ ان يتحدث مع الحوائج .

٢

وتحركت الكتيبة من جديد .

ان خمسين كيلومتراً تحت شمس تموز ليست مسافة سهلة وخصوصاً بالنسبة لأناس غير معتادين على المسير الطويل .

نظرت فرأيت السرايا قد بدأت تتفكك وبعض الجند بدأ يتأخر . فلفتّ نظر الآمرين الى ذلك . وبعد بعض الوقت تفقدت الصف من جديد . ولم تفد ملاحظتي في شيء فالطابور يزداد تفككاً وطولاً . وصرت اتكلم مع الآمرين بلهجة اشد . ومرة اخرى لم يكن لذلك من تأثير . فالآمرون انفسهم قد تعبوا واصبح بعضهم يعرج في مشيه .

تقدمت الى امام وصرخت :

ـ بلغوا امري بالتتابع : آمر سرية الرشاشات على رأس الطابور !

وبعد ربع ساعة جاء ، مهرولاً لاهثاً ، كرايف الطويل الساقين .

ـ ايها الرفيق آمر الكتيبة ، ها قد حضرت امامك امتثالاً لامرك !

ـ لماذا تفككت سريتك ؟ متى ستحافظ على الفواصل اللازمة ؟ سادعوك الى رأس الطابور ما لم تعد النظام الى نصابه . انتهى . انصرف !

والركض على طول طابور الكتيبة ليس امراً سهلاً : فهو كيلومتر تقريباً .

ثم بنفس الطريقة دعوت آمر السرية الثانية سيفريوكوف . وهو

رجل تجاوز منتصف العمر كان قبل الحرب رئيس محاسبين في معمل للتبغ في آلما ـ آتا . وبعد ان وصل إلي لم يستطع ان يستعيد انفاسه فوراً .

قال سيفريوكوف بعد ان سمع كلامي :

ـ ان الحمل ثقيل جداً على الناس ايها الرفيق آمر الكتيبة . ألا يمكن تحويل قسم منه إلى العربات ؟

اجبت :

ـ نظف رأسك من هذه الحماقة !

ـ واذن ما العمل ايها الرفيق آمر الكتيبة مع المتأخرين ؟ كيف نقسر الرجل اذا كان لا يستطيع ؟

ـ لا يستطيع ماذا ؟ لا يستطيع تنفيذ الامر ؟

فسكت سيفريوكوف .

لقد استدعيت كل آمر من الآمرين إلي مرة واحدة .

أما سيفريوكوف فلم يكفه الاستدعاء الواحد . وكان المتأخرون ينجرون جراً وراء سريته .

نظرت اليه ، إلى هذا الاربعيني المتعب السائر امام سريته . كان العرق يسيل سيلاً على وجهه المترب متدفقاً من صدغيه الاشيبين المحلوقين بعناية . هل حقاً يجب اجباره مرة اخرى على الركض ؟ فذلك امر صعب جداً عليه ! ولكن ما العمل ؟

اذا اشفق على الناس واشفقت انا عليه فماذا يكون . . . ماذا يحدث لنا بعد ذلك في المعارك ؟

ارسلت الفرس خبباً وخرجت الى امام وصرخت :

ـ آمر السرية الثانية إلى رأس الطابور !

وقد افادت هذه المرة .

فعندما اطلقت الصف من جديد ونظرت رأيت ان سيفريوكوف يسير لا في طليعة السرية بل وراءها . وكان ينظر بغضب اكثر وبعزيمة اشد ، حتى صوته قد تغير : ووصلت الى اسماعي صرخته الآمرة الشديدة .

والتم الطابور كله ، وتعينت الفواصل واضحة بين الفصائل ، ولم يتأخر احد :

وهكذا وصلنا الى المكان ، بعد ان اجتزنا خمسين كيلومتراً بلا متأخر واحد .

ولكن الناس تعبوا . ولم يدو الامر : « تفرقوا ! » حتى انهالوا جميعاً على العشب . وكانوا جميعاً يظنون ان الغداء سيوزع عليهم قريباً فيأكلون و . . . ينامون .

ولكن الامر لم يكن كذلك .

٣

تبعتنا في مسيرنا ، كما هو واجب ، عدة مطابخ سيارة . ولكننا عندما وصلنا إلى مكان المبيت ، لم آمر باحتطاب الحطب للمطابخ ووضع الاطعمة في القدور ، بل امرت بتوزيع الاطعمة نيئة على المحاربين حسب الحصة المقررة في الجيش الاحمر : لحم بكذا غراماً ، وبرغل بكذا ، ودهن بكذا ، وهكذا دواليك .

خرجت اعين الآمرين والجنود من محاجرها . فكل شيء نيء ، وما العمل به ؟ وكثيرون منهم لم يتعاطوا الطبخ في حياتهم ولم يعرفوا كيف يصنع الحساء ؟ فارتفعت الضجة :

ــ عندنا مطابخ ! انهم مجبرون على تحضير الغداء في المطابخ .

فصرخت :

ــ اسكتوا ! نفذوا الامر ! ليطبخ كل جندي غداءه بنفسه !

وهكذا اشتعلت كثير من النيران في البيداء الكازاخية الواسعة على شاطئ نهر ايلي. وكان بعض جنودي قد بلغ بهم التعب والنصب حداً لم يشاءوا معه الطبخ والنفخ ، بل تهالكوا على الارض للنوم جياعاً . وقد احترق البرغل عند بعضهم وفار الحساء ، وافسدوا اكثر مما اكلوا . وكان ذلك لهم اول درس في الطهي .

وفي الصباح امرت من جديد بعدم تهيئة المطابخ ، بل بتوزيع الحصص على المحاربين كما هي .

ثم اصطفت الكتيبة بعد الفطور وخطبت في الجنود خطبة كانت كما يلي تقريباً :

ـــ اولاً : انكم ايها الرفاق غير راضين بان المسير بهذا الطول وبهذه الصعوبة . ان هذا مقصود . ان امامنا حرباً وقد نضطر إلى سير مئات الكيلومترات ، لا خمسين ولا مئة . ولكي نخدع العدو ونكيل له ضربة غير منتظرة ، يترتب علينا في الحرب ان نقوم بمسيرة اطول واصعب من هذه . فليست هذه إلا الزهور ، اما الثمار فلا تزال امامنا . هكذا فعل القائد الروسي المشهور الكسندر فاسيليفتش سوفوروف لتقوية اجسام جنوده الذين لقبوا بالابطال الجبابرة . لقد ترك لنا وصية تقول : « ما هو صعب في التدريب سهل في القتال » . فهل تريدون القتال على طريقة سوفوروف ؟ ليتقدم خطوتين كل من لا يريد !

لم يخرج من الصف احد . فتابعت :

ـــ ثانياً : انكم غير راضين بانه قد وزع عليكم اللحم النيء رغم وجود المطابخ واُجبر المتعبون منكم على صنع حسائهم في القدور . وهذا ايضاً مقصود . هل تظنون ان المطبخ سيكون دائماً الى جانبكم في القتال ؟ تخطئون في ذلك ! ان المطابخ ستتأخر عنكم في القتال وستنفصل عنكم . وستأتي ايام تجوعون فيها . هل تسمعون جميعاً ؟ ستجوعون وستبقون

بلا سكاير ، اعدكم بهذا : تلك هي الحرب ، تلك هي حياة الجندي . مرة شبعان حتى التخمة ومرة اخرى خالي المعدة . اصبر ، ولكن لا تفقد الشرف العسكري ! احمل رأسك هكذا ! كل واحد منكم يجب ان يحسن الطهي . فاي جندي انت ، واي محارب ، اذا كنت لا تحسن طهي طعامك؟ انا اعرف ان بعضكم لم يتعاطَ الطهي في حياته . اعرف ان كثيرين كانوا يدخلون الى المطاعم عند المساء ويصرخون : « اي جرسون تعال ! هات كوب بيرة وبيفتيك هامبورغي! » وفجأة تنالون بدلاً من البيفتيك مسيراً طوله خمسون كيلومتراً ، زد على ذلك حمل ثلاثين كيلوغراماً من حوائج الجندي ، وطهي الطعام في القدور! لقد شعرتم وانتم تطبخون بالحقد علي ، أصحيح ، ما اقول ؟

وارتفعت الاصوات : « صحيح ايها الرفيق آمر الكتيبة ، صحيح ! »

وسطعت شرارة بيني وبين المحاربين ، ومر تيار كهربائي . لقد كنت افهمهم وكانوا هم يفهمون آمر الكتيبة .

٤

عدنا ادراجنا .

كان ثمة طريق معبد جيد يؤدي إلى المعسكر في تالغار . وفي هذا الطريق يسهل السير .

يسهل ؟ واذن الى الشيطان هذا الطريق ، ولنبتعد عنه ! وهل سنسير في الحرب في طرقات معبدة ؟

أمرت باخذ الناس لا في الطريق بل بعيداً عنه بمئة او مئتي متر . في الدرب حجارة — سر اذن على الحجارة . في الدرب وهدة — اجتز اذن الوهدة . في الدرب رمل — اخط اذن . كان النهار ساكناً لا رياح فيه . وكانت الشمس ترسل شواظاً من لهيبها . وكان الهواء يتصاعد من

الارض كالنوافير . وهذا ما يحدث عندما تكون الارض حامية كالوطيس والهواء يتصاعد منها كالبخار .

كنت اعرف ان هذا صعب على الناس ولكني كنت اعرف شيئاً آخر ايضاً وهو : ان ذلك ضروري للحرب ، ان ذلك ضروري للنصر .

ومررنا ، عند منحدر احرقته الشمس ، بحقل كبير مزروع تبغاً . وكان المحاربون يسيرون في درب عبر الحقل . وكان التبغ ـ تبغ كازاخستان المسمى بماخوركا ـ بالغاً طول الانسان . ولم تكن ثمة نسمة تحرك اوراقه العريضة العاطرة بفعل الشمس .

كان المحاربون يسيرون . وفجأة ، بدأ الناس يتساقطون بعد ان اجتزنا نصف الحقل وبعد أن غابت الكتيبة في غرسات التبغ .

ما هذا ؟ سقط واحد ، ثم الآخر ، ثم العاشر . . . فانتابني الخوف . فكأنما اصبنا بوباء مريع يحصد الناس حصداً . كان الناس يتساقطون دون ان تند عنهم أنة ويستلقون على الارض كالاموات .

فافرغنا العربات بسرعة ونزعنا الرشاشات ومدافع الهاون والذخائر الحربية ، ونقلنا الساقطين كيفما اتفق الى التلة ، الى الترعة .

وهناك ، بعيداً عن بخار التبغ ، عاد الناس الى رشدهم .

ولكن لم يعد هناك كتيبة ، وكانت السرايا قد اختلطت بعضها ببعض . وكان المحاربون جالسين او مستلقين ، يئنون ويبللون رؤوسهم بالماء . وتقيأ بعضهم .

رأيت ممرضنا كيربيف العجوز ذا العينين الزرقاوين والقلب البالغ الطيبة ، وهو يذهب ويجيء ويوزع المسحوق . وكان بوزجانوف القائد السياسي يساعده ، فكان وقد وجد دلواً ، يجلب الماء من الترعة ويمشي مع الممرض حاملاً الماء إلى المستلقين .

في هذه الجماعة لم ينهض احد عندما اقتربت انا ، آمر الكتيبة .

امرت : ــ انهضوا !

فلم ينفذ الامر إلا بعضهم . ونهض كورباتوف وهو يتأوه .

ــ كورباتوف ، هذا انت ؟

ــ اوه ! انا ، ايها الرفيق آمر الكتيبة . . .

هل صحيح هو ، ذلك الذي اعتززت به ، وجعلته قدوة للمحاربين؟ آه ، لشد ما داخ !

ــ ما هذا الذبول ؟ كيف تقف امام الآمر ؟

فبذل كورباتوف جهداً لكي يقيم ظهره ويرفع صدره ويقف كما يجب على المحارب ان يقف .

اقتربت من آخر :

ــ لماذا لا تقف ؟ قف ! أين البندقية ؟

ــ اوه ، ايها الرفيق آمر الكتيبة . . . لا اعرف ايها الرفيق آمر الكتيبة .

ــ كيف تقف ؟ امتثل في الحال امامي والبندقية في يدك !

ــ كيف اجدها ؟ اني مشياً لا . . .

ــ نفذ الامر !

ــ حالاً ايها الرفيق آمر الكتيبة . . . لقد فقدت نظاراتي لا ادري اين . . .

آ ، مورين ! وظهرت نظارات احتياطية على الانف الطويل . وانطلق مورين ، وهو يترنح ، باحثاً عن البندقية .

امرت الآمرين بصف السرايا في الطريق المعبدة لمواصلة المسير .

وبعد ربع ساعة اصطفوا . وخرجت الى الكتيبة . يا لرداءة وقوفها ! الرؤوس مطأطئة ، والاعين كدرة ، والكثيرون متكئون على بنادقهم كالشيوخ .

ـ كتيبة ، تهيأ ! سلاحك . . . تنكب ! الى الامام . . . سر!
وتحركت السرايا . ولكن الناس كانوا يسيرون بكل صعوبة ـ بغير نظام ، بغير ترتيب . وكان بعضهم يعرج ، ولا يسير بل يجر نفسه جراً ، كلا اننا لن نصل بهذا الشكل !
فلحقت بالطابور وصرخت :
ـ قف ! ثم قلت للمحاربين : علينا من هنا إلى تلك الشجرة ان نسير بالخطوة الاستعراضية ! لن نغادر هذا المكان ما لم ننفذ هذا الامر . السرية الاولى ، سوي الصفوف !
هل تعرف ما هي الخطوة الاستعراضية ؟ تصور العرض العسكري في الميدان الاحمر . الجميع يرفعون ارجلهم دفعة واحدة ويلقونها على الارض بقوة بحيث تلمسها القدم كلها معاً ، فكأنما بذلك يطبعون اقدامهم على الارض .
كانت المسافة حتى الشجرة تناهز مئتي متر .
وسارت السرية الاولى .
ـ رديء ! توقفوا ! عودوا ادراجكم !
فعادت السرية وسارت من جديد .
ـ رديء ايضاً ! توقفوا ! عودوا ادراجكم !
غضبت ، ولكنهم هم ايضاً غضبوا .
وساروا للمرة الثالثة . فكانت خطواتهم رائعة . لقد كانوا يضربون الارض باقدامهم بحيث فكرت عن غير ارادة مني : ألن يحطموا الطريق المعبدة ؟
لدقيقة خلت كنت اكره هؤلاء الناس الذابلين ، ولقد كانوا غاضبين عليّ ـ وفجأة يلمع قبس الحب في نفسي فاهتف :
ـ أحسنتم ! أحسنتم !

لقد خرج مني هذا في بهجة طاغية .

وهتفت السرية عند الرجل اليسرى : ــ نخدم الاتحاد السوفييتي !

واصبحت نعال احذية الجند الثقيلة تضرب الأرض دفعة واحدة بقوة اشد .

ساروا جريئين اقوياء كما في الميدان الاحمر .

وهكذا فعلت بجميع السرايا . وقد اضطررت إلى اجبار السرية الثانية والثالثة ايضاً على التكرار إلى ان سارتا بالخطوة الاستعراضية مئتي متر .

وكانت السرية الاخيرة سرية الرشاشات . وقد نظموا خطواتهم منذ البداية ، وسار في الصف الاول مورين الطويل . كان بكل قوته يضرب الارض بقدمه ، وكانت يده اليمنى تهتز بحركات منتظمة وكأنما على انغام الموسيقى . وكانت نظاراته تلمع ، وعلى وجهه انطبع شعور بالرضى الصادق .

٥

جاء الينا بقرب تالغار الجنرال بانفيلوف ، ممتطياً حصاناً اورالياً قصيراً . وكان يقابل الكتائب العائدة .

فالتم الجميع لدى رؤية الجنرال ، وسارت السرايا من جديد ، تنفيذاً للامر ، بالخطوة الاستعراضية . وانتصبت الرؤوس من جديد باعتزاز عند المحاربين المتعبين الذين يسيرون مع ذلك بانتظام ، وكأنهم يقولون : انظر كيف نحن !

ابتسم بانفيلوف . وانتشرت من عينيه الصغيرتين على جلده المسمرّ الاشبه بالمسلوق ، تجاعيد صغيرة . ونهض على الركاب وصرخ .

ـ حسناً تسيرون ! اشكركم ايها الرفاق على الخدمة !

ـ نخدم الاتحاد السوفييتي !

صرخت الكتيبة صرخة ارتعد لها الحصان . فامسك بانفيلوف بالمقود من غير قصد، وهز رأسه وضحك .

والآن هتفت انا ايضاً بهذه الكلمات مع المحاربين . ولقد كنت اجيب بذلك لا الجنرال وحده . اني لاستطيع ان اجيب كل محارب ، وكل آمر ، ان اجيب ضميري وكل من يسألني جهراً أو سراً : « لماذا انت قاسٍ ؟ » ـ اني لاستطيع ان اجيب هؤلاء باعتزاز بهذا الجواب نفسه : « اخدم الاتحاد السوفييتي ! » .

لقد عدنا في الموعد .

نظرت إلى السرايا المصطفة من حولي في مربع ، فرأيت رجال الجيش الاحمر واقفين وقد هزلت وجوههم واسودت ، وتخلصوا من الشحم الزائد ، واقفين وعلى رؤوسهم بيريهاتهم المبللة بالعرق ، وفي ارجلهم احذيتهم الثقيلة المتربة ، وعند ارجلهم بنادقهم مشرعة . لقد تعبوا و باتت ارجلهم تؤلمهم . ولا يريدون الآن إلا شيئاً واحداً هو الاستلقاء ، ولكنهم كانوا ينتظرون الامر بصبر . لم يكونوا متهالكين على بنادقهم كالشيوخ ، وكانوا يصلحون من وضع اكتافهم كلما التقت انظارهم بانظار الآمر .

انهم لم يعودوا اولئك الذين اصطفوا هنا لاول مرة ، في العمرات المدنية والجاكتات والقمصان الداخلية ، لاسبوع خلا . ولم يعودوا اولئك الذين خرجوا عند الفجر للانطلاق في اول مسير كبير ، حاملين معدات المسير الجديدة المربوطة باجسامهم بغير مهارة . بل انهم الآن جنود اجتازوا باستقامة اول تجربة عسكرية .

« هذا رديء ايها الرفيق ماميش اوغلي »

١

كان بودي ان اقول اكثر كيف اعددنا انفسنا للقتال ، وكيف جاء الجنرال بانفيلوف إلى الكتيبة ، وكيف تحادث مع المحاربين ، وكيف كرر لهم ولي قوله : « ان النصر يُعد قبل القتال » .

ولكن . . . لنتجاوز كل هذا .

وجاءنا اخيراً ما امسكنا من اجله بالبندقية ، ما تعلمنا من اجله صنعة الجندي ، ما لاجله نقف في الجيش امام الآمر « تهيأ » ونطيعه دون ان نعترض اطلاقاً . جاءنا ما يسمى بالقتال .

عندما وصلنا قرب موسكو ، شغلنا الخط قرب فولوكولامسك . والى هذا الخط ، في الثالث عشر من تشرين الاول ، اقترب العدو — وهو جيش مدرع مروض على النهب والسلب ، اخترق جبهتنا بعيداً في الغرب ، ويتهيأ للانقضاض على موسكو ، الانقضاض الاخير ، كما كان يبدو للالمان ، انقضاض الحرب « الصاعقة » .

وفي ذلك اليوم نفسه ، في الثالث عشر من هذا الشهر ، عندما حمل الاستطلاع لاول مرة انباء تقول ان الالمان امامنا ، جاء إلى الكتيبة ، كما تعرف ، الجنرال بانفيلوف .

شرب بانفيلوف قدحين من الشاي القوي ثم نظر الى الساعة وقال :

— شكراً ايها الرفيق ماميش اوغلي . يكفي . هيا بنا إلى الخط .

فخرجنا . وكانت ثمة سيارة تنتظر الجنرال على مسافة غير بعيدة ، عند طرف الغابة . وكانت العجلتان الخلفيتان ملفوفتين بالسلاسل بشدة ، وكان الثلج المضغوط المسمرّ قد دخل إلى الحلقات الفولاذية .

كان الثلج يلف كل شيء من حولنا . وكان الطقس في تلك الايام يصلح لاستعمال الزحافات . وكان الصقيع خفيفاً . وفي السماء المتلبدة بالسحب ، اختفت البقعة المنيرة البيضاء التي كان يُحزر في وسط النهار انها الشمس . وارتسمت في الافق ظلال صفراء قليلة . ولكن المساء كان يبدو مضيئاً في بهاء الثلج .

كنا بعد خمس دقائق في مواقع السرية الثانية .

كان بانفيلوف يقفز إلى الخنادق بخفة ، ويتسلل إلى ما تحت صفوف العوارض الخشبية وينظر عبر الفتحات الى بعيد ، معايناً قطاع اطلاق النار . وكان يأخذ البندقية ويضعها في الفتحة ويجرب ما اذا من السهل اطلاق النار . وكان يطرح على المحاربين اسئلة عادية : « كيف طعامهم ؟ » و « هل يكفي ما يعطونهم من تبغ ؟ » وكانوا هم يجيبون على اسئلته وينظرون إليه بعيون مترقبة .

وكان قد سرى في الخنادق نبأ المستطلعين : ان الالمان امامنا . فكان بانفيلوف يتحدث ويمزح ، ولكن النظرات ظلت مترقبة . كان المحاربون على ما يبدو ينتظرون ان يتلفظ الجنرال بكلمة خاصة يجب معرفتها في القتال وبها تصبح قوة العدو غير مرعبة .

وبعد ان شاهد بانفيلوف عدة خنادق ، سار صامتاً على شاطئ نهر روزا العكر غير المتجمد . وكان ينظر إلى تحت كما هي عادته عندما يفكر .

هرع إلى الجنرال آمر السرية سيفريوكوف ، مصلحاً من وضع قبعته وهو يسير ومن تحتها يتراءى صدغاه الاشيبان المحلوقان بعناية . ومن ورائه كان يركض عدة جنود تاركين بينهم وبين الآمر مسافة ثلاث خطوات او اربع ، لا يتأخرون عنه ولا يتقدمون .

وبعد ان سمع بانفيلوف التقرير سأل :

ــ وما هذه الحاشية التي معك ؟

ــ انهم مراسلاتي ايها الرفيق الجنرال .

ــ وهل هم يركضون وراءك دائماً ؟

ــ وكيف لا ، ايها الرفيق الجنرال . فقد يحدث فجأة . . .

ــ حسن ، حسن جداً . والخنادق عندك ايها الرفيق سيفريوكوف مصنوعة جيداً .

احمر من الرضا وجه رئيس المحاسبين السابق الكهل .

وبدأ يقول متفلسفاً : ــ لقد فكرت هكذا ، ايها الرفيق الجنرال . قد ترغب فجأة في جمع السرية والتحدث معها . فسيكونون اذن حاضرين . انهم ايها الرفيق الجنرال عداؤون . مُرْ ايها الرفيق الجنرال وستكون السرية هنا في عشر دقائق .

اخرج بانفيلوف ساعته ونظر اليها وهو يفكر :

ــ في عشر دقائق ؟ هنا ؟

ــ نعم ايها الرفيق الجنرال .

ــ حسن ، حسن جداً . . . ولكن قل لي ايها الرفيق سيفريوكوف ، في كم دقيقة تستطيع ان تجمع السرية هناك ؟

والتفت بانفيلوف بسرعة واشار باصبعه إلى الشاطئ الآخر من نهر روزا .

فسأل سيفريوكوف : ــ هناك ؟

ــ نعم .

نظر سيفريوكوف الى سبابة الجنرال ثم إلى النقطة التي تشير إليها السبابة في خط مستقيم . وكان نور النهار لا يزال كافياً للرؤية بوضوح : وكان الاصبع يشير إلى غابة في الشاطئ الآخر .

ومع ذلك سأل سيفريوكوف :

ـ الى الشاطئ الآخر ؟

ـ نعم ، نعم ، الى الشاطئ الآخر ايها الرفيق سيفريوكوف .

نظر سيفريوكوف إلى المياه السوداء وادار رأسه إلى حيث يوجد ، على بعد كيلومتر ونصف ، جسر اخفاه نتوء الشاطئ عن الانظار ، واخرج منديلاً مخطط فيه بغير مهارة ، وحدق في الماء مرة اخرى .

وكان بانفيلوف ينتظر الجواب صامتاً .

ـ لست ادري . . . عبر المخاضة ايها الرفيق الجنرال ؟ إن المياه هناك تصل إلى اعلى الزنار . سابلل الرجال بذلك ايها الرفيق الجنرال .

ـ كلا ، لماذا التبليل ؟ الوقت ليس صيفاً . . . فكر بطريقة نحارب بها دون أن نبتل . واذن ايها الرفيق سيفريوكوف ، في كم دقيقة ؟

ـ لا اعرف . . . لن تكون المهلة دقائق ايها الرفيق الجنرال .

فالتفت بانفيلوف إليّ وقال بوضوح :

ـ رديء ايها الرفيق ماميش اوغلي !

وكانت هذه اول مرة يقول لي فيها الجنرال بانفيلوف « رديء » . إن ذلك لم يحدث من قبل ، كما أنه لم يحدث ايضاً بعد ذلك في اثناء القتال عند موسكو .

وكرر : . رديء ! لماذا لم تهيئوا جسوراً للعبور ؟ لماذا لا توجد اطواف وزوارق ؟ لقد اندسستم في الأرض ، اندسستم بمعرفة وحذق . والآن تنتظرون فقط اللحظة التي يضربكم بها الالمان . ولكن هذا لا يدل على الذكاء . وماذا لو كان من المفيد مقابلة الضربة بالضربة ؟ ماذا لو كان بوسعكم انتم ان توجهوا الضربة ؟ هل انتم مستعدون لذلك ؟ ان العدو اصبح الآن وقحاً ، واثقاً بنفسه ، فيجب الاستفادة من هذا . ولكنك لم تفكر بذلك ايها الرفيق ماميش اوغلي .

كان يتكلم بقسوة ، بلا ذلك اللين المعتاد ، غير مخفف هذه المرة من شدته بشيء . وكنت استمع إلى التوبيخ واقفاً « تهيأ » ، خجلاً من نفسي .

٢

توجه الجنرال بخطابه مرة اخرى إلى سيفريوكوف :

ـ واذن ايها الرفيق سيفريوكوف ، لا تستطيعون التجمع هناك بسرعة ؟ هذا رديء ! فكر بذلك . واعادة تنظيم الجناح ، كم يستغرق معكم من وقت ؟

ـ اعادة تنظيم الجناح ؟ اي خط نشغل ايها الرفيق الجنرال ؟ اشار بانفيلوف الى طرف الغابة حيث يكمن مركز قيادة الكتيبة ومن حيث جاءت بنا السيارة تاركة في الحقل الابيض خطين لم يعودا واضحين في غسق المساء .

ـ هذا هو الخط ايها الرفيق سيفريوكوف : من الغابة إلى الشاطئ . المهمة : تغطية الكتيبة من الجناح .

فكر سيفريوكوف ثم قال :

ـ في خمس عشرة او عشرين دقيقة ، ايها الرفيق الجنرال .

فانتعش بانفيلوف :

ـ ألا تتوهم ؟ هيا ، هيا . . . اعط اوامرك ايها الرفيق سيفريوكوف . ساضبط الوقت . فادى سيفريوكوف التحية واستدار وذهب إلى رجاله دون استعجال . وظل نصف دقيقة ينظر إلى المكان صامتاً . فصرخت به في نظري : « فيم تفكر ؟ لا تتوان ! اسرع ، اسرع ! » واذا بي اسمع همسة مبحوحة :

ـ لقد احسن ! انه يفكر !

كان بانفيلوف هو الذي همس لي بذلك مبتسماً . ولم يعد وجهه يند عن الصرامة . بل كان يتابع سيفريوكوف بفضول .

وكان سيفريوكوف قد اشار إلى المراسلات بالاتجاه . وسمعنا صوته يقول :

– فصيلة الرشاشات تغطي ، ثم تكون آخر من يبتعد . . . موراتوف ، هيا بسرعة !

لم يمسك بانفيلوف نفسه عن هزرأسه استحساناً . كان واضحاً ان الملازم الاربعيني ، رئيس المحاسبين السابق لاحد معامل التبغ في آلما – آتا ، قد اعجبه .

اما موراتوف ، التتاري القوي الجسم القصير القامة ، فكان قد اصبح عند الشاطئ يركض ، قاذفاً من حذائيه كتل الثلج . واندفع بعده شخص آخر ، وانطلق ثالث في جهة اخرى . وركض إلى الغابة بلفيتسكي الطويل ، الذي كان قبل الحرب طالباً في معهد المعلمين. واصبح كالمنارة على الخط الذي عينه الجنرال . فقلت في نفسي : « خطأ ! لايقف المرء هكذا تحت وابل الرصاص ! » ولكن سيفريوكوف راح يحرك يده بضراوة ، مشيراً إليه ان ينحني . غير ان بلفيتسكي لم يفهم . فانحنى سيفريوكوف نفسه ، وعندئذ ادرك الآخر ما يريد .

واخيراً ظهرت في العتمة المتزايدة كثافة اول سلسلة من الناس الراكضين نحو الغابة . وعرفت قامة غاليولين الجبارة ، المحنية تحت ثقل جسم الرشاش والبارزة مع ذلك عن مستوى الآخرين .

وانبطحت فصيلة الرشاشات .

واندفع المحاربون نحو طرف الغابة بجنب الفصيلة مشرعين بنادقهم الى امام تكاد لا ترى من هناك . واخذوا يتساقطون على الثلج ، وظهر في الحقل الابيض سطر منقط اسود لخط الدفاع الجديد .

كنت احس وكأنما الساعة التي يمسكها بانفيلوف وينظر اليها بين الفينة والفينة ، تدق في داخلي . وكانت كل دقة تقول : « حسن ، حسن ، حسن ! » هل تفهمني ؟ انها كتيبتي ، انها صنعي ، بذلت فيها كل ما املك ، انها كتيبة يحق لي حسب النظام ان اقول عنها « انا » . وفجأة عادت الافكار تتجاذبني : « ولكن هل نستطيع هكذا ان نناور تحت النار ، عندما يتطاير الرصاص فوق الحقل وتنفجر القذائف والالغام بصوت داوٍ ؟ ماذا لو صرخ احد آنذاك في رعب : « انهم يطوقوننا ! » وهرب الى الغابة ؟ ماذا لو اصابت عدواه الآخرين فاندفعوا وراءه ؟ كلا ، كلا ! إن امثال هؤلاء يبيدهم الآمرون في الحال ، ويرميهم المحاربون انفسهم بالرصاص ! » وفي اثناء ذلك كانت الساعة ــ أو القلب ــ تدق : « وهل انت واثق ؟ هل انت واثق ؟ »

فشددت على اسناني واجبت : « واثق ، واثق ، واثق ! »

كان المحاربون قد مروا ركضاً بجانبنا وانبطحوا غير بعيد منا مستعملين على الفور المجارف ومكومين امامهم كومات من الثلج . وعاد الى سيفريوكوف عداؤه .

وظهر من جديد فوق الحقل ، الذي كان قد تغطى بظلال بنفسجية ، شخص غاليولين وعلى ظهره القوي جسم الرشاش . وبعد ان غطت فصيلة الرشاشات السرية التي اعادت تنظيم نفسها ، ابتعدت شاغلة مكانها في الصف . وهنا ركض شخص متأخر ، فتبعه سيفريوكوف بنظره . وانتظر حتى ترامى هذا على الثلج فاقترب من بانفيلوف :

ــ ايها الرفيق الجنرال ! بناء على امرك قامت السرية باعادة تنظيم الجناح . وأُحتل خط الدفاع الذي عينته .

فنظر بانفيلوف الى ساعته موصوص العينين وهتف :

ــ عظيم ! ثماني عشرة دقيقة ونصف . هذا ممتاز ايها الرفيق

سيفريوكوف ! ممتاز ايها الرفيق ماميش اوغلي ! لن اذهب الآن حتى اشكر الجنود . اذا كنا لا نستطيع ضرب الالمان بشعب كهذا ، فما نفعنا اذن ؟ يكفينا محاربون كهؤلاء . استدع السرية الى هنا ايها الرفيق سيفريوكوف .

ومرة اخرى اندفع العداؤون واجتمعت السرية قرب الجنرال مسرعة في طوابير حسب الفصائل . وسوى سيفريوكوف الصفوف وهتف : « تهيأ ! » — وقدم تقريره للجنرال . واصبحت الوجوه في الظلمة الكثيفة غير مرئية ولكن معالم الصفوف كانت واضحة بدقة .

لم يكن بانفيلوف يحب الخطابة ، وكان عادة يفضل التحدث مع المحاربين الجالسين حوله ، ولكنه في هذه المرة القى في السرية بكلمة هي في الحق قصيرة جداً لم تستغرق اكثر من دقيقتين او ثلاث .

امتدح الجنود دون ان يخفي غبطته وقال بصوت خفيض :

اقول لكم ايها الرفاق ، بوصفي جندياً قديماً ، ان شيئاً لا يخيف الجنرال ما دام لديه محاربون مثلكم .

كنت ، ولو لم تر وجهه ، تستطيع ان تحزر من صوته انه يبتسم . وبعد ان صمت قليلاً ، سأل وكأنما يوجه سؤاله لنفسه :

ما هو المحارب ؟ المحارب يخضع للجميع ، ويقف « متهيئاً » امام كل آمر ، وينفذ الاوامر . انها وظيفة حقيرة كما كان يقال في السابق . ولكن ما هو الآمر بدون المحارب ؟ انه فكرة ، لعبة ذهن ، حلم من الاحلام . ان خيرة الاوامر واكثرها دلالة على الذكاء تبقى حلماً وخيالاً اذا كان المحارب غير مستعد الاستعداد اللازم . ان استعداد الجيش للقتال ايها الرفاق هو قبل كل شيء استعداد المحارب له . ان المحارب في الحرب هو القوة الفاصلة .

احسست باي انتباه يصغي الجند لبانفيلوف .

ـ اذا فعلت السرايا كما فعلتم انتم الآن ، واذا نفذت الاوامر كما نفذتم ف . . ، فالعدو لن يرى موسكو. اشكركم ايها الرفاق على استعدادكم الممتاز للقتال ! اشكركم على الخدمة !

ودوت الاصوات فوق الحقل :

ـ نخدم الاتحاد السوفييتي !

وساد السكون المطبق من جديد .

وقال الجنرال وهو يصافح آمر السرية :

ـ شكراً ايها الرفيق سيفريوكوف . بمثل هؤلاء النسور انا نسر كذلك !

سمع الجميع هذا في هدأة السكون . ومرة اخرى امكن التقدير من صوت بانفيلوف بانه يبتسم . والمحاربون ؟ هل كانوا يبتسمون ؟ فانه ليحدث احياناً ان تشعر بالبسمة نفسها من خلل الظلام وعبر السكوت ، ولكن مصيبتي وعذابي اني في تلك الامسية ، بعد ذلك التوبيخ الذي مزقني ، لم اكن احس بذلك الشعور العجيب من الاندماج بالمحاربين ، الذي حدثتك عنه ، والذي عادني اكثر من مرة كمكافأة وكحظ سعيد . لم اكن ارى الوجوه . فقد يكون الرجال قد ابتسموا ، وقد يكونون ظلوا على عذابهم ، ظلوا على كآبتهم ، ظلوا على انتظارهم لتلك الكلمة الخاصة من الجنرال ، تلك الكلمة التي تساعد في القتال ، دون ان يعوا ان تلك الكلمة قد قيلت .

لم اكن اسمع انفاس السرية ولم اكن ارى وجوهها . وكان ذلك ايضاً ، بالاضافة الى التوبيخ ، عقاباً لي على خطأ ارتكبته . فما هو هذا الخطأ ؟

استعدت في ذاكرتي كلمات الجنرال الحادة . «لا ارى انك فكرت في هذا » ، ـ هكذا قال لي مشيراً بالسهم إلى توجيه ضربة للعدو . لم

تخطر ببال ! نعم ، ثمة ما سهوت عنه ، وما اغفلت فعله . وليس فقط في بث حقول الالغام ، وفي وسائل العبور ، بل في نفوس المحاربين ايضاً . ولكن ماذا بالضبط ؟ آه ، النصر ، نصر واحد في القتال — هذا ما نحتاج اليه !

رافقت الجنرال حتى السيارة .

وقال لي وهو يضع رجله على الرفراف :

— اجر الاستطلاع بدقة اكثر . ارسل الرجال إلى امام باستمرار . لايجوزان يجلسوا تحت الأرض ويلصقوا بها طوال الوقت . وليروا الالمان قبل القتال .

مد لي يده مودعاً واستمر يقول ممسكاً بيدي :

— هل تعرف ايها الرفيق ماميش اوغلي ماذا ينقص الكتيبة ايضاً ؟ ضربة واحدة على رأس الالمان !

انتفضت فهذا ما كنت انتظره بشغف .

— وعندئذ ايها الرفيق ماميش اوغلي ، لن تكون هذه كتيبة ، بل ستكون فولاذاً ! هل تعرف ما هو الفولاذ ؟ الفولاذ الصافي الذي لا يزيل رونقه وبهاءه شيء في العالم .

هل فهمتني ؟

— نعم ، أكساكال .

لست اعرف كيف خرجت هذه الكلمة مني . لقد خاطبت بانفيلوف كما خاطبني بوزجانوف وكما نخاطب نحن الكازاخيين اكبر رجل في العشيرة ، كما نخاطب ابانا .

وشعرت بقوة مصافحته .

— لا تنتظر الفرصة بل ابحث عنها . وما ان تسنح حتى تضرب ! احسب . . واضرب ! فكر في هذا ايها الرفيق ماميش اوغلي .

وسألني مرة اخرى وهو يقترب مني ليراني في العتمة بوضوح :
— هل فهمتني ؟
— نعم ايها الرفيق الجنرال .
وصافحني بانفيلوف بكلتا يديه ، على الطريقة الكازاخية . وكان ذلك نوعاً من الحنان .
اغلق الباب وراءه . وتحركت السيارة في الحقل المغطى بالثلج ، ملقية من مصابيحها نوراً خفيفاً وظللت انا واقفاً اتبع الجنرال بنظري إلى ان غاب .

٣

وضعنا في الليل جدولاً للعمل .
ورسم رحيموف لوحة ، بما عرف عنه من براعة .
وعند الفجر توجهت الى الاستطلاع في طرقات مختلفة ، ثلاث حضائر — من كل سرية قناصة حضيرة . ثم بدأت الحضائر الواحدة بعد الاخرى ، تنطلق كل ساعتين ، حسب الجدول ، الى ما وراء النهر ، الى امام ، حيث كان الالمان يتقدمون . وكانت مهمة المحاربين ان يتطلعوا وليس اكثر من ذلك في الوقت الحاضر ، ان يتطلعوا ويروا الالماني الحي ثم يعودوا .
كنت اريد ان يوقن المحاربون بان الذي يتقدم الينا ليس حيواناً عجيباً مذنّباً وله درع ، ليس غولاً من اغوال الغابات ولا تنيناً ينفث النار من فمه ، بل اناس ، اناس نفوسهم ساقطة شقية ، ولكن اجسامهم كاجسامنا وجلودهم بشرية يسهل طعنها بالحربة وخرقها بالرصاص ، مخلوقات يمكن قتلها .

كان المحاربون يزحفون إلى القرى بحذر ، متابعين أطراف الغابة ، منادين الكولخوزيين بهدوء ومستفهمين منهم عن مكان الالمان وعددهم . وبعد ان يستنفدوا اسئلتهم ، يختفون حتى يعاينوا الالمان . وقد كان ذلك لاول مرة مخيفاً بعض الشيء، ولكن المحاربين كانوا يذهبون . يذهبون إلى امام ! فكانوا من وراء الشجيرات الصغيرة ، ومن خلف السياجات ، ومن الحفر ومن حقول الهشيم ومن البساتين ، ينظرون كيف هو العدو القادم ليقتلنا .

وكانوا يعودون حضيرة بعد حضيرة . ويقولون مقاطعاً احدهم الآخر ، كيف يمشي الالمان في القرية ، ويغتسلون ، ويأكلون ، ويطلقون الرصاص على الدجاج ، ويضحكون ، ويثرثرون باللغة الالمانية عن شيء ما .

وكان رحيموف يسأل آمري الحضائر ، مستفهماً عن عدد العدو وسلاحه و عن تحركاته ، ثم يسجل الاجوبة بدقة . وكنت انا اصغي إلى الانباء واتفحص الوجوه واجس نبض الكتيبة . لقد عاد الكثيرون منتعشين ، ولكن الحزن ظل مرتسماً في نظرات بعضهم . ان الرعب لما يفارق هؤلاء .

وقد عادت حضيرة ، بقيادة كورباتوف ، مرحة اكثر من غيرها .

وقال كورباتوف وهو يؤدي التحية العسكرية بنشاط ويضرب كعباً بكعب وينظر الي بعينيه السوداوين الضاحكتين :

ــ اسمح لي بتقديم التقرير ايها الرفيق آمر الكتيبة . ان امرك لم ينفذ .

ــ وكيف ذلك ؟

ــ لقد امرت بعدم اطلاق النار ، ولكن يدي لم تطعني فاطلقت النار مرتين . . . وكذلك المحارب غاركوشا .

ــ وماذا ؟

ــ اسقطت اثنين ايها الرفيق آمر الكتيبة . لقد امسكناهما بالجرم المشهود وهما ينتزعان خنزيراً من احدى النساء . . . كانت المرأة متشبثة باحدهما ومنبطحة على الارض تصرخ . وكان هو يضربها على وجهها بحذائه . فلم يقو قلبي على ذلك ، فصوبت ــ و . . بم ، بم! وكذلك المحارب غاركوشا . وهكذا سقطا . . .

واضاف غاركوشا ــ ذلك الذي تعذب مرة في اول مسيرة له بحقيبة القنابل اليدوية ــ اضاف كلمة على ذلك :

ــ ولدي ايها الرفيق آمر الكتيبة سبب آخر .

ــ وماهو ؟

فنظر غاركوشا إلى رفاقه وغمز لهم بعينه :

ــ اني لا اصدق بعينيّ ، بل باللمس .

ــ وكيف لمست ؟ هل يصيبهم الرصاص ؟

ــ هذا قليل ايها الرفيق آمر الكتيبة ! اريد ان ألمس بطريقة اخرى .

وقال غاركوشا ما لا يمكن اثباته على الورق .

واغرق الجميع بالضحك . واصغيت انا بسرور إلى ذلك .

واقترب مني حاملو الرشاشات : بلوخا الوقور ، وغاليولين ، ومورين .

وقال بلوخا : ــ ايها الرفيق آمر الكتيبة ، اسمح لي بالكلام .

فاذنت . فنخز بلوخا غاليولين بمرفقه ودفعه مورين من خلفه . فقال الكازاخي الطويل ذو الوجه الاسود اللامع وهو يتردد استحياء :

ــ ايها الرفيق آمر الكتيبة . . .

ــ ماذا تريد ؟

ــ ايها الرفيق آمر الكتيبة ، هل انت غاضب علينا ؟

ـــ كلا .

ـــ فلماذا اذن ايها الرفيق آمر الكتيبة ، يذهب الجميع لرؤية الالمان وحاملو الرشاش لا يذهبون ؟ ان الجميع رأوا أما نحن فلا . المحارب غاركوشا اطلق النار على الماني ، أما نحن فلا .

ـــ وكيف ارسلكم مع الرشاش ؟ ان الرشاشات هنا ضرورية .

ـــ اننا لمدة قليلة ، ايها الرفيق آمر الكتيبة ، لمدة قليلة جداً . . . وسنعود في الحال .

ولم يصبر مورين فقال .

ـــ سنذهب ونعود في ليلة واحدة ايها الرفيق آمر الكتيبة . سننظر ولو في الليل . سنحرق شيئاً فيهبون . وائذن لنا ايها الرفيق آمر الكتيبة أن نطلق النار .

نعم ، ان شيئاً جديداً استولى اليوم على الكتيبة .

كان مورين رجلاً مثيراً للاهتمام . ولقد لاحظت عدة مرات انه اول من ذبل عندما ذبلت الكتيبة واول من انتعش عندما انتعش الجميع . ان عليه ، كما يبدو ، قد انطبع دائماً نقش الكتيبة القتالي الذي ينش تارة وينطبع بوضوح تارة اخرى . لقد كنت اعرف ان هذا الرجل لم يصبح بعد ذلك الرسم على الفولاذ ، الذي لا يمحوه شيء في العالم .

حدثني عن الفولاذ ، كما تعرف ، الجنرال بانفيلوف . فكنت كلما تعمقت في التفكير في هذه التعليمات التي تركها لنا وكلما ازددت امعاناً في النظر إلى المحاربين واصغاء إلى انباء المستطلعين وإلى الكلمات واللهجة ، ازدادت فكرة معينة وضوحاً في ذهني .

فقلت لحاملي الرشاش :

ـــ حسن يا غاليولين . سازيل قهركم : غداً سيكون لديكم عمل .

حاولوا ان تقاتلونا !

١

كانت الفكرة هي التالية .

امامنا ، وعلى بعد عشرين كيلومتراً تقريباً ، قرية كبيرة هي قرية سيريدا ، نفس القرية التي اكتشف رحيموف رئيس مركز الرئاسة مع فصيلة الفرسان ، وجود الالمان فيها في الثالث عشر من تشرين الاول . وكانت تتفرع من هذه القرية عدة طرق هامة تؤدي إلى فولوكولامسك وكالينين وموجايسك .

وبعد ان قارنا انباء واقاصيص المحاربين والآمرين الذين عادوا من الاستطلاع ، وسألنا السكان الهاربين من الالمان ، قررنا ان العدو انشأ في سيريدا نوعاً من نقطة اعادة التزويد ، ووضعت هناك مستودعات الاغذية والذخائر والوقود ، وهناك كانت الوحدات الالمانية تبيت في طريقها إلى الشمال — إلى كالينين ، وإلى الجنوب — في الطريق المؤدي إلى موجايسك ، ملتفة حول دفاعنا من جانبيه .

وخطرت ببالي فكرة : ماذا لو ضربنا الالمان في هذه النقطة دون انتظار ضربة الالمان ؟ ماذا لو قمنا بغارة ليلية على سيريدا ؟

ولكن بانفيلوف قال : « احسب ! احسب ثم اضرب ! »

ارسلت رحيموف في عملية استطلاع على رأس استطلاع الآمرين .

لقد كان الكازاخي رحيموف ، البالغ من العمر اثنتين وثلاثين سنة ، رجلاً رياضياً وهاوياً للسياحة . ولعلي قلت لك سابقاً انه حاز في كازاخستان على بعض الشهرة كمتسلق للجبال . وكان يمشي بسرعة وبأناة في آن واحد . وبالاضافة إلى رباطة جأشه وإلى دقته النادرة في تنفيذ الاوامر ،

كان يملك خصلة اخرى مفيدة في الحرب ، وهي ملكة معرفة الاتجاه . فهو حتى في الظلام كان يرى كالقطة .

انتظرت عودة رحيموف بفارغ الصبر . وكان قد ذهب في اول المساء من اليوم الرابع عشر من شهر تشرين الاول ، وغاب الليل كله والصباح كله .

واخيراً عاد في منتصف النهار . وتأكد كل شيء : ففي سيريدا نقطة اعادة التزويد فعلاً . والحراسة ليست شديدة . ويبدو ان الالمان واثقون كل الثقة بان احداً لن يجرأ على الهجوم عليهم .

فاتخذت قراري بالهجوم في تلك الليلة .

تشكلت عند المساء وحدة من مئة شخص : من كل حضيرة محارب او محاربان . وقد انتقينا احسن الرجال واجرأهم واجلدهم واكثرهم استقامة . وكان الاشتراك في الغارة يعتبر مكافأة للمحارب .

وكانت المهمة كما يلي : في ساعة متأخرة من الليل نقتحم سيريدا من ثلاث جهات ، ونطعن الالمان وننهال عليهم بالنار ، ونحرق المستودعات ، ونستولي على الاسرى ، ونلغم اذا سمح الوقت الطرق المؤدية إلى سيريدا ومن سيريدا . ولم يكن المطلوب الاحتفاظ بالقرية ، بل الانسحاب منها عند الصباح والعودة إلى مكان الكتيبة .

وافق آمر الالاي على الخطة ولكن لم يسمح لي بالذهاب مع القوة . فعينت رحيموف آمراً لها وبوزجانوف قائداً سياسياً .

وفي المساء ، عندما حلت العتمة ، اصطف مئة محارب عند طرف الغابة قرب استحكام الرئاسة . وكان رأس غاليولين بارزاً في خط القبعات المتموج ، والى جانبه يُحزر بلوخا ربع القامة . وحققت وعدي فارسلت رجال الرشاشات ايضاً في الغارة الليلية ومعهم الرشاشات في العربات .

ومرة اخرى لم ار الوجوه ، بل سرت التيارات في الظلام . وكانت اعصابي مضطربة وعرفت ، وان لم اقترب من المحاربين ، ان هذه الحمى قد استولت عليهم ايضاً . كان ذلك اضطراباً لا من خوف ، بل من شعور الحماسة ، كان ذلك تحفزاً قبل المعركة . وخطر ببالي مثل كازاخي قديم ، فبدأت به خطابي :

ــ ان العدو يظل رهيباً ما لم تذق طعم دمه . . . فاذهبوا ايها الرفاق وجربوا من اي شيء خُلق الالماني . هل يسيل منه الدم بسبب رصاصكم ؟ هل يعوي اذا ما تغلغلت في احشائه حربتكم ؟ هل يعض باسنانه الارض وهو يلفظ انفاسه الاخيرة ؟ فليعضها اذن . اطعموه من ارضكم ! ان الجنرال بانفيلوف سماكم بالنسور . فانطلقوا ايها النسور !

وقاد رحيموف المحاربين . ونظرت إلى الطابور وهو يغيب في العتمة واقترب مني كرايف .

فقال متمتما : ــ لماذا لم تدعني اذهب معهم ايها الرفيق الملازم الاول .

ــ وانا ايضاً لم يُسمح لي بالذهاب ياكرايف .

لقد كنا كلينا في تلك الامسية نحسد المحاربين .

وبدأت ليلة الخامس عشر إلى السادس عشر من الشهر ــ ليلة اول معركة لنا .

٢

لم استطع النوم في تلك الليلة . ولم استطع ايضاً الجلوس في الاستحكام . فخرجت إلى طرف الغابة وسرت في الدرب وخارج الدرب ، ونظرت إلى الغرب ، إلى حيث انطلق المحاربون ، واصغيت وكأنما

استطيع ان اسمع من هناك ، من بعد عشرين كيلومتراً ، اصوات الطلق أو الصراخ .

وفي النهار وصلت إلى مسامعنا اصوات خافتة لطلقات مدافع . ولم نكن نعرف بعد ان الالمان في ذلك اليوم اندفعوا بطوابير الدبابات الى موسكو ، لاّفين حول جناح الفرقة الايسر ، وان هناك ، عند سوفخوز بوليتشوفو (سجل هذا الاسم ، فانه سيُنقش يوماً من الايام باحرف من ذهب على اللوحة المرمرية لقصر نادي فرقتنا) ، كان رجال بانفيلوف قد بدأوا القتال .

ثم عاد الهدوء الى هناك ايضاً في الليل .

كان الحارس يقف في الدرب المؤدي إلى استحكام الرئاسة ، وهو درب اسود على صفحة الثلج من اثر المشي . وكان الحارس ينظر إلى حيث انظر انا . فالكتيبة كانت تعرف ان مئة نسر قد ذهبوا للقتال ، وكانت الكتيبة تنتظر نتيجة اول معركة لها مع الفاشيين .

كنت بين الفينة والفينة اخرج ساعتي وانظر ، وكانت عقاربها المضيئة تشير إلى الثالثة ، ثم إلى الثالثة والنصف ، ثم إلى الرابعة . . . ولم يكن النظر يقابل إلا الظلام في كل مكان . والاذن المرهفة لم تكن تلتقط إلا الصمت ، كما من قبل .

وفجأة سطع شيء في السماء ، كلا ، لقد خيل إلي . . . ومن جديد ظهر خط كدر يكاد لا يرى . ما هذا ؟ هل هو الفجر ؟ ولكن هل الشمس تشرق من هنا ؟ لقد خيل لي . . . وعاد الظلام إلى السماء . ولكن النور لمع من جديد . ثم انطفأ . ثم ظهر مرة اخرى . . . واصبح الآن يشع ، منتشراً تارة ، ومتقلصاً تارة اخرى ، ولكنه لم يذهب . وانتشر منه لون وردي . . . فكنت انظر ، انظر كالمسحور .

كان النور الخافق الحي ينبثق في السماء الليلية وكأن انفاس جبار تنفخ فيه .

تنهد الحارس وقال :

– انهم رجالنا يحرقون ! انهم رجالنا يضربون !

اردت ان اجيب بشيء ولكني لم استطع . فقد غص حلقي بالغبطة ، وكانت هذه الغبطة تخفق في نفسي مع خفقان النور ، ويخيل إلي ان دمي قد وزعها على جميع انحاء جسمي . وادركت في تلك الدقائق ، لاول مرة ، معنى الغبطة الطاغية التي تحسها وانت تضرب العدو .

٣

عادت القوة صباحاً .

كانت تسير في مقدمتها ثلاثة احصنة مكدنة إلى زحافات واسعة . ولم اكن قد رأيت هذه الاحصنة من قبل في الالاي ، بل استولوا عليها في سيريدا من عند الالمان . وكانت الزحافات مربوطة بحبال غليظة إلى دراجتين ناريتين ذواتي عربات ، واثبتت عليها في امامها رشاشات . انها هي الاخرى غنائم . وكان جنودي يجلسون على مقاعد الدراجات وعلى اماكن المتاع وفي العربات المربوطة بها .

وكانت ثمة عربات اخرى مجرورة بالخيل تسير وراء الزحافة الاولى . وقد ذهب المحاربون مشياً على الاقدام وها هم يعودون الآن على الزحافات .

وهرع المحاربون من الخنادق البعيدة والقريبة . وكانوا مغتبطين برؤية رفاقهم وينظرون بدهشة وفضول إلى اسير الماني زري الهيئة استولت عليه القوة فيما استولت من غنائم . وكان هذا ، في معطفه الاخضر ،

والبيريه الخضراء ، ينظر من تحت حاجبيه ، مديراً ببطء رقبته المعروقة ذات الجوزة الكبيرة .

أمر بوزجانوف الاسير بحركة منه ان ينهض على مقعدة .

وقال بوزجانوف : ــ يمكن التكلم معه فهو يعرف الروسية قليلاً . ما اسمك ؟

تمتم الاسير بشيء .

فصرخ بوزجانوف : ــ ارفع صوتك .

انتفضت يدا الاسير الى تحت مسبلاً اياهما ، ووقف وقفة التهيؤ امام الكازاخي ، ولفظ باسمه واضحاً . ونظروا جميعاً إلى هذا الالماني الحي الناطق .

ــ متزوج ؟

ــ لا . . . خاطب . . .

فقهقه بوزجانوف من كل قلبه . وتهلل وجهه المليء الطيب فازداد اتساعاً ، وغابت عيناه الصغيرتان . وقهقه الجميع مع القائد السياسي : « خاطب ! يالهذا الخاطب ! » وراح الالماني ينظر . وهتف احدهم :

ــ سكوتاً ! . . اسمعوا مايقوله القائد السياسي .

فرفع بوزجانوف يده ، فسكت الجميع .

فقال : ــ يقول القائد السياسي : اضحكوا !

لفظ دون ان يقصد على الارجح ، هذه الجملة التي اصبحت تتردد كثيراً فيما بعد في الكتيبة :

ــ الضحك . . . هو اكثر الامور جدية في الجبهة . حاول بوزجانوف ان يتكلم بتؤدة وبوضوح شديد ، وراح يستجوب الاسير عن خطط القيادة العسكرية الالمانية . ولكن الاسير لم يفهم فوراً . ثم عرف اخيراً معنى السؤال فقال وهو يلفظ الاسماء الروسية برطانة : ــ فطور ــ فوليوكولامسك ، عشاء ــ موسكاو .

تلفظ بهذا جاداً ، جاعلاً يديه في وضع التهيؤ ، غير شاك حتى هنا ، وهو في الاسر ، بان الامر سيكون كذلك : «فطور — فوليوكولامسك ، عشاء — موسكاو » .

ومرة اخرى دوى الضحك .

وفي تلك اللحظات من الضحك الذي لا يرد ، شعرت كيف ان نفوس المحاربين تحررت من الخوف .

نتر الاسير رقبته ونظر من حوله الى جميع الجهات . ولم يفهم معنى الذي اصاب الروس . وكذلك نحن على الارجح لم نكن نفهم معنى لما حل بنا .

هكذا كُسبت المعركة الاولى . وهكذا انهزم عند خطنا ، الجنرال الرعب .

٤

ذكر لي رحيموف وبوزجانوف كل تفاصيل الغارة .

طبيعي انك تستطيع ألا تشك في ان الامور لم تسر جميعاً في القتال كما وضعت في الفكر .

فقد اصطدمت جماعة ، مصادفة ، بدورية المانية وبدأت القتال من قبل ان يتم تطويق القرية تطويقاً تاماً . فاندفع المحاربون الى البيوت وطعنوا الالمان واطلقوا عليهم النار ، ولكن بقي امام هؤلاء بعض من المخارج التي لم يتم قطعها ، فاستطاع كثيرون الهرب . وتمكنوا من العودة إلى صوابهم واتخاذ موقف الدفاع قبل الوقت الذي كنا قد حسبنا حسابه .

قتلت الوحدة حوالي مئتي هتلري ، وبثت الالغام في الطرقات ، واحرقت كثيراً من السيارات وبعض المستودعات ، بما فيها مستودع البنزين ، ولكن الالمان استطاعوا عند احد اطراف القرية حماية بعض الاشياء .

ولكن الشيء الرئيسي تم بلوغه : وهو ان المحاربين شاهدوا الهتاريين وهم يهربون من امامهم ، وسمعوهم ، وهم يزعقون لاهثين ، وجربوا رصاصهم وحرابهم بجلودهم .

كنت اسير مع رحيموف وبوزجانوف على الخط . وكان المحاربون الذين اشتركوا في الغارة ، قد تفرقوا في حضائرهم وفصائلهم . وكانت الاعمال والاشغال قد توقفت ساعتين بناء على اوامري . وكنت ترى في كل مكان جماعات متحلقة حول الابطال الذين ضربوا الالمان .

وكان الضحك يسمع هنا وهناك . لقد كان ذلك اليوم ، يوم السادس عشر من شهر تشرين الاول سنة الف وتسعمائة واحدى واربعين ، يوم الضحك في كتيبتنا . وكثيراً ما تذكرت فيما بعد كلمات بوزجانوف : « الضحك هو اكثر الامور جدية في الجبهة » . وعندما يأتي الضحك إلى ميدان القتال ، إلى الطرف الامامي ، يرفع الرعب اذياله ويهرب .

كانوا يقابلونني بالامر : « انهض ! تهيأ ! » وبهذه الهتفة وحدها يمكن لمس روح الجندي . ولشد ماكانت هذه الهتفة تطفح بالغبطة في ذلك اليوم !

اقتربت من جماعة كان مركزها غاركوشا ، فلحظت ان احد المحاربين يخفي شيئاً وراء ظهره . فالتقت نظرة غاركوشا بنظرتي فقال بلهجة آمرة : هات !

فاعطاه المحارب قربة المانية .

وقال غاركوشا : فيها روم ايها الرفيق آمر الكتيبة . صحيح انه روم الماني ولكن لا بأس . . . اني اقوم الآن بالتدريبات وأضيف الرفاق : فليتأكدوا على اساس الواقع . جربه ايها الرفيق آمر الكتيبة .

ومد لي بالقربة . فرشفت رشفة .

وقال رحيموف بايجاز : ان غاركوشا احسن في القتال .

فاستمر غاركوشا يقول معتزاً بنفسه ، محركاً يديه مع القربة : — لوكان لي ان انتزع من كل الماني قتلته قربة كهذه لجلبت معي عشرين قربة . ولكن لم يكن الوقت وقت هذا هناك .

وراح غاركوشا يتحدث ويتحدث . . .

وانطلقنا في سيرنا على خط الخنادق . وقابلنا في طريقنا مورين الذي شارك في الغارة ايضاً مع رجال الرشاشات . وكان يحث الخطى الى مكان ما ، ولكنه نصب قامته من بعيد وسار بخطوات استعراضية عندما اصبح على بعد عشرة امتار . كان هنا الطرف الامامي . ولم يكن هنا ما يفصلنا عن الالمان إلا المكان الذي يسمى في الجبهة بـ « غير التابع لاحد » ، وكان مورين ينقل خطواته بقوة ماراً امام آمر الكتيبة . ونظر الي مورين وابتسم فجأة . فاجبته ببسمة . وانتهى الامر . لم نتوقف ، ولم نقل كلمة واحدة ، ولكن الغبطة مرة اخرى طغت على نفوسنا كما في الليل . لقد كنت احبه ، وكنت اشعر بانه يحبني . لقد كانت ايضاً لحظات رائعة من السعادة ، من السعادة الخاصة بآمر يشعر بنفسه مندمجاً بكتيبته في كلٍ واحد . لقد كنت اعرف بعقلي وقلبي ان الجرأة قد ولدت اليوم في الكتيبة .

كان كل شيء من حولي يبدو كما في السابق . كانت الابعاد يلمع بياضها وراء النهر الاسود الذي لم يتجمد بعد . ومن خلال الثلج

المبكر كانت تظهر في بعض الاماكن اطراف غير مكسوة للارض المفلوحة . وكانت اسافين الغابة تسود . وكنت اعرف كما في السابق ان كل شيء سينفجر عما قريب ، وستزحف الدبابات على الثلج تاركة آثاراً سوداء ، وسيخرج من الغابة اناس في معاطف خضراء وفي ايديهم البنادق الرشاشة و سيأتون الينا ، ساقطين على الارض تارة وناهضين اخرى ، ليقتلونا . ولكن صوتاً كان يهتف في داخلنا : « حاولوا ان تقاتلونا ! » كان يصرخ في نظراتنا ، في ابتساماتنا ، في كلماتنا ، في ضحكنا الذي لا يفارقنا ، الصوت نفسه : « حاولوا ان تقاتلونا ! »

هكذا كانت تهتف في ذلك اليوم كتيبتنا ، هكذا كان يهتف فولاذنا . كان بودي ان الجأ إلى الالفاظ الجميلة والصور المستعارة فاقول : نعم ان كتيبتنا قد اصبحت سيفاً من الفولاذ ، مسقياً مشحوذاً مشطوباً يقطع الحديد ولا يمحو طبعته شيء في العالم . ولكني اقول بتواضع اكثر : في ذلك اليوم انهينا تعليمنا العسكري الثانوي . وكان الفصل الاخير في هذه المدرسة هو الضرب ، او حسب الاصطلاح العسكري المهني ، الطعن بالحربة ، الطعن في جسم العدو الحي لا في صورة تمثله . الا وان تلك الطعنة ، التي حررتنا من الرعب ، قد استطعنا تحقيقها بسهولة نسبياً ، في غارة ليلية جريئة .

أما المعارك الشاقة ، أما الامتحانات الرهيبة للشجاعة ، فلا تزال امامنا . ان معركة موسكو الكبرى التي ستدوم شهرين لا تزال في بدايتها .

وفي هذين الشهرين خضنا نحن ، الكتيبة الاولى لالاي تالغار ، خمساً وثلاثين معركة . وكنا في وقت من الاوقات كتيبة احتياط للجنرال بانفيلوف . ثم بدأنا العراك ، كما يليق باحتياطي ، في لحظات بالغة

الصعوبة . وحاربنا عند فولوكولامسك وعند ايسترا وعند كريوكوفو ، تغلبنا وطاردنا الالمان .

عن هذه المعارك الخمس والثلاثين ساحدثك فيما بعد ، أما الآن . . .

قال باورجان ماميش اوغلي :— أما الآن ، فضع نقطة كبيرة واكتب : نهاية القصة الاولى .



القصة الثانية



قبيل القتال

ليس من السهل على المرء ان يصبح جندياً ، وليس من السهل على الآمر ان يضبط القوات ، والاصعب من هذا وذلك ان يحارب .

قال باورجان ماميش اوغلي مواصلاً كلامه : — ان قصتنا الثانية اكثر مسئولية . فمن قبل تحدثنا عن اعداد الجندي ، أما الآن فالحديث سيكون عن القتال .

١

قال باورجان ماميش اوغلي مواصلاً كلامه : — في السادس عشر من شهر تشرين الاول سنة الف وتسعمائة واحدى واربعين ، كنت انا ، آمر الكتيبة ، مستلقياً على الفراش في استحكامي ، على بعد مئة وثلاثين كيلومتراً من موسكو .

وكانت تترامى من بعيد اصوات طلقات المدفعية ، تتلاحق وتكثر تارة ، وتهدأ تارة اخرى . وكان الصوت يأتي من الشمال ، من بعد عشرين او خمسة وعشرين كيلومتراً . هناك في جناح الفرقة الايسر ، كان الالمان — كما عرفنا فيما بعد — يحاولون في ذلك اليوم ان يخترقوا خطنا بالدبابات .

أما عندنا ، في مواقع الكتيبة ، فقد كان كل شيء هادئاً . فالعدو لم يتقدم نحو خط الكتيبة ، نحو القطاع المركزي لما يسمى من منطقة فولوكولامسك المحصنة .

كنت مستلقياً افكر .

لقد ضجرت من سينتشنكو ، سائس فرسي ، فهو الوحيد في ا
الذي كنت اتركه يلومني . فهو إما حمّى الحمام لاغتسالي ،
الطعام لغدائي . فطردته :

— فيما بعد . . . اذهب ولا تضايقني !

— ماذا تكرر : لا تضايقني ، لا تضايقني ! مع انك طوا
لم تفعل شيئاً .

— اني افكر . هل فهمت . أ . . . ف . . .كر .

— وهل يمكن التفكير طويلاً هكذا .

— يمكن . اذا قتلوك بسبب حماقة ارتكبتها ، فماذا اقول لز
وامثالك كثيرون عندي .

قد تتصور انت ايضاً ان آمر الكتيبة ، وخصوصاً في تلك اللا
اي في الساعات التي تسبق القتال ، يجب ان يفعل شيئاً ، كأن
في التلفون او يدعو اليه المرؤوسين أو يسير عند الخط أو يوزع الا
ولكن جنرالنا ايفان فاسيليفتش بانفيلوف افهمنا اكثر من مرة أن
الاول والعمل الرئيسي للآمر ، أن يفكر ، ويفكر ، ثم يفكر .

٢

في ليلة السادس عشر ، كما تعرف ، توجه مئة من جنود
بعد عشرين كيلومتراً ، وتوغلوا في مواقع العدو ، وعادوا منتصرين .

وقد غير هذا النصر الاول روح الجندي ، وغير الكتيبة .

ثم ماذا ؟

بديهي ان جرأتنا لا تستطيع ان تغير شيئاً في حالة العمليات . فـ
السبعمائة شخص ، الكتيبة الاولى لالاي تالغار ، كنا لا نزال

ثمانية كيلومترات من الجبهة عند مداخل موسكو التي تتدفق عليها الفرق الالمانية .

وعاودتني تلك الافكار التي عذبتني طوال اليومين او الايام الثلاثة الاخيرة .

عندما استلمت الخط لم اكن اظن ، كما تعرف ، ان العدو هنا ، في هذا الموقع ، في هذا الخط الممتد ثمانية كيلومترات ، سيواجه كتيبة واحدة فقط ، بل كنت افترض انه سينشأ من ورائنا خط دفاع ثان وربما ثالث ايضاً ، حيث سترابط وحدات اخرى من الجيش الاحمر. كنت افترض اننا بعد ان نتلقى الضربة ونؤخر العدو بعض التأخير ، سننسحب إلى القوة الرئيسية .

ولكننا عرفنا ليومين او ثلاثة ايام خلت ، ان الجيش الهتلري ظهر امام خطنا بعد ان اخترق الخط قرب فيازما ، وان اية قوات اخرى لا توجد وراءنا ، وان فولوكولامسك وطريق فولوكولامسك ـ وهو طريق مباشر الى موسكو ـ لا تحميهما الا فرقتنا ، الموزعة على هذه الكيلومترات الكثيرة من الجبهة ، وإلا بضع الايات مدفعية مضادة للدبابات .

تلك كانت حالة الحرب . وتلك كانت المهمة الملقاة على عاتق الجيش الاحمر في تلك اللحظة : وهي ايقاف العدو امام موسكو بقوات قليلة العدد ، وتأخيره إلى ان تأتينا الامدادات .

٣

اسمح لي بألا استعمل تعابير من نوع : امرنا الوطن ، واقتضى منا الوطن : اريد ان اكون ضنيناً بالكلام عندما اتحدث عن حب الوطن .

تستطيع ألا تشك باني على الارجح لست اقل عنك حدة في الشعور بماهية الوطن الاشتراكي ، بماهية البلاد التي ندافع عنها ونعيش فيها .

لقد كان حبي كله ، كانت عواطفي كلها ، كانت قوى روحي جميعاً متجهة في تلك الايام إلى شيء واحد ، هو كيف ننفذ المهمة التي خرجت من نصيب الكتيبة ، وكيف نحمي الخط .

كنت ، وانا مستلق على الفراش ، ارى كيف سيقترب العدو من شاطئ روزا ، إلى مواقعنا ، متغلباً في بضع ساعات على الكيلومترات الاثني عشر او الخمسة عشر من الاراضي العزلاء التي كانت لا تزال في تلك اللحظة تفصل بيننا وبين الالمان . انه عندما يلاقي مقاومة ويكتشف وجود خط دفاعي ، سيجمع خفية في الليل مجموعة صدامية في مكان ما من الغابة — في نقطة هو سيختارها — ثم يحشد المدفعية ، وبعد ان يكون استعد اتم الاستعداد ووزع القوات بطريقته المحببة — طريقة دق الاسفين — يندفع الى امام في جبهة ضيقة ، على مسافة نصف كيلومتر او كيلومتر واحد . وكل كيلومتر من منطقة كتيبتنا تحرسه فقط فصيلة قناصة واحدة وحضيرة رشاشات واحدة .

ولم يكن لدي احتياطي . وكان تقدير المسافات يدل على ان الالمان يستطيعون بهجوم مباشر وفجائي ان يقطعوا خطنا من قبل ان تتمكن قوات من قطاعات اخرى الانطلاق الى هناك ، الى كيلومتر غير مرئي وغير معروف .

ورحت اضع نفسي في مكان العدو وافكر بعقله واتساءل أليس من الممكن ان يقع اختياره على نقطة تبدو له اجدى وانسب من غيرها للهجوم ؟ ولكن العدو ايضاً ليس باحمق . ولا بد انه ، تعساً له ، سيفكر بعقلي كما افكر انا بعقله .

وطبيعي انه سيحزر افكاري بسهولة ويجد طريقة للمخاتلة . سينقر نقرة في مكان ما ، فاحشد السرايا هناك على عجل ، واوجه الى هناك مدافع الهاون ومدافع الميدان ، فيما ستدخل جماعة اخرى من العدو عبر الجبهة المعرّاة .

قد يكون الآن ، وعلى بعد عشرين كيلومتراً ، يقرأ افكاري ويضحك .
وتخيلت في ذهني صورة آمر المجموعة الالمانية المحتشدة امامنا .
فامتثل امامي شخص متصلف حليق اللحية يحمل اشرطة الكولونيل ، وربما الجنرال .

ولمواجهة كيلومتراتنا الثمانية ، لمواجهة كتيبتي ، كان تحت تصرفه ، او سيكون تحت تصرفه بعد يوم او يومين ، فرقة كاملة تقريباً تصل من المؤخرة . امعنت النظر ، في مخيلتي ، في هذا القائد العسكري الالماني الذي يتوجب علي الآن ــ وانا مستلق على الفراش ــ ان اغلبه في القتال ، في قتال صامت بين العقل والعقل ، وحاولت التغلغل في افكاره وفي خططه ، وكررت القول لنفسي : لا تظن يا باورجان ان امامك احمق .

ولكن العينين اللتين رأيتهما في الخيال ، العينين الحادتين القاسيتين المتخطيتين عهد الشباب ، اللتين يلمع فيهما روح المغامرة الحربية ، وتستطيعان التحديق الطويل في الخارطة باهتمام ، لم تكونا في تلك اللحظة مأخوذتين بنشاط العقل ولم تكونا تسطعان بوهج التفكير . لقد كان هذا الكولونيل او الجنرال الالماني ، يزدري بي ، يزدري بالكتيبة المواجهة له ، يزدري ببضع مئات من جنود الجيش الاحمر الذين يحرسون مشارف موسكو على طول ثمانية كيلومترات من الجبهة . لقد كان يشعر بالملل . لقد كانت الحرب في الشرق مضمونة الكسب في تفكيره وكانت الطريق الى موسكو مفتوحة امامه . فكان لا يأبه لنا ولا يرانا نستحق بعض الجهد من دماغه .

قد اكون مخطئاً ؟ وقد تكون دروس الحرب ــ المقاومة البطولية التي ابدتها وحدات الحدود التابعة للجيش الاحمر ، والمعارك الدفاعية عند سمولينسك ، والدفاع عن اوديسا ولينينغراد ــ قد اجبرته على التفكير ؟

وقد تكون غارتنا الليلية ايضاً ، قد يكون التحدي الذي ابديناه له ، بين له ان نضالا ضارياً ينتظره عند موسكو ؟

لا اظن . . . فبالنسبة له هو الفاتح ، الذي اجتاز مع الجيش الهتلري في اربعة اشهر الف كيلومتر من الحدود حتى منطقة موسكو ، والذي قاد فرقة في عملية عند فيازما حيث تحطمت جبهتنا المركزية ، بالنسبة له هو الواثق بانه سينظر من نافذة سيارته بعد عدة ايام ، إلى ميادين موسكو وشوارعها ، ـ بالنسبة له ليست غارة ليلية من مئة جندي إلا بمثابة هجمة من فرق الانصار من تلك الهجمات التي لن تكون قليلة في المستقبل ايضاً والتي سيقضي عليها رجال التحري والدرك .

وقال لي الحدس ملقناً : لقد حزرت ، لقد بلغت ما في جمجمته . ونفر الحقد في دماغي . أتشعر بالازدراء ؟ أتشعر بالملل ؟ اذن انتظر ، فسنحملك حملاً على التفكير !

وحتى ذلك الحين . . . حتى ذلك الحين يجب ان ننتظر من « محترف النصر » الذي لم يعد يتعب نفسه بالتفكير ، ان يعمل وفق النموذج : والنموذج معروف مشهور . انه بعد ان يقطع في عدة ساعات اثني عشر او خمسة عشر كيلومتراً من قطاع اعزل وبعد ان يقضي على نقطنا الخارجية . . . وندت عني هنا ضحكة خفيفة . ذلك اني ، وقد تغلغلت في جمجمة العدو ، لم اتقدم الى امام كثيراً : فقد رسمت دائرة وعدت إلى حيث بدأت .

٤

قلت ان النموذج معروف . فهل هذا صحيح ؟

لقد كنت اعرف الحرب من المطبوعات والكتب المدرسية وكتب التدريب ، ومن احاديثي مع الناس الذين حضروا المعارك ، واشتركت

في التدريب وعلمت الجنود وانطلقت معهم الى الجبهة ، ولكن الحرب مع ذلك ظلت سراً عليّ كما كانت سراً على كل من لم يعانها .

وكان الهتلريون قد اظهروا ، في بولندا وفي فرنسا ، طريقتهم في الحرب : وهي ان يخرقوا خط القوات في عدة نقاط ثم يتقدموا مباشرة بالدبابات وسيارات الشحن والدراجات النارية ، خانقين بعد ذلك مقاومة الجماعات المطوقة المنعزلة بعضها عن بعض . وهكذا حاولوا العمل عندنا ايضاً .

وفي تفكيري رحت انا ايضا استعمل الكلمات النموذجية : خرق ، تقدم ، خنق . . . ولكن ما هذا ؟ ولماذا يخنق ؟ وكيف يحدث هذا ؟

ومن غير ان انظر إلى الخارطة التي كنت اعرفها عن ظهر قلب ، رأيت الشواطئ المتعرجة لنهر روزا البطيء الضيق ، وخطنا المؤلف من سلسلة من اعشاش الرشاشات وحفر القناصة . ومن ورائنا في الغابة تختفي ثمانية مدافع ملحقة بالكتيبة ، ومن امامنا ، على الشاطئ ، كان يقوم منحدر عامودي مضاد للدبابات يسمى في اللغة العسكرية بالاسكارب .

انطلق نظري الى بعيد ، الى ما وراء النهر ، الى ناحية العدو . ورأيت القطاع الفاصل بيننا بتفاصيله ، وكان الهتلريون لم يحتلوه بعد ولكننا كنا قد تركناه . ورأيت الطرق المؤدية من مراكز الاحتشاد الالماني إلى سواترنا . ورأيت الوهاد والغابات وكأنها هيئت خصيصاً لنصب الكمائن . وشعرت بقلبي ينقبض عندما تصورت الطوابير الالمانية تمر ، دون ان تصطدم بمقاومة ، بقرب هذه الوهاد والغابات ، التي كانت حتى اليوم في متناول يدنا وكان بوسع السرايا ان تختبئ فيها .

ونجمت في عقلي فكرة الضرب من المؤخرة ، من الكمين ، في اعقاب الطوابير المتلاصقة التي سترى نفسها محصورة بين نارين .

ونجمت خطة القتال التصادمي : مهاجمة العدو على حين غرة

عندما يكون قريباً . ولكن باية قوى ؟ وهل يجوز سحب الكتيبة من استحكاماتها ؟

عندما كان الجنرال بانفيلوف في زيارته الاخيرة للكتيبة لفت الاهتمام باصرار الى امكانية رد الضربة بالضربة .

ولكن كل ما عندي لا يزيد عن سبعمائة شخص موزعين على ثمانية كيلومترات من الجبهة . ثم اني لا استطيع سحب الكتيبة وابقاء خط الجبهة مكشوفاً . باية كلمات اعبر لك عن ذلك الحزن الذي يعصر قلب الآمر عندما تكون القوات عنده قليلة .

لقد رأيت ، وانا افكر بعقل العدو ، كثيراً من الطرق لحل مهمته : وهي ان يخترق خط كتيبتي . مع اني لم استطع ان انشئ لنفسي خطة ولم اتمكن من ايجاد وسيلة لمنع اختراق الخط .

لقد عذبت نفسي ، وانهلت على نفسي بالشتائم واصبح جسمي كله يؤلمني وكأنه محطم .

٥

وعند المساء تلقيت امراً بان اكون في الساعة الخامسة صباحاً في منطقة جارنا الايسر ، في نقطة قيادة الكتيبة الملاصقة لكتيبتنا .

ساعة مع بانفيلوف

١

ذهبت إلى الجار الايسر ممتطياً متن الفرس .

ضع خطاً تحت كلمة الايسر . فاني اريد ان يكون لديك دليل للاتجاه واضح وان يكن غير دقيق . تصور مرة اخرى خط الكتيبة

الممتد على طول نهر روزا . قف بحيث يكون وجهك متجهاً إلى مكان العدو . ومن الضروري ان تتصور بوضوح فيما بعد أن هذا يجري امامك ، امام جبهة الكتيبة ، وذاك يجري إلى اليمين ، وذلك الى الشمال ، حيث كانت كتائب مثل كتيبتنا تشغل قطاعات طويلة كقطاعنا .

تغير الطقس بعد شتاء باكر مدهش في تشرين الاول ، عندما نزل الثلج لمدة اسبوع ونصف او اسبوعين . فقد زال الصقيع وحلت الاوحال الخريفية . واصبحت الليالي معتمة غير مقمرة .

خفت ان اقع مع الفرس ، في عتمة الليل ، في حفرة من الحفر ، فلم اتخذ لنفسي الوجهة المباشرة ، بمحاذاة الشاطئ ، بل سرت في الطريق غير المعبد الذاهب في انحناء .

ولم يكن سهلاً على الفرس ان تسير حتى بخطى غير سريعة . فكانت الغراء تنتزع قوائمها انتزاعاً من الطين اللزج ، وتهز رأسها يمنة وشمالاً . وكنت اجلس على السرج متثاقلاً ، غارقاً في بحر الافكار .

واخذت التقي في طريقي باشخاص راجلين ذاهبين في الاتجاه نفسه . فانتفضت . ما هذا ؟ قوات جديدة ؟ امدادات ؟ وكان مصباح الجيب الذي معي يشق بين الفينة والفينة حجب الظلام .

ما هذا ؟ هل تأخروا عن الطابور ؟ انهم يسيرون مثنى وثلاث ، ملتفين بقماش الخيام المتيبس ، تتدحرج عليه قطرات المطر الرتيبة . وكانت فوهات البنادق المحمولة باحزمتها الجلدية على الاكتاف ، مشرعة الى فوق . وسأل احدهم :

ـ كم كيلومتراً حتى سيبونوفو ايها الرفيق الآمر ؟

قلت :

ـ من هؤلاء الناس ؟ ومن اين ؟

وعرفت ان كتيبة احتياط مرت من هنا في مسيرة ليلية من فولوكولامسك ، وان هؤلاء الناس الذين يتحدثون معي قد تأخروا في المسير .

سئلت مرة اخرى : كم كيلومتراً حتى سيبونوفو . فاجبت وانا اغذ السير . واصبحت الطريق خالية لبعض الوقت . واصبح الهدوء شاملاً من جميع النواحي : ذلك ان رعد المدافع سكت في اليل .

ولكن ها هي ذي الارجل المتثاقلة تتحرك امامي من جديد . انهم مرة اخرى يسيرون مثنى وثلاث . ان المعونة تسر ، ولكن . . . فليأخذهم الشيطان لسوء مشيتهم . انك لا تحس فيهم التدريب القاسي الذي علمنا اياه بانفيلوف : ان جنودنا لم يتوزعوا هكذا ولم يتأخروا .

اندفعت الغراء خائفة . وانار المصباح عربة جانحة وفرساً واقعة وسائقاً مبتلاً مطأطئ الرأس حزيناً .

وبعد دقيقة لمعت في جانبٍ اقباس السكاير . كان عدة محاربين مستلقين على جنبات الطريق يدخنون ، واجسامهم المتعبة الآنّة غير آبهة بالرطوبة .

وكان سؤال واحد ينهال علي من كل جانب : هل سيبونوفو بعيدة ؟

كنت ذاهباً الى هناك ايضاً . فبقرب قرية سيبونوفو ، في الغابة ، كان يقع مركز قيادة الكتيبة المجاورة لنا .

٢

ما ان وصلت الى مركز القيادة حتى هبطت اليها تحت الارض بسلم مبتلّ .

— اوه ، الرفيق ماميش اوغلي ، تفضل . . .

كان الصوت الابح المألوف .

ورأيت الجنرال ايفان فاسيليفتش بانفيلوف .

كان جالساً عند الموقد الحديدي يعيد لبس حذائيه . وكان احد الحذائين مخلوعاً ، ورجله الصغيرة السمراء ممدودة إلى الحديد الحامي . وكان يجلس غير بعيد عنه مرافق بانفيلوف وهو ملازم شاب متورد الخدين . وكان في الزاوية الاخرى شخص لا اعرفه برتبة كابتين .

ابلغت عن وصولي متهيأ . فاخرج بانفيلوف ساعته ونظر اليها ، وقال :

ـ اخلع معطفك واجلس الى النار .

وسوّى قامته قليلاً وبسط قطعة القماش الذي كان مبللاً من احد طرفيه ، ووضع قدمه على الطرف الآخر الجاف من القماش ولفه على رجله بسرعة وبمهارة كجندي ، دون ان يترك فيه تجعيداً . ثم لبس الحذاء .

وكان معطفه الذي اصبح لونه غامقاً من المطر ، يجف عند النار بنجومه المتواضعة التي بلون الخاكي . وكان يبدو ان بانفيلوف ، وقد استقبل الوحدة القادمة ، تفقد الخط ، وقضى وقتاً طويلاً تحت المطر ، ويجوز انه قضى ليله كله دون ان ينام. ولكن علائم التعب والارهاق لم تكن ظاهرة على وجهه المجعد الخمسيني ، الشديد السمرة ، ذي الشاربين الاسودين المقصوصين .

سأل موصوص العينين مبتسماً : ـ هل سمعت ايها الرفيق ماميش اوغلي بما جرى لنا اليوم ؟

يصعب علي ان انقل اليك شدة انشراحي لمرأى هدوئه وصوته البشوش وتضييقة عينيه اللعوب في تلك اللحظة . فقد شعرت بنفسي فجأة اني غير وحيد ، غير متروك وجهاً لوجه للعدو الذي يعرف شيئاً ما وسراً من اسرار الحرب لا اعرفه انا ، الانسان الذي لم اجرب القتال .

وقلت في نفسي : ان هذا السر يعرفه جنرالنا ايضاً فقد كان جندياً من جنود الحروب العالمية الماضية ، ثم آمراً ، بعد الثورة ، لكتيبة والاي وفرقة .

وتابع بانفيلوف :

— صمدنا ، . اف — واستعاد انفاسه مازحاً — لقد خفت . ولكن لا تقل لاحد ايها الرفيق ماميش اوغلي . لقد اخترقت الدبابات الخط . . . وهذا ايضاً ، — واشار بانفيلوف إلى المرافق ، — كان معي هناك ، ورأى شيئاً . قل ، كيف استقبلوا العدو ؟

فنهض المرافق وقال بلهجة فرح :

— بصدورهم ايها الرفيق الجنرال .

فارتفع حاجبا بانفيلوف الغريبان الاسودان المتكسران بشدة ، مبدياً عدم رضاه .

وسأل : — بصدورهم ؟ كلا يا سيدي ، ان من السهل طعن الصدر بكل شيء حاد ، لا بالرصاص وحده . نطق : بصدورهم . سلم هذا الملحوس المرتدي لباس العسكر سرية ، يقدها بصدورهم إلى الدبابات . لا بالصدور ، بل بالنار ! قابلوهم بالمدافع ! كأني بك لم تر ؟

فسارع المرافق إلى الموافقة . ولكن بانفيلوف كرر بلهجة لاذعة :

— بصدورهم . . . اذهب وانظر ، هل يطعمون الخيل . . . ومُرْهم بان يسرجوا بعد نصف ساعة .

فرفع المرافق يده بالتحية وخرج خجلان :

وقال بانفيلوف بلهجة لين : — حديث السن !

ونظر إلي ثم إلى الكابتين الذي لا اعرفه ، وراح ينقر على المائدة باصابعه .

وقال : — لا يجوز ان نحارب بصدور المشاة . وخصوصاً الآن

ايها الرفاق . ان قواتنا هنا ، عند موسكو ، غير كبيرة . . . فيجب الحفاظ على الجندي .

كنت اصغي الى الجنرال بانتباه ، محاولاً ان اجد في كلماته الجواب على الاسئلة التي ترهقني ، ولكني لم اجد حتى الآن .

ثم اضاف بعد تفكير :

ــ يجب الحفاظ عليه لا بالكلام بل بالفعل ، بالنار .

٣

ثم قال بانفيلوف :

ــ عندك الآن ايها الرفيق ماميش اوغلي جار جديد . . . تعارفا : الكابتين شيلوف .

كان الكابتين واقفاً عند المائدة ، طويل القامة ، ممشوق القد ، حديث السن على رتبته ، فمن هيئته تظن انه في السابعة والعشرين . ولم تكن على رأسه قبعة ذات لسانين لتغطية الاذنين ، كما كان الجميع مرتدين عندنا من محاربي وآمري فرقة بانفيلوف ، بل كان على رأسه عمرة بلون الخاكي ذات شريط ضيق احمر مما يلبسه المشاة . ولم يلفظ اية كلمة . ولكن حتى هذه الطريقة في السكون ما لم يتكلم الأعلى ، كانت تدل ، إلى جانب لباسه ووقفته ، على انه من الجيش النظامي . وتبادلنا السلام .

وسأل بانفيلوف : ــ هل اتخذت الطريق سبيلك ايها الرفيق ماميش اوغلي .

ــ نعم ايها الرفيق الجنرال .

ــ هل المتأخرون كثيرون ؟

قلت : ــ كثيرون .

فند عن بانفيلوف صوت مقهور :

ــ آه . . .

والتفت الى الكابتين . فاحمر وجهه ووقف « تهيأ » . ولكن بانفليوف لم يوجه اليه لوماً بل قال :

ــ اعرف ، اعرف ، ايها الكابتين : فيم تفكر . تفكر ان احداً دربهم ، ان احداً علمهم ، وتعال الآن ايها الكابتين شيلوف ادّ الحساب . هكذا ؟

وابتسم بانفيلوف . فابتسم شيلوف ايضاً ، وزال عنه التوتر :

ــ كلا ايها الرفيق الجنرال ، ليس الامر هكذا .

ــ ليس هكذا ؟

وتقدم بحركة سريعة إلى الكابتين . وشع الفضول في عينيه الصغيرتين . فاجاب شيلوف بحزم :

ــ لست افكر في نفسي ايها الرفيق الجنرال . اخشى ان يدفع الناس الثمن غاليا . ائذن لي ان اخرج وان اتخذ التدابير اللازمة ايها الرفيق الجنرال .

ــ ماذا ، هل توبخ المتأخرين ؟

ــ كلا ايها الرفيق الجنرال . لا بد من توبيخ الآمرين . وسآمر بالكشف عمن يستحق عقاباً مزدوجاً .

ضحك بانفيلوف وقال :

ــ حسن ، حسن ايها الكابتين .

ــ هل تسمح لي بالذهاب .

ــ انتظر .

وسكت بانفيلوف واخذ يفكر ثم كرر :

ــ واذن ايها الرفيق ماميش اوغلي فعندك الآن جار جديد . وانه لكتيبة ضعيفة ، ورديئة الإعداد . أليس كذلك ايها الكابتين .

ــ نعم ايها الرفيق الجنرال .

ثم شرح بانفيلوف متوجهاً بخطابه إلي ، قائلا ان الفرقة تلقت كتيبة احتياطية كانت ترابط في فولوكولامسك . ومنذ ايام فقط اصبح الكابتين شيلوف آمراً لهذه الكتيبة .

وقال بانفيلوف : ــ واقتضى الامر عزل الآمر السابق . لقد اطلق العنان للجند ، لقد اشفق عليهم . غريب الاطوار ! فالشفقة هنا تعني عدم الشفقة . هل فهمت عني ايها الكابتين ؟

ــ نعم ، اني اعرف هذا ايها الرفيق الجنرال .

ونظر بانفيلوف عدة ثوان ، ساكتاً ، في الوجه الرصين الفتيّ ، وجه الكابتين شيلوف ، ثم التفت إلي :

ــ لقد ارسلت في طلبك ايها الرفيق ماميش اوغلي من اجل هذا . . .

توترت اعصابي جميعاً . . . ولكن الجنرال قال ببساطة ان عليّ وعلى الكابتين شيلوف ان نتفقد معاً نقطة تماس الكتيبتين والمسافات الفاصلة بينهما .

ــ اذا دخل العدو في نقطة التماس ، فاضربوه معاً . واستعدوا لذلك . واتفقوا في اماكن عملكم على جميع مسائل الاتصال والتعاون . ولا تتركوا بعضكم بعضاً في الضر .

ومرة اخرى نظر بانفيلوف بانتباه إلى الكابتين ثم سمح له بالانصراف .

ولم يتضح شيء بالنسبة لي . وظلت اشارات الاستفهام تعذبني كالسابق . « اضربوه معاً ! » ولكن كيف ؟ وباية قوى ؟ هل نخرج الناس من خنادقهم ؟ هل نعري الجبهة ونفتحها ؟ وماذا لو ضرب العدو في نقطة اخرى ايضاً في آن واحد ؟ « اضربوه معاً ! » ولكن العدو ايضاً

سيضربنا . وسيضربنا بقوات تفوق قوانا ، في نقاط مختلفة ، وجهات مختلفة .

بعد ان التقطت كل كلمة من كلمات بانفيلوف اجريت لنفسي كشفاً بالحساب . وكانت النتيجة ان سر القتال ، وسر النصر في القتال ، ظلا غامضين عليّ كما في السابق .

٤

انغلق الباب وراء الكابتين .

وقال بانفيلوف مفكراً : — يبدو ان له رأساً من ذهب . ولكن . . . واذن ايها الرفيق ماميش اوغلي فالمتأخرون كثيرون ؟ كثيرون جداً ؟

— كثيرون ايها الرفيق الجنرال .

— نعم ، حتى واوكان الرأس ذهبيا تشرب المر ، اذا كان الجندي غير مستعد .

واصبح وجه بانفيلوف ، لحظة عابرة ، متعباً جداً ، كئيباً . ولكنه نظر إلي وابتسم في الحال . ولمعت بحيوية عيناه الصغيرتان المحاطتان بالتجاعيد الصغيرة .

— هات حدثني ايها الرفيق ماميش اوغلي . . .

ابلغت بايجاز عن نجاح الغارة الليلية . ولكن بانفيلوف اخذ يطرح الاسئلة باحثاً عن التفاصيل . ومرة اخرى ، كما في عدة حالات سابقة ، لم يعد تقريري تقريراً وانما حديثاً .

قال بانفيلوف :

— هات ايها الرفيق ماميش اوغلي حدث شيلوف بكل هذا . حرضه . . . اريد أن يفعل مثلك في الغد .

لم يهنئني الجنرال ، ولم يضغط على يدى ، ولم يقل : « عظيم ! احسنت ! » بل مدحني بطريقة اخرى ، مدحني مديحاً عملياً .

واستمر يقول : — انك ايها الرفيق ماميش اوغلي تعلمت كيف تضرب الالمان .

فاجبت حزينا :

— كلا ، ايها الرفيق الجنرال ، لم اتعلم .

فارتفع حاجباه .

— وكيف ؟

— اليوم ايها الرفيق الجنرال حطمت رأسي تفكيراً طوال النهار . اني عندما افكر بعقل العدو انتصر بسهولة . ولكن عندما افكر بعقلي لا ارى كيف اضربه وكيف اصده عنا .

فقطب بانفيلوف حاجبيه ونظر إلي ساكتاً بعض الوقت . ثم امر :

— قدم تقريرك مفصلاً ! هات الخارطة !

٥

بسطت خارطتي على المائدة . كان خطنا معلماً عليها بالقلم الاحمر ، ولم يكن قد مُس بعد ولم يحنه القتال في اية بقعة . وعلى جانبي منطقة كتيبتنا كانت تمتد خطوط دفاع الكتائب المجاورة . وكانت هذه الخطوط ، التي تدل على سلسلة غير كثيفة من حفر القناصة واعشاش الرشاشات ، تحجز موسكو عن العدو .

ابلغت بصراحة اني عندما افكر بالوضع لا ارى امكانية لصد الهجوم بقواي في منطقة الكتيبة . ليس من السهل قول هذه الكلمات — وكل آمر يفهمني في هذا — ولكني مع ذلك قلتها . وكان بانفيلوف يهز رأسه ساكتاً ، طالباً الاستمرار . فاعربت عن الافكار التي كانت

تعذبني ، وقلت انه ليس عندي اية فصيلة احتياطية ، وانه اذا حدثت ضربة مفاجئة لم يكن عندي ما ادعم به حاجزنا وما ارد به الضربة .

ـــ اني واثق ايها الرفيق الجنرال بان كتيبتي لن تنسحب وانها قادرة اذا اقتضى الامر على ان تموت عند الخط ، ولكن . . .

فقاطعني بانفيلوف قائلاً : ـــ لا تستعجل الموت ، بل تعلم القتال . ولكن استمر ايها الرفيق ماميش اوغلي ، استمر .

ـــ ثم ان شيئاً يحيرني ايها الرفيق الجنرال وهذا هو . . . ان ما يفصل خط الكتيبة الآن عن العدو هو مساحة عرضها يصل إلى خمسة عشر كيلومتراً .

واشرت إلى هذه المساحة في الخارطة . فهز بانفيلوف رأسه مرة اخرى .

ـــ وكيف ، ايها الرفيق الجنرال ، هل نعطيه هذه الكيلومترات الخمسة عشر ؟

ـــ كيف هذا ـــ نعطيه ؟

شرحت فكرتي قائلاً :

ـــ لانه ايها الرفيق الجنرال ما ان يزيل نقطنا الخارجية حتى يتقدم بسرعة . . .

ـــ ولماذا يزيل ؟

كان بانفيلوف حتى الآن يصغي بجد واهتمام . ولكن وجهه عبر عن الاستياء هنا ، لاول مرة في مدة تقديمي التقرير . واعاد بشدة :

ـــ لماذا يزيل ؟

لم اجب . فقد بدا لي ذلك واضحاً : اذ ان النقط الخارجية ، اي الحضيرة او الحضيرتين اي الاشخاص العشرة او العشرين ، لن تستطيع اعاقة قوات العدو الكبيرة .

قال الجنرال : ــ انك تثير الدهشة فيّ ايها الرفيق ماميش اوغلي . فقد ضربتم الالمان . أليس كذلك ؟

ــ ولكن ايها الرفيق الجنرال ، كنا عندئذ نحن الهاجمين . . . ثم ان الهجوم كان ليلاً وعلى حين غرة . . .

وكرر قوله : ــ انك تثير دهشتي . لقد كنت اظن ايها الرفيق ماميش اوغلي انك ادركت ان الجندي لا يجوز له ان يجلس و ينتظر الموت . بل يجب جلبه للعدو ، يجب الهجوم . ذلك انه اذا لم تلعب انت لُعب بك .

ــ واين نهجم ايها الرفيق الجنرال ؟ على سيريدا مرة اخرى ؟ لقد اصبح العدو هناك في حذر .

ــ وما هذا ؟

وتناول بانفيلوف القلم بسرعة واشار في الخارطة الى مساحة فاصلة .

ــ انك ايها الرفيق ماميش اوغلي محق في شيء واحد : وهو انه عندما يصبح على قيد شعرة منا فلن نستطيع تأخيره بخيطنا . ولكن يجب ان يقترب . قلت : يزيل . . . كلا ايها الرفيق ماميش اوغلي ، ليس في هذه المساحة إلا القتال . خذ هناك زمام المبادرة في اطلاق النار ، واهجم . في اية نقاط توجد نقطكم الخارجية ؟

اشرت اليها . كانت ثمة طريقان من مواقع الالمان إلى خط الكتيبة : طريق فرعية وطريق رئيسية محفوفة بخندقين . وكانت كل طريق محروسة على بعد ثلاثة او اربعة كيلومترات امام خط الكتيبة .

فابدى بانفيلوف عدم رضاه .

ــ ما هي القوى التي مع الحراسة ؟

فاجبت .

— هذا قليل ايها الرفيقماميش اوغلي . يجب ان تعمل هنا فصائل معززة . ولتكن الرشاشات اليدوية معهم اكثر . الرشاشات الثقيلة لا لزوم لها . فالجماعات يجب ان تكون خفيفة وسريعة الحركة . وتجرأ اكثر وارسلهم إلى ناحية العدو مسافة ابعد . وليقابلوا بالنار ، ليهجموا بالنار اذا ما بدأ الالمان التقدم هنا .

— ولكن العدو ايها الرفيق الجنرال سيلف حولهم . . . سيذهب في الناحيتين .

فابتسم بانفيلوف :

— هل تظن انه « حيث يمر الايل يمر الجندي وحيث يمر الجندي يمر الجيش » ؟ ان هذا ايها الرفيق ماميش اوغلي لا ينطبق على الالمان . هل تعرف كيف يحاربون الآن ؟ انهم حيث تمر سيارة الشحن يمر جيشهم . واين تستطيع ان تمر سيارة في هذه الوهاد والحفر اذا كانت الطرق مسدودة ؟ اين ايها الرفيق ماميش اوغلي ، اين ؟

— في هذه الحالة سيطرد . . .

— آه ، سيطرد ؟ ليس من السهل تنظيف الطريق من فصيلة تملك ثلاثة او اربعة رشاشات . يجب التوزع والدخول في القتال . وهذا ايها الرفيق ماميش اوغلي يتطلب نصف نهار . . . ليلف من حولكم ، فهذا ليس خطراً . ولكن لا تدعه يطوقكم . وفي اللحظة المناسبة يجب الابتعاد والتملص . تقريباً هكذا . . .

وسد بانفيلوف بضربة قلم خفيفة احد الطرق بقرب القرية التي يحتلها الالمان ، ثم ركض القلم جانباً ورسم عقدة وعاد إلى الطريق في نقطة اخرى ، اقرب قليلاً إلى خط الكتيبة . ثم نظر إلي ليرى هل اتتبعه وافهم ما يقول ، ورسم خطاً حلزونياً كالاول ثم ثالثاً وكان في كل مرة يزداد اقتراباً من الخط .

وقال : ــ هل ترى اي حازون ، اي لولب . كم مرة نجبر العدو بذلك على الهجوم عبثا ؟ كم يوماً تنتزع من وقته ؟ ما رأيك في هذا يا سيدي الكريم ، يا سيدي العدو ؟

كنت افكر . كانت عندي من قبل افكار كهذه ، ولكني قبل حديثي مع بانفيلوف لم اكن استطيع الخلاص من تأثير الاستحكامات المغناطيسي ، ولم اكن املك الحق ، كما يبدو لي ، اخراج الناس من الخنادق .

٦

دخل مرافق بانفيلوف .

ــ اسرجت الخيل ايها الرفيق الجنرال .

فنظر بانفيلوف إلى الساعة .

ــ حسن . . . تلفن للرئاسة وقل اننا نذهب بعد حوالي عشر دقائق .

وتحسس قبة وكتفي المعطف الذي كان يجف قرب الموقد . وجلس القرفصاء واطعم النار حطباً وظل هكذا جالساً دقيقة عند باب الموقد المفتوح . وبدت الثقة عبر هذه الحركات البسيطة مرة اخرى كما في اللقاء السابق . وشعرت انه استعد لقتال جدي ، طويل ، محسوب بدقة .

ثم عاد بانفيلوف الى الخارطة ونظر اليها وفتل القلم .

قال : ــ طبيعي ايها الرفيق ماميش اوغلي ان كل شيء قد يجري في القتال بغير المجرى الذي اجريناه فيه الآن انا وانت . فالذي يحارب ليس القلم ولا الخارطة المرسومة بالقلم ، بل الانسان .

وكان كعادته يتكلم وكأنه يفكر جهراً .

وواصل قوله : ــ انتق للفصائل المعززة آمرين جريئين واذكياء ، ممن عندهم شيء هنا .

ونقر على جبهته بيده .

ــ من الذين ايها الرفيق الجنرال كانوا في الغارة الليلية ؟

فوصوص بانفيلوف عينيه .

ــ لست ايها الرفيق آمر الكتيبة معتزماً قيادة الكتيبة بدلاً منك . ان عندي فرقة . ان عليك انت ان تفعل ذلك : ان تنتقي المواقع المتوسطة للنقط الخارجية ، وان تنتقي الآمرين .

ولكنه اجاب مع ذلك بعد تفكير :

ــ كلا ، لماذا ترسل اولئك الذين حضروا القتال . ليطلق النار آخرون . يجب على الجميع ان يحاربوا . ولكن افهم ايها الرفيق ماميش اوغلي الامر الرئيسي : لا تترك العدو ينفذ الى الطرقات ، امنعه عن ذلك بكل الوسائل . ولا تتركه يقترب من الخط . ان العدو الآن على بعد خمسة عشر كيلومتراً عنكم . وهذه ايها الرفيق ماميش اوغلي مسافة قصيرة جداً اذا لم تكن هناك مقاومة ، ولكنها طويلة جداً اذا قاومت كل شجرة وكل تلة .

ونظر مرة اخرى الى الخارطة وسكت قليلاً ثم واصل :

ــ شيء آخر ايها الرفيق ماميش اوغلي : تحقق من قدرة الكتيبة على الحركة . وانظر باستمرار هل العربات والخيل على استعداد . . . ان كل شيء يحدث في الحرب . كونوا مستعدين لأن تنضموا بسرعة حسب الاوامر وان تغيروا اماكنكم بسرعة .

بدا لي انه كان يتكلم بالكنايات ولا يفصح عما يقول . ولماذا يقول لي كل هذا . فعزمت مرة اخرى على ان استفصح بصراحة عما لم افهمه .

ـ ايها الرفيق الجنرال ، هل تسمح لي بسؤال ؟

ـ نعم ، نعم ، اسأل . فهنا نتحدث من اجل هذا .

ـ ليس هذا ايها الرفيق الجنرال بواضح عندي . فالعدو يقترب من خط الكتيبة . وقد قلت : لن نمسكه عن ذلك . فاسمح لي ان اسألك : ماذا ينتظرني ؟ ولأي شيء يجب ان اكون مستعداً انا ، آمر الكتيبة ؟ للانسحاب ؟

نقر بانفيلوف باصابعه على المائدة . وكانت تلك منه حركة تدل على انه في صعوبة .

ـ وانت ماذا تظن في هذا ايها الرفيق ماميشْ اوغلي ؟

ـ لا اعرف ايها الرفيق الجنرال .

فقال بعد لحظة صمت : أرأيت ايها الرفيق ماميش اوغلي ؟ ان الآمر مضطر لأن يقدر اسوأ الاحتمالات . ان مهمتنا الحفاظ على الطرق في ايدينا . فاذا اخترق الالمان الخط ، وجب ان تكون قواتنا مرة اخرى امامهم في الطرقات . ولهذا اخذت من هنا كتيبة . لقد اردت ان آخذكم ولكن عندكم طريقاً هامة .

واشار في الخارطة الى طريق سيريدا ـ فولوكولامسك التي سدها خط الكتيبة الاحمر .

ـ ليس الخط هو الهام ، ايها الرفيق ماميش اوغلي ، بل الهام هو الطريق . واذا لزم الامر اخرجوا الناس من خنادقهم بكل جرأة ، وجمعوا الحشود بجرأة ، ولكن حافظوا على الطريق . هل فهمت عني ؟

ـ نعم ايها الرفيق الجنرال .

اقترب من معطفه وسأل وهو يلبسه :

ـ هل تعرف هذا اللغز : « اي شيء اطول ما في العالم واقصره ، واسرعه وابطأه ، اكثر ما يزدريه الناس واكثر ما يأسفون عليه ؟ »

لم احزر على الفور . فسر بانفيلوف اعجزي واخرج ، وهو يبتسم ، ساعته واراها لي :

ـــ هذا هو ! الوقت ! ومهمتنا الآن ايها الرفيق ماميش اوغلي ، ان نحارب في سبيل الوقت ، ان نكسب الوقت من العدو . رافقني .

وخرجنا من الاستحكام .

٧

طلع الفجر كدراً . وانقطع المطر ، وكانت الاشجار لا تبرز عبر الضباب بوضوح . وجيء بالخيل . فنظر بانفيلوف .

ـــ واين شيلوف ؟ لنذهب نحن مشياً حتى يلحقنا .

وفي الطريق سألني بانفيلوف عن الاعمال الجارية عند الخط . فابلغت ان الكتيبة تحفر خنادق الاتصال . فتوقف بانفيلوف .

ـــ بم تحفرون ؟

ـــ كيف بم ؟ بالرفوش ايها الرفيق الجنرال .

ـــ بالرفوش ؟ بالعقل يجب الحفر . ـــ قال هذا بلين عريكته المعهود ، وبشيء من المزاح . ـــ لا بد انكم قلبتم الارض هناك رأساً على عقب . يجب علينا الآن ايها الرفيق ماميش اوغلي ان نحفر موقعاً كاذباً . يجب اللجوء للحيلة ، والخداع .

فدهشت . اذ اني احسست بعد حديثي مع الجنرال انه لا يعير اهتماماً خاصاً بخط الدفاع . اما الآن فالامر يبدو على غير ذلك . فاجبت :

ـــ ساحفر موقعاً كاذباً ايها الرفيق الجنرال .

ولحق بنا الكابتين شيلوف مسرعاً .

عند الطريق ، في المكان الذي ادى بنا إليه الدرب الضيق ، كان

يقف حارس وهو شاب في العشرين من عمره له عينان رماديتان جديتان . وحيا الجنرال على طريقة الكابورال ، بصورة غير دقيقة تماماً ، ولكن بجهد وعناية .

ــ كيف الحال ايها الجندي ؟

فخجل الشاب . ذلك ان كلمة « الجندي » لم تكن تستعمل في النداء في جيشنا آنذاك . كان يقال : « المحارب » ، او « رجل الجيش الاحمر » . وربما كانت تلك اول مرة يدعى فيها بالجندي . ولما لاحظ بانفيلوف خجله قال :

ــ ان كلمة الجندي كلمة عظيمة . اننا جميعاً جنود . والآن قل لي كيف حالك ؟

ــ حسنة ايها الرفيق الجنرال .

فضحك الجنرال ضحكة ساخرة ونظر إلى تحت . وكان الطين اللين قد طرش احذية الحارس الثقيلة وغطى شريطها . وكانت آثار وحل الطريق ، الذي ازيل بعود الشجر او شظيته ، باقية على الطماقات الرطبة وما فوق . وكانت يده الممسكة بالبندقية قد ازرقت من صقيع الفجر .

فقال بانفيلوف ببطء : ــ حسنة ؟ قل لي اذن كيف كانت مسيرتكم ؟

ــ حسنة ايها الرفيق الجنرال .

فالتفت بانفيلوف إلى شيلوف وسأل :

ــ ايها الرفيق شيلوف ، كيف كانت المسيرة ؟

ــ رديئة ايها الرفيق الجنرال .

فابتسم بانفيلوف : ــ ايه . . . يظهر انك تكذب ايها الجندي . قل لي ، قل لي كيف احوالك ؟

فكرر الحارس بعناد :

ــ حسنة ايها الرفيق الجنرال .

فقال بانفيلوف : ـ كلا . هل الاحوال تكون حسنة في ايام الحرب؟ ما الحسن في مسيرك ليلاً تحت المطر في هذا الوحل ؟ هل نمت بعد المسيرة ؟ كلا . هل أكلت ؟ كلا . قف هنا مبتلاً في مهب الهواء أو احفر الارض ، ثم انطلق غداً او بعد غد للقتال حيث تراق الدماء . ما الحسن في كل هذا ؟

فابتسم الحارس في حيرة .

وواصل بانفيلوف :

ـ كلا ايها الاخ ، ان الاحوال لا تكون حسنة في الحرب . . . ولكن آباءنا واجدادنا كانوا قادرين على تحمل كل هذا ، كانوا قادرين على تذليل صعوبة الحياة في الحرب ، وكانوا يهزمون العدو . انت ايها الاخ لم تلتق بعد بالعدو في القتال . . . ولكن النضال ضد البرد والتعب والحرمان هو ايضاً قتال يتطلب الجرأة . وفي هذا القتال لا تحني الرأس ولا تثن . . . هذا حسن ايها الجندي ! ما اسمك ؟

ـ بولزونوف ايها الرفيق الجنرال . . . هذا ما أردته ايها الرفيق الجنرال . . .

ـ عائلة مشهورة . . . كان بولزونوف ميكانيكياً معروفاً . . . اردت . . . فلم لم تقل اذن ؟

ـ محقوق ايها الرفيق الجنرال . لم افكر في الامر .

ـ يجب على الجندي ان يفكر دائماً . يجب على الجندي ان يحارب بعقله . حسناً يا بولزونوف . . . ساذكرك . اريد ان اسمع عنك شيئاً . هل فهمت عني ؟

ـ فهمت ايها الرفيق الجنرال .

وسار بانفيلوف في الطريق متباطئاً ، مفكراً ، ناظراً إلى ما تحت قدميه . ثم توقف ونظر إلى شيلوف وإليّ .

وقال : ــ حياة الجندي قاسية . قاسية بلا شك . ويجب قول هذا للجندي دائماً وبصراحة . واذا كذب وجب تصليح قوله في الحال .

وسكت وراح يفكر .

ــ لا تشفق على الجندي قبل القتال ايها الرفيق شيلوف ، اما في القتال . . . فحافظ عليه ، حافظ على الجندي في القتال .

لم يكن هذا القول امراً . ولكنه كان اكثر من امر ، كان وصية . واخذتني القشعريرة . ولكن بانفيلوف كرر حالاً بلهجة اخرى ، بلهجة الرئيس وبصرامة :

ــ حافظوا عليه . . . فليس لدينا الآن هنا ، عند موسكو ، قوات اخرى او جنود آخرون . اذا فقدنا هؤلاء لم يبق لدينا ما نصد به الالمان .

وودعنا وامسك باللجام ثم امتطى السرج وانطلق بالفرس خبباً على طرف الطريق .

القتال في الطريق

١

نزولاً عند اشارة بانفيلوف ذهبت مع الكابتين شيلوف إلى منطقة التماس . فتفقدنا المكان واتفقنا على تنسيق الاعمال وعلى تبادل المساعدة كرفاق في القتال .

وتركت الكابتين وعدت ادراجي الى مكاني في مركز الرئاسة بمحاذاة الشاطئ . وكنت بعد تلك الليلة التي قضيتها بلا نوم غارقاً في بحر الافكار المرهقة ، وبعد ذلك الحديث مع بانفيلوف ، الذي اثار التوتر مرة اخرى في اعصابي ، كنت لا اشعر بالتعب ــ وهذا امر غريب ــ بل بخفة

مدهشة . ولم اكن جالساً على السرج بتثاقل ، كما كان الامر ليلاً ، ولم تعد افكاري تخنقني . وكان يخيل لي ان الغراء ايضاً كانت تعدو بي بخفة اكثر .

كان الهدوء مخيماً من حولي . ولم يكن يسمع قصف المدافع لا من قريب ولا من بعيد . وفي ذلك اليوم ، السابع عشر من تشرين الأول ، ساد الهدوء ايضاً ذلك المكان الواقع إلى يسارنا ، الذي اندفعت الدبابات الالمانية فيه بالامس ، والذي هدر فيه القتال بالامس .

اني لا ازال اذكر حتى الآن ذلك الهدوء ؛ لا ازال اذكر السماء العاتمة كالحجر الاسود ، والحقل اللزج براماته الصغيرة التي تبرق كبريق الرصاص ؛ لا ازال اذكر الارض التي قلبتها رفوش المحاربين وهم يحفرون الخنادق : ارض ضواحي موسكو الطينية الضاربة إلى الصفرة .

لاجل هذا الطين تلقيت منذ قليل ملاحظة من بانفيلوف : فقد كان يكشف عن اوكار النار ، فوجب في الحال ازالته ، وبعثرته في الحقل . ولكني ، في تلك اللحظة ، في ذلك الهدوء العصبي المثير ، كنت انظر إليه ، الى هذه الارض ، إلى الطبقات الغضارية ، — كنت انظر ، مثبتاً اياها في ذاكرتي الى الابد .

ومن وراء النهر كانت تتراءى طريق مبتلة سوداء تغيب في الغابة القريبة . وكانت هذه الطريق ، المعلمة باعمدة التلغراف ، تتسلق مرتفع الشاطئ ثم تتقاطع مع خط الكتيبة وتمر بقرب بيوت القرية المسودة من المطر ، وبقرب كنيسة واطئة مبنية بالطوب ، ثم تذهب إلى حيث يسعى العدو ، — الى طريق فولوكولامسك ، إلى موسكو .

كان كل ما قابلته في طريقي في ذلك الصباح ، قد نُقش نقشاً في نفسي .

فحتى الآن اذكر تلك النظرة المضطربة المتسائلة التي رأيتها

في لمحة بصر على وجه احدى النساء ، عندما كانت الغراء تسير خبباً خفيفاً عبر القرية القابعة على طول النهر . ولا ازال حتى الآن اذكر وجهاً ، انقضى عهد شبابه ، وانحفرت فيه التجاعيد ، وتركت فيه الشمس والهواء والعمل سمرة شديدة ، وتكاد تبهت فيه عينان زرقاوان فاتحتان ، ـ وجه فلاحة روسية ، وجه امرأة روسية . كانت كأنما تسأل : « الى اين ذاهب ؟ واية انباء تحمل ؟ وماذا سيحل بنا ؟ » كانت كأنما تتوسل : « قل ولو كلمة ، طمنّي » .

ولكن الفرس كانت قد قطعت شوطاً ، ورأيت جندياً يحمل قدراً ، وهو منحن على طفل قصير سمين . ونصب الجندي قامته فعرفت فيه جندي الرشاش بلوخا ذا الهيئة التي تدل على الطيبة والشيطنة . لقد كان طقم الرشاشات التابع له موجوداً على مقربة من ذلك المكان . واصبح بلوخا فوراً جدياً ، وحرك حاجبيه الشقراوين اللذين يكادان لا يلحظان ، وادى لي التحية مسرعاً . وعلى اثره ، وبنفس الرصانة والجد ، ادى الصبي التحية ايضاً .

كانت امثال هذه المناظر مألوفة . وكان يحدث ان تلحظ عينك شيئاً ثم تنسى . ولكن ذلك الصبي ، ذلك « الرجل الصغير » ، الواثق بالمحارب والجندي ، اثار في نفسي ، في ذلك الصباح ، الاضطراب والانقباض .

ولكن عيني كانتا قد لحظتا شيئاً آخر . كانت فتاة واقفة في شارع ضيق عند حديقة بيت مسيجة ، ممسكة بخشبات السياج ، وكانت تتكلم مع شخص وتضحك . واقترب منها باسماً ، من طرف المدخل ، القائد السياسي لسرية الرشاشات جال محمد بوزجانوف . وكانت العيون تتراقص لدى الاثنين ، ولدى الاثنين يتراقص الشباب . واضطرب بوزجانوف عندما رآني ووقف « تهيأ » ورفع يده بالتحية . والتفتت اليّ الفتاة ايضاً .

فتغيرت نظرتها في الحال ، واصبحت كنظرة تلك المرأة التي خلفتها ورائي ، قلقة متسائلة .

واثرت تلك النظرة في قلبي مرة اخرى .

٢

بعد ان اجتزت القرية اقتربت من فصيلة الملازم برودني . وكان المحاربون ، كما في الفصائل الاخرى ، يحفرون في الارض خنادق المواصلات . وكان احدهم يكسر الارض الصلبة بالفأس ، وكان عارياً حتى الزنار ، رغم الطقس البارد. وكانت كتفاه المكورتان الناضحتان عرقاً تلمعان وكأنما مدهونتان باللك . كان ذلك كورباتوف ، مساعد آمر الفصيلة .

قال : — توليت الامر بنفسي ايها الرفيق آمر الكتيبة . فالارض هنا مليئة بالحجارة وتجب المساعدة . ثم ان العمل يطرد البرد .

كان مفتول العضل ، قوياً ، يعرض صدره العاري لهواء تشرين الاول غير هيّاب . وكثيراً ما نظرت باعجاب واعتزاز ، إلى محاربي هذا الذي كان جميلاً جمالاً خاصاً بالجنود . ولكني قلت آنذاك :

— لماذا قلبت الارض بهذا المقدار ؟ ان هذا يرى من بعد ثلاثة كيلومترات . هيا انشر التربة بسرعة ، وسوّ هذا كله . اين الملازم ؟

كان الملازم بروديني ، السريع الخطو ، القصير القامة ، الحسن الهندام ، المشدود المعطف ، قد هرع إليّ . وقدم تقريره بلا تلعثم . فقلت له :

— لينه الجنود عملهم . ليموهوا كل شيء . افعل هذا ايها الرفيق الملازم . ثم اسرع إلي ، في رئاسة الكتيبة .

فاجاب بسرعة :

ـ حاضر ايها الرفيق آمر الكتيبة .

كان الملازم برودني احد آمريْن اخترتهما انا لتنفيذ المهمة التي عينها الجنرال بقلمه على الخارطة .

وفي مركز القيادة في الاستحكام ، قابلتني رئاستي الصغيرة المؤلفة من رئيس مركز الرئاسة الملا زم رحيموف ومرافقي الثاني الملازم دونسكيخ .

وابلغ رحيموف بانه ليس ثمة من جديد . فالعدو لا يزال ممسكاً عن التقدم وحتى عن ارسال جماعات الاستطلاع . وانشغلت مع رحيموف ببعض الامور العاجلة . وكان مخطط الموقع الكاذب قد رُسم عنده منذ عدة ايام . فامرت بحفر الموقع الكاذب في الحال ، وبوقف العمل الجاري في الخط الامامي ، ماعدا اعمال التمويه .

قال رحيموف : ـ حاضر ايها الرفيق آمر الكتيبة هل تسمح لي بالتنفيذ ؟

ـ نعم .

فنظر الى دونسكيخ .

ـ هل انت بحاجة الآن إلى الملازم دونسكيخ ايها الرفيق آمر الكتيبة .

ـ نعم .

فادى رحيموف التحية وذهب .

وظهر برودني بعد قليل ، لاهث الانفاس ، ملتهب الخدين : والقت عيناه السريعتان الذكيتان نظرة على الاستحكام ، ثم استقرتا عندي بفضول وانتظار . وكان دونسكيخ منهمكاً في كتابة شيء على المائدة .

ـ تعال يا دونسكيخ واحمل معك الخارطة !

لقد قررت ان اعينه ، اعني مرافقي الكومسومولي دونسكيخ ، آمراً للفصيلة المعززة الاخرى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣

اعرف ان الانسان الذي حضر القتال يبدو لك ، كما بدا لي من زمان ، نوعاً من انسان خارق ، غامض . ولكنهما ـ اعني برودني ودونسكيخ ـ لم يشتركا في اية معركة .

كانا كلاهما من الكومسومول ، وانهيا كلاهما المدرسة الثانوية ، ثم قضيا بعض الوقت في مدرسة عسكرية واصبحا ملازمين .

وعند تشكيل الفرقة عين دونسكيخ آمراً لسرية ، ولكنه عزل فيما بعد للين عريكته . فقد كان خجولاً ، يحمر وجهه بسهولة ، فلا يستطيع محاسبة المذنب . كانت الشدة والصرامة ، الضروريتان لكل آمر ، غريبتين على طبعه . ولكن بعد ان انتزعت منه السرية ، لزمه الحزن طريلاً . وكنت افهم سبب حزنه . فقد كان يحدث نفسه قائلاً : « ايه ، يا دونسكيخ الكومسومولي ، لم توضع فيك الثقة بقيادة سرية للقتال ! » وقد اهين منه الاباء والكبرياء .

وليومين خليا ، في الخامس عشر من تشرين الاول ، عندما جرى في السرايا انتقاء المحاربين للغارة الليلية ، جاء دونسكيخ إلي وقال مطأطئ الرأس : « اسمح لي انا ايضاً ان اذهب معهم ايها الرفيق آمر الكتيبة » . ولكن كان مرافقي الاول رئيس مركز الرئاسة رحيموف قد عُين لذلك الهجوم الليلي الجريء . فاجبت بايجاز : « كلا » . ولكن دونسكيخ لم يذهب في الحال . ربما كان يجب ان اقول : « انتظر يا دونسكيخ ، ستحارب عندما يقتضي الامر » . ولكني التزمت الصمت . والتزمه دونسكيخ ايضاً .

كان عندي متسع من الوقت لتفحص مرافقي : كان يعجبني فيه اباؤه وصمته ورصانته التي كان ينفذ بها الاوامر .

وها هو الآن مرة اخرى يقف امامي مقدماً الي الخارطة . ان الانسان يريد دائماً ان يرى وجه ونظرات الشخص الذي يوكل اليه بالمهمة . ولقد عشنا في استحكام واحد ، ولكني مع ذلك لم استطع ان امسك نفسي عن الامعان مرة اخرى في وجه مرافقي ، النقي جداً ، ذي البشرة الرقيقة الناعمة كبشرة الفتاة .

وكان برودني – يعجبني ايضاً . وكان عندي ، على الارجح ، افضل آمر بين آمري الفصائل . وكان حاد الذكاء ، كثير الحذق ، يستطيع قبل غيره الحصول على مختلف المواد اللازمة بقربه . وكانت الرفوش والفئوس والمناشير في فصيلته مسنونة جيداً على الدوام . وكانت فصيلته تسبق جاراتها في العمل ، وكان برودني يحب دائماً ، – ومن منا يخلو من اثم ؟ – ان الحظه . وكان هذا الشيطان الصغير ، في مثل هذه الحالات ، طيب السريرة جداً ، وكان يخيل اليك ان عينيه السوداوين تتوسلان قائلين : « امدحني ! »

وفي احدى المرات حدث ما اقنعني ان برودني ليس بالجبان . كانت حفر القناصة قد انتهت عنده قبل الفصائل الاخرى . وعندما القيت نظرة عليها خيل إلي ان العوارض الامامية ضعيفة . فسألت برودني : « هل هذا في رأيك جاهز ؟ » – « نعم ايها الرفيق آمر الكتيبة » . – « وهل ستضع هنا اناساً ؟ » – « نعم ايها الرفيق آمر الكتيبة . » فأخذت من احد المحاربين بندقية وقلت : « انزل لتحت يا برودني ! » . ففهم عني وشحب لون وجهه . قلت : « اردت ان تضع الناس هنا تحت الرصاص . فانزل بنفسك . وساطلق النار » . فتردد لحظة ودار على عقبيه وقفز إلى خندق الدخول . فهتفت : « قف ! ابتعد جانباً ! » فابتعد . واطلقت النار . فلم تمر الرصاصة ولم تخترق العوارض . وكان يحق لبرودني ان يفخر . فكانت نظرته الظافرة وكأنما تقول : « هل رأيت ؟ امدحني اذن ! » .

ــ نعم ، الهجوم من الكمين . يجب قتل الهتلريين بالنار بقدر الامكان ، ثم الانتظار حتى يفتح العدو قواته ويجمعها ويدخل في العراك ويعين الجنود لتطويقنا . وعندئذ يجب التملص والخروج الى الطريق مرة اخرى في مكان آخر ، ومبادرة العدو ، والوقوف في طريقه من جديد .

رسمت على الخارطة الخط الحلزوني الذي حدده بانفيلوف .

ــ بهذا نجبر العدو على فتح القوات قبل الاوان ، وعلى الهجوم في مكان خال ، ونخدعه . ثم بعد ان يتحرك مرة اخرى ، يجب الهجوم مرة ثانية .

وقال برودني من جديد : ــ الهجوم ؟

وعادت هيئته تدل على الذكاء ، وبرقت عيناه . وابتسم دونسكيخ صامتاً ، وقد ادرك المعنى هو الآخر .

ان كلمة ــ « الهجوم » التي اعطانيها بانفيلوف كانت بمثابة السحر . فقد جعلت المهمة واضحة على الفور ، ووصلت الى اعماق النفس ، وجعلت الناس غير الناس ، واشاعت الجرأة والبسالة . وفكرت بان هذا ليس خطة وحسب ، بل شيء اعمق من الخطة .

تكلمنا عن التفاصيل . وكان برودني مرهف الحس ، فان رأسه اصبح يعمل بعد ان تلقى الدفعة . واصبح يرى كيف يمكن الاختباء وكيف يمكن التمويه .

قلت :

ــ نعم ، يجب على المحاربين ان يختبئوا ويموهوا على العدو . واقول هذا خصوصاً لك يا دونسكيخ . في هذا يا دونسكيخ لا مجال للشفقة .

نظر إلي دونسكيخ صامتاً . فاعدت عليه كلمات بانفيلوف :

ومنذ ذلك الحين ، منذ تلك الدورة العسكرية الدقيقة ، احببت هذا الملازم الاسمر السريع الحركة .

قلت : — اجلس يا برودني ، اجلس يا دونسكيخ .

٤

بسط دونسكيخ الخارطة . وكنت قد اشرت ، في فكري ، على اماكن الكمائن ، ولكني تحققت من ذلك مرة اخرى حسب الخارطة . ثم شرحت المهمة : وهي أن يتخفوا عند الطرقات ، ويتمسكوا بمواقعهم ويبقوا فيها ، ولا يعطوا لطوابير الآليات والمدفعية الالمانية مجالاً للمرور في الطرقات ، وان يتركوا جماعات الاستطلاع الصغيرة تمر بلا اطلاق نار ، ويقابلوا الطابور بنار البنادق والرشاشات . وبعد أن ينهال الكمين على العدو بوابل من النار غير منتظر ، يستطيع الانسحاب بسهولة .

قلت : ولكن مهمتكما ايها الرفيقان ليست هذه . ان الامر بالعكس ، اذ يجب الانتظار إلى ان يفيق العدو من ذهوله ويلتحم في القتال . حافظوا على مواقعكم ! حافظوا على الطريق . اجبروا العدو على ان يفتح تشكيلات القتال ضدكم . هذا اولاً . مفهوم ؟

فاجاب برودني بلهجة غير حازمة : — مفهوم .

كانت هيئته ، وهي في العادة كثيرة الحركة ، قد فقدت الآن حيويتها ، واصبحت متمركزة متجمعة . اما دونسكيخ فلم يجب .

فسألت : مفهوم يا دونسكيخ ؟

— مفهوم ، ايها الرفيق آمر الكتيبة . يجب الوقوف حتى الموت . . .

— كلا يا دونسكيخ ، لا يجب الوقوف بل العمل . تجب المناورة . يجب الهجوم .

فسأل برودني — الهجوم ؟

— الشفقة هنا تعني عدم الشفقة . مفهوم ؟ فاجاب دونسكيخ بحزم :
— نعم ايها الرفيق آمر الكتيبة .

لم تعد عيناه الزرقاوان كما كانتا لنصف ساعة خلا ، بل اعتمتا واصبحتا اكثر صرامة .

لم نتناول في حديثنا هذا لا الوطن ولا موسكو ، ولكن هذا كان يقف وراء الكلمات ، كان يعيش في جوانح كل منا .

٥

ذهب الملازمان يعدان الفصيلتين للانطلاق . أما انا فرحت افكر من جديد . هل يدهشك هذا ؟ فالحل وجد ، والامر أُعطي وشرح ، وتفهمه المنفذون ، — فماذا بقي ؟

بقي القتال .

اذا ماكتبت عن الحرب فلا تغفل من فضلك شيئاً صغيراً ، وهو ان في الحرب عدواً . ومهما بدا الامر غريباً فان هذا العدو لا يفعل دائماً ما تريده انت .

كنت اشعر ان حرب العقول قد كسبناها نحن اليوم ، كسبها بانفيلوف . ولكن ماذا بعد ذلك ؟ هل يضع الالمان انفسهم ، كالخرفان ، في متناول الرصاص في المرة الاولى ، والثانية ، والثالثة ؟ ماذا سيفعل العدو بعد ان يشرفنا القائد الالماني ، السيد « الجرماني الاعظم » المتصلف ، فيعمل التفكير ؟

ليست في الحرب نية واحدة ، بل نيتان ، ولا امر واحد ، بل امران . وفي الحرب تبقى احدى النيتين واحد الامرين بدون تنفيذ . فلماذا ؟

قل لي : لماذا ؟

٦

ما ان حل الغسق حتى كانت الفصائل جاهزة للعمل .

واصطفت مفرزة الملازم دونسكيخ عند الجسر الذي يعبر نهر روزا . وجئت إلى المحاربين راكباً فرسي . وكان عددهم غير كبير — اربعة وخمسين شخصاً ، وكلهم يحملون الاحمال على اكتافهم . وكان لدى اربعة منهم رشاشات يدوية ، اما الآخرون فحملوا معهم في حقائب حرائجهم علباً من الزنك ملحومة وفيها الخرطوش للرشاشات والبنادق . وحمل رجال التلفون على ظهورهم لفائف من الاسلاك . وانطلق مع المحاربين اثنان من رجال الصحة .

وكان يقف في الجناح الايمن حاملاً كغيره البندقية ، السرجاد فولكوف مساعد آمر الفصيلة ، الذي كان في ايام السلام برادآً والذي هو في الخدمة دائم التقطيب والعبوس . وكان ليلة اول امس في عداد المئة الذين ذهبوا إلى سيريدا . فكان ، كما قيل لي ، يقتل وهو صامت .

ولقد جمعت عن قصد بين الاثنين : بين الشاب دونسكيخ والاربعيني فولكوف الذي كان يُعرف عنه انه سيقتل اخاه اذا رآه يهرب امام الالمان .

وقد عرفت الجميع بوجوههم في الغسق . بعضهم سيرمي الالمان برصاص بندقيته لاول مرة ، والكثيرون منهم سترتجف قلوبهم وتتجمد غداً لدى مواجهة أول طلق .

ماذا اقول في توديعكم ايها المحاربون ؟ لقد قلت لكم من قبل كل ما استطيع ان اقوله ، واعطيتكم كل ما استطيع ان اعطيه . فهيا اذن الى الوداع . . .

— تهيأ ! نصف دورة الى اليسار . . . در ! عَمّــِر . . . تنكب ! على شجرة الشوح الوحيدة ، في رأس قمتها ، صوب سلاحك . . . فصيلة . . .

واصدرت مغاليق خمسين بندقية مشحمة طرطقة ناعمة منذرة . وارتفعت اعقاب البنادق إلى الاكتاف . وكان يتراءى على تلة عند الشاطئ زول اسود بيّن المعالم لشجرة شوح ضخمة عالية مرتسمة على صفحة السماء السوداء .

وهتفت :

ــ نار !

وهدر صوت الطلق . ولمع لحظة خط من الوهج المحمار ، اضاء الحراب وفوهات البنادق . وتصاعد صوت تكسر الاغصان المتساقطة على الثلج . ومرة اخرى طرطقت المغاليق ، ومرة اخرى جمدت اعقاب البنادق على الاكتاف . ولم يعد سواد اوراق الشجرة كثيفاً كالسابق ، بل ظهرت فيه ثغرات غير واضحة حيث سقطت الاغصان .

ــ نار !

ومن جديد توهجت الالسنة الحمراء ، وهدر صوت الطلق وتساقطت الاغصان الثقيلة المنهدلة .

ــ نار !

وبعد الطلق الثالث انحنت قمة الشجرة وكأنما انهالت عليها الفأس ، ثم اضطربت واستقامت ، ثم عادت تنحني من جديد مشكلة زاوية منفرجة متساقطة ببطء . وبعد ان تعلقت في الهواء عدة ثوان ، انهارت على الاغصان السفلية وسقطت على الارض بعد ان كسرت منها ما كسرت . وبدلاً من القمة الحادة اسودت في السماء صورة مخروط مقطوع الرأس مسنن الاضلاع .

وبعد ان امرت باسبال السلاح قلت :

ــ اطلقتم النار جيداً !

فرد المحاربون ، كما اطلقوا النار ، بصوت واحد :

ــ نخدم الاتحاد السوفييتي !

ــ هكذا ارموا الالمان عندما تؤمرون باطلاق النار ! ليتساقط الموت عليهم كزخ المطر لا كالرذاذ الخفيف ! ثقوا ايها الرفاق ببندقيتكم ! ايها الملازم دونسكيخ تستطيع الانطلاق .

وشيعت فصيلة برودني من النقطة الاخرى .

٧

كنت اترقب ان تشتبك فصيلة دونسكيخ او فصيلة برودني في اليوم التالي ، اي في الثامن عشر من شهر تشرين الاول . ولكن الالمان لم يتقدموا في قطاعنا لا في الثامن عشر ولا في التاسع عشر .

وكمنت الفصيلتان عند أطراف الغابة ، بعد ان اقامت الاستحكامات استعداداً للقتال الطويل الامد .

وكان على قمم اشجار الصنوبر يجلس المراقبون وهم ينظرون إلى ناحية الالمان . ولكن الطريقين كليهما كانا خاليين . وكان دونسكيخ وبرودني في الساعات المعينة ينبئان بالتلفون عدة مرات في اليوم : « ان العدو لا يظهر » .

في تلك الايام لم يشعر القطاع الاوسط من منطقة فولوكولامسك المحصنة ــ لا نحن ولا جبهة الكتائب المجاورة ــ باي ضغط من جانب الالمان . حتى جماعات الاستطلاع لم يرسلوها إلى هناك .

ولكن صوت المدافع المستمر كان يترامى الينا من جانب ، مما وراء الطرف الايسر من قطاع الكتيبة ، مما وراء الغابات ، حيث يجري نهر روزا . هناك كانت مدفعيتنا المضادة للدبابات تحارب . والى هناك ، إلى جناح الفرقة الايسر ، اخذ بانفيلوف جميع الرشاشات المضادة للطائرات ، بما فيها تلك التي وضعت تحت قيادة كتيبتي . كما ارسل

الى هناك سرية من الكتيبة الواقعة على يميننا ، وأمر بتوزيع ما بقي لنا من قوات على القطاع الذي خلا . وكنا نتتبع تحولات خط القتال بلمعان النار في الليل وبسماع الاصوات في النهار .. ولم تكن هذه الاصوات تقترب ، بل بالعكس كانت كأنما تبتعد في بعض الاحيان ، ولكنها كانت تبتعد نحو اعماق جبهتنا متغلغلة ابعد فابعد وراء ظهرنا .

كنت اعرف الوضع بخطوطه العامة . كنت اعرف ان محور الضربة الالمانية ظل كما كان عليه في السادس عشر من الشهر . وكان الالمان يجمعون قواتهم ويتقدمون . وقد خرجوا بفرقتين او ثلاث ، بما فيها فرقة للدبابات ، إلى طريق موجايسك – فولوكولامسك ، اي إلى الطريق الذي يسير محاذياً خط الجبهة من ورائنا . وقد خرجوا إلى هذا الطريق وداروا نحو فولوكولامسك .

وكانت كتيبتنا تحمي القوات المتقاتلة في ذلك الطريق ، من الضرب في الجناح او في المؤخرة . ولكن الالمان لم يقتربوا منا . وظلت فيما بيننا وبين العدو ، كما في السابق ، ارض خالية عرضها اثنا عشر او خمسة عشر كيلومترا .

٨

في العشرين من شهر تشرين الاول تلفن دونسكيخ في ساعة غير معينة للمخابرة .

– ايها الرفيق آمر الكتيبة ، ان سيارة شحن تسير . انهم المشاة الالمان .

– سيارة واحدة ؟

– نعم .

– دعها تمر .

وبعد عدة دقائق دعاني دونسكيخ مرة اخرى .

ــ ايها الرفيق آمر الكتيبة ، ظهر طابور من السيارات ، وعليها المشاة ايضاً .

ــ كم عددها ؟

ــ لسنا نرى آخرها . نعد حتى الآن عشراً . عفواً ، أُبلغت الآن بان هناك اثنتين اخريين .

قلت : ــ ولكن يا دونسكيخ . . .

فاتم دونسكيخ الجملة قائلاً : ــ لا تفقد رباطة جأشك ؟ وسمعت في السماعة كيف تنهد : ــ أليس كذلك ايها الرفيق آمر الكتيبة ؟

ــ نعم ، كذلك .

ــ حاضر ايها الرفيق آمر الكتيبة . لن ندعها تمر ايها الرفيق آمر الكتيبة . . .

وذهب دونسكيخ . وبقيت انا مصغياً الى السماعة . ففي الطرف الآخر من السلك الذي كان مخفياً تحت الارض ، كان يوجد عامل الاتصال الذي ابلغني بما يجري . واشتدت حاسة السمع . واصبحت لا اتبين الكلمات وحسب ، بل فروقات اللهجة التي تقال فيها . واصبحت في استحكام الرئاسة ، على بعد ثمانية كيلومترات من الفصيلة ، وكأنما ارى ما رآه عامل الاتصال في خندقه .

كانت سيارات الشحن المكشوفة الطويلة تتحرك ببطء في الطريق الذي عاد الصقيع فاصابه في تلك الايام ، فصلب وتغطى قليلاً بثلج تشرين الاول الباكر . وكان الجنود الالمان يجلسون على مقاعد صفت على طرفي كل سيارة وفي وسط صندوقها ، وفي ايديهم البنادق والبنادق الرشاشة . ان ذلك يبدو الآن امراً لا يحتمل التصديق ، ولكن الالمان ، آنذاك ، في تشرين الاول سنة الف وتسعمائة واحدى واربعين ، كانوا

عند موسكو يقومون احياناً بمسيرهم الهجومي هكذا ، بلا استطلاع ولا دوريات ولا حراسة جانبية ، في اماكن مريحة ، على سيارات الشحن ، واثقين بانهم يستطيعون طرد الروس اذا ما قابلوهم .

أما الروس فكانوا مستلقين عند طرف الغابة ، لا يفلتون من انظارهم هؤلاء الناس ذوي المعاطف الخضراء والبيريهات الخضراء ، الذين يركبون عرباتهم على ارضنا كالاسياد ، ـ كان الروس مستلقين ، متخفين ، واضعين اصابعهم على زنادات بنادقهم ، منتظرين الامر باطلاق الرصاص .

خيل إلي اني سمعت طقطقة في السماعة . فصرخت :

ـ ماذا هناك ؟

وسُمعت الطقطقة مرة اخرى .

فاعدت : ـ ماذا هناك ؟

ـ نطلق الرصاص ايها الرفيق آمر الكتيبة . وانا ايضاً ارمي ايها الرفيق آمر الكتيبة .

ـ بدفعات ؟

ـ نعم ، حسب امرك ايها الرفيق آمر الكتيبة .

ـ والالمان ؟

فامتدت فترة صمت طويلة لا صبر فيها .

ثم هتف عامل التلفون : ـ يهربون ! والله انهم يهربون . . .

فاستولت علي موجة طاغية من الغبطة . الالمان يهربون ! واذن هكذا يتم ذلك ، هكذا يهربون في الحرب ! واذن فان عندنا قوة تصرع جسماً وروحاً ، قوة اجبرت الالمان على ان ينسوا في لمح البصر نظامهم ، وكبرياءهم وأنهم العرق « الاعلى » ، وفاتحو العالم ، والجيش الذي لا يقهر . آه ، من لي الآن بخيالة ! ليتنا نطير طيراً على متن الخيل فنلحق بهم ونعمل فيهم الضرب ، قبل ان يعودوا إلى رشدهم ، قبل ان ينتهوا من الهرب .

لقد انتشيت لا بخمرة النصر وحسب ، بل ايضاً بسر النصر الذي انكشف لعقلي . ان لدينا القوة ! وان اسمها . . . كلا ، اني في تلك اللحظة لم استطع بعد ان اسميها باسمها .

٩

بعد قليل من الوقت ابلغني دونسكيخ بالتلفون ان الكمين قتل في الدقائق الاولى زهاء مئة هتلري ، وان ثلاثة او اربعة اضعاف هذا العدد ظل سليماً . وبعد ان انسحب الالمان اعادوا تنظيمهم ، وتفرقوا وانبطحوا وبدأوا يطلقون النار .

قلت : — حسن . هذا ما كان يجب اثباته . العب معهم . وليقفوا في مكانهم . اخْفِ الناس . ولكن انظر إلى ما حولك .

تتبعت القتال حسبما سمعته في التلفون . اطلق الالمان نيرانهم اولاً من بنادقهم الرشاشة وبنادقهم ورشاشاتهم ثم راحوا يطلقون نيران مدافع الهاون على الفصيلة . وكان ذلك آنذاك احد جوانب التفوق لدى الجيش الهتلري ، واعني به كثرة مدافع الهاون . فكان المشاة الآليون يحملون معهم في سيارات الشحن مدافع الهاون المصفوفة كالحطب .

وذهب محاربونا إلى الاستحكامات . واقتربت جماعة الاستطلاع الالمانية من الغابة بعد ساعتين من اطلاق النار ، فقوبلت بالنار . وعاشت الفصيلة ، وظلت محتفظة بالطريق .

ابلغت آمري السرايا بالتلفون انباء القتال وامرت بايصال هذه الانباء في الحال إلى المحاربين حتى يعرفوا كيف يقتل رفاقهم الالمان .

فاجاب آمر السرية الثانية سيفريوكوف ، الملازم الاربعيني الذي لا يستعجل ابداً :

— ان المحاربين يعرفون ايها الرفيق آمر الكتيبة .

ـ من اين ؟

ـ هناك ، ايها الرفيق آمر الكتيبة ، تلفون لاسلكي خاص بالجنود .

كنت اشعر ان سيفريوكوف يتكلم وهو يبتسم .

ـ ما هذا التلفون ؟

ـ جاء الجرحى ايها الرفيق آمر الكتيبة . وهم يتحدثون مقاطعين بعضهم بعضاً . اني لاعجب ايها الرفيق آمر الكتيبة . . .

فكر سيفريوكوف قبل ان يقول فكرته .

وسمعته مبتسماً ، مهتماً يقول :

ـ اني لاعجب ايها الرفيق آمر الكتيبة . . . الناس جرحى ، اي انهم يتألمون ، ومع ذلك فانهم مرحون . انهم يقولون : « لقد كلنا لهم » . وهل تعرف ؟ ان الالم كأنما يقل لهذا . . . يبدو ايها الرفيق آمر الكتيبة انه حتى الجرحى يستطيعون ان يرفعوا المعنويات .

ـ كم عدد الجرحى القادمين ؟

ـ اربعة . . . انهم وان كانوا مضمدين ، إلا انه يجب ارسالهم في الحال إلى المركز الطبي . ولكن لا يمكن ارسالهم ، إنهم يتحدثون ويتحدثون عن كيفية القتال الذي خاضوه .

كانت الفرحة التي تظهر في صوته ، ترتعش وتنبض فيّ انا ايضاً . ووضعت السماعة .

ونهض رئيس مركز رئاستي ، قليل الكلام رحيموف ، النحيف ، سريع البديهة .

ـ اسمح لي ايها الرفيق آمر الكتيبة ان اذهب الى الجرحى وادقق في الوضع .

ـ نعم ، اذهب .

١٠

بعد قليل من الوقت ، دعاني دونسكيخ إلى التلفون مرة اخرى ، واخبرني بان جماعتين تتألف كل واحدة منهما من حوالي اربعين شخصاً ، قد انفصلتا من جناحي الطابور الالماني ، معتزمتين كما هو واضح ، اللف حول الفصيلة وتطويقها . وكان دونسكيخ يتكلم مضطرباً . وكان اضطرابه مفهوماً عندي ، فهو خائف ، ويريد ان يسأل : ألم يحن الوقت للانسحاب ، ولكنه وهو الخجول الابي ، لم يسأل .

قلت : – لا بأس يادونسكيخ . عيّن المحاربين حتى يقتفوا الالمان . اذا حانت الفرصة – فليطلقوا النار . لا تخف . انهم هم الذين يخافونك .

كان بلاغ دونسكيخ التالي هكذا :

– ايها الرفيق آمر الكتيبة ، انهم يطلقون النار من ثلاث جهات . انهم يصرخون : « ايها الروس ! استسلموا ! » .

– وانت ؟

– نحن نطلق النار ايضاً .

– حسن . اخـّرهم يا دونسكيخ .

في هذه المرة نطق :

– ايها الرفيق آمر الكتيبة . يستطيعون تطويقنا . . .

– لا بأس يا دونسكيخ . المهم ان تصمدوا حتى المساء . وعندئذ ستخرجون تحت جنح الظلام . اثبت ايها الحبيب !

لقد صدرت مني هذه الكلمة دون ان اقصد . لقد كنت اتكلم معه ، مع دونسكيخ الازرق العينين ، لا بالخدمة ، بل بالقلب .

قد تسأل لماذا اضطرب دونسكيخ ؟ قد يبدو لك انه لم يكن باسلاً ، انه كان ضعيف الاعصاب . ولكن لا تنس انه لم يكن وراء مكتب ولا وراء آلة سلمية ، ولا في حقل التدريب . وقد طوقه الموت . فسمع صفيره ورآه ــ فكان الالمان يطلقون رصاصاً يترك وراءه خطاً من نار . كان الموت يتطاير من جميع الجهات بالسنة نارية حمراء وزرقاء . كان يمر ثم يمر بقربه يكاد يمسه فيخفق القلب بالرغم من العقل وبالرغم من الارادة . انه لم يكن آلة ولا جذع شجرة لا احساس فيه ، ولم يكن مقدوداً من حديد . لقد كان يعاني اول قتال له . كان يعيش لحظة من لحظات حياة انسان حرجة لم يسبق لها مثيل .

لقد كنت ، على بعد ثمانية كيلومترات ، اشعر بخفقان قلبه . وكانت القوة الروحية التي حاولت انا ، بدافع من الغريزة اكثر من الوعي ، ان ادعمها فيه ، كانت تنتقل منه ، ضابط القتال القريب ، الى المحاربين الآخرين .

وفجأة ، نعم فجأة ، وبدون انتظار اطلاقاً ، ابلغني دونسكيخ مضطرباً بان الالمان ابتعدوا . فلم اصدق ذلك في بادئ الامر . ولكن نافذة استحكام الرئاسة كانت قد اصبحت معتمة ، واذن فالنهار قد ولى . واكد دونسكيخ في الحال : نعم ، لقد اطلقوا الرصاص ، وصرخوا ثم ابتعدوا آخذين معهم ، تحت جنح العتمة ، جثث قتلاهم .

كانت تلك معركة صغيرة . ولكن السعادة طغت علي . فاردت ان اضحك ، اردت ان امتطي صهوة فرسي واندفع إلى هناك ، الى حيث دونسكيخ والمحاربون ، الى حيث ابطالنا البواسل .

وفي الليل غيرت فصيلة الملازم دونسكيخ الموقع .

«انك سلمت موسكو!»

١

هدرت المدافع من جديد في الصباح التالي عندنا من وراء ظهورنا ، في المؤخرة .

ومن امام جبهة الكتيبة كان كل شيء هادئاً . وكان دونسكيخ وبرودني يبلغان في الساعات المعينة بأن الطرقات خالية . وهناك ، من بعيد امامنا ، كان المراقبون كما في الامس ينظرون الى الالمان من اعالي الاشجار .

كنت انتظر رنة التلفون في غير الساعة المحددة . ولقد رن ، وقال عامل التلفون المناوب :

ــ ايها الرفيق آمر الكتيبة ، من هناك . . .

كان عامل التلفون يحيا حياة واحدة معنا . ولم تكن ثمة حاجة إلى الايضاح : فعرفت من اين .

ــ اني اسمع .

ــ ايها الرفيق آمر الكتيبة . هذه هي الحكاية : الفرسان الالمان . . . قادمون في الطريق .

عرفت لهجة برودني السريعة . لقد جاء دوره على ما يبدو . وكانت فصيلة برودني ، كما تعرف ، كامنة على الطريق الآخر .

ــ كم عددهم ؟

ــ زهاء عشرين رجلاً .

ــ دعهم يمرون .

وعلى اعقاب الفرسان ظهرت جماعة من راكبي الدراجات النارية .

لقد كان العدو اليوم اكثر حذراً : فارسل جماعات الحرس الامامية . ولكن المحاربين كانوا مختبئين بمهارة في الغابة الصغيرة .

وكانت الغابة القريبة للطريق الذي تكمن فيها فصيلة برودني للالمان ، غير كبيرة . ومع ذلك فعلى مسافة غير بعيدة ، على مسافة نصف كيلومتر تقريباً ، كانت توجد اجمة اخرى يسهل الانتقال اليها في اللحظة المناسبة ، وذلك للتملص من العدو والعودة من ثم الى الطريق .

بعد ساعة مر الالمان على صهوات خيولهم ودراجاتهم النارية عائدين ادراجهم : لقد كانت الطريق مفتوحة امامهم حتى النهر .

وبعد قليل ابلغ برودني ان طابوراً من سيارات الشحن المحملة بالمشاة قد ظهر . لقد اعتبر الالمان ان الطريق قد استطلع ، فتقدموا كما في الامس ، في السيارات ، بدون حراسة جانبية .

سألت : ـــ هل انت مستعد ؟

ـــ نعم ايها الرفيق آمر الكتيبة . نحن مستعدون .

ـــ دعهم يقتربون ثم اهجم واعمل بهدوء .

وسمع في السماعة صوت جدي حازم :

ـــ حاضر ايها الرفيق آمر الكتيبة .

وفي هذه المرة ايضاً ابلغني عامل الاتصال بما يجري . وتكرر على هذه الطريق ما حدث بالامس . وابل من الرصاص من الكمين . وابل آخر . . . ثالث . . . وكذلك قفز الالمان من سياراتهم وهربوا ناسين على الفور كل ما تعلموه : ناسين الاوامر والنظام ، ومتحولين إلى قطيع مذعور .

كنت اسأل بالحاح عامل التلفون الذي كان يتكلم من الغابة البعيدة عن مجرى المعركة :

هل يهربون ؟ أم انبطحوا ، اجب بدقة !

– يهربون ايها الرفيق آمر الكتيبة. . . وبسرعة ! لقد اريناهم الآن مرة اخرى ، ايها الرفيق آمر الكتيبة ، نجوم الظهر .

كنت حتى الامس افكر في هذا . كيف يكون مسلك الالمان اذا وقعوا تحت وابل من الرصاص مفاجئ ؟ كنت اجيب نفسي بانهم يجب عليهم ان ينبطحوا فوراً ويلصقوا بالارض ويردوا بنار حامية . وكان يخيل لي ان هذا ما يجب ان يفعله كل شخص ، بدافع من غريزة حب البقاء ، دون ان ينتظر اي امر بذلك . ولكن قوة شلت فيهم عمل الفكر ، وانتزعت منهم كل محاكمة عقلية ، وجعلت من العدو مخلوقات غريبة سهلة الوقوع في براثن الموت .

في تلك الايام في معاركنا الاولى مع العدو ، ادركت بعقلي هذه القوة وعرفت كنهها . لا تستعجل . سيحين الحين ونسميها باسمها ونتحدث عنها .

٢

انقطع الاتصال منذ بداية المعركة ، مع فصيلة برودني .

أما عمال الاتصال الذين ارسلوا للتحقق من الخط ، فقد عادوا بعد ان اصطدموا بالالمان . فرحت اسأل عمال الاتصال بشدة غير فاهم ما جرى . فتبين ان العدو اطلق النار عليهم من القرية الواقعة على الطريق . ولم يكونوا يعرفون كم عدد الالمان هناك وهل وصلت الى هناك السيارات .

شيء غريب . شيء مقلق . اين اذن فصيلتنا ؟ ماذا جرى لفصيلتنا ؟ هل طوقت ؟ هل ان برودني ، وهو الذكي الشاطر ، افلت من يده الفرصة عندما كان يجب التملص .

ما العمل ؟ اني لا ارمي رجالي في التهلكة ؟ ولكن كيف اساعدهم ؟ وبم ؟ وحدثتني نفسي ، حدثتني والحت ، بان آخذ فصيلة واتسلل خفية

لانقذ رجالي . ولكني لا املك الحق في ذلك . فعندي كتيبة . ولدي ثمانية كيلومترات من الجبهة ، واني ملزم بان اكون هنا .

كنت احاول على مضض ، ان افكر بهدوء . لنفترض ان الفصيلة طوقت . ولكن هل يستسلم محاربيّ الخمسون ، ابنائي الخمسون ؟ هل يرفعون ايديهم ؟ كلا ، انهم سيحاربون في سبيل الحياة . لقد كنت مؤمناً بهذا ، مؤمناً بمحاربي ، وبالآمر . ان لديهم بنادق واربعة رشاشات يدوية وكثيراً من الخرطوش . فتجرأ ايها العدو وحاول الاقتراب !

ارسلت نجدة من نصف فصيلة من المستطلعين المشاة . نصف فصيلة ! بهذه القوات كنا آنذاك نحارب . وامرت الآمر . « اقتربوا خفية وتسللوا بامعان فكر ، واعملوا بعقل ، بتأنٍ ، وانتظروا الظلام واتصلوا تحت جنح الظلام ببرودني وساعدوه » .

وامرت بان يقول لبرودني أن يعود بفصيلته ، بعد ان يخترق الطوق ، الى الطريق كما امرت بذلك ، وان يقابل الالمان بالنار غداً ، من كمين آخر .

٣

صرفت الآمر وخرجت من الاستحكام ، وكانت السماء من فوقي داكنة قريبة الظل . وكان قد بقي حتى حلول الغسق ساعتان ولم اكن اشاء رؤية احد والتحدث مع احد . لم اكن افكر إلا في الفصيلة المعزولة والمحاربين الخمسين الذين يكافحون في الغابة القريبة من الطريق .

سرت متباطئا نحو النهر. وكان المحاربون في الحقل يحفرون التربة المتجمدة ويجرون الاشجار وينشئون موقعاً كاذباً . فلم اشأ الاقتراب منهم . وكان يبدو من بعيد انهم يحفرون بتقاعس وتماهل . . . اسرعوا ! ان رجالنا ، ان المحاربين الخمسين ، صامدون يحاربون وراء

النهر ، كاسبين لنا هذه الساعات ، وهذه الدقائق ، مسمرين العدو في مكانه . وكنت اشعر اني اذا اقتربت فسينفجر توتري وساصرخ في المذنب والبريء .

وكانت اذني تحاول ان تلتقط مما وراء النهر اصوات الهاونات الالمانية . كلا ، ان الهدوء سائد هناك . ماذا لو كان كل شيء قد انتهى هناك ؟ ولن ارى ابداً برودني وكورباتوف والآخرين .

فيما بعد ، وقد اخشوشنت في الحرب ، لم يعد قلبي يتعذب ويتألم كما في هذه المرة .

وعندما عدت الى الاستحكام انتظرت جماعة الاستطلاع وظللت اترقب الأنباء .

وهتف التلفوني — ايها الرفيق آمر الكتيبة ، يطلبونك .

كان الطالب آمر السرية الثانية الملازم سيفريوكوف ، الذي ابلغ :

— ايها الرفيق آمر الكتيبة ! ان فصيلة الملازم برودني تملصت من التطويق .

٤

سألت بسرعة :

— ومن اين لك معرفة هذا ؟

— كيف من اين ؟ انهم ايها الرفيق آمر الكتيبة هنا .

— اين ؟

— اني اقدم تقريري ، — كان سيفريوكوف يتكلم بالتأني المعهود فيه ، الذي كان احياناً بمثابة تعذيب لي ، — اني اقدم تقريري ايها الرفيق آمر الكتيبة ، انهم هنا . خرجوا الى مواقع السرية .

— من ؟

لم اكن قد فهمت كل شيء بعد ، او بالاحرى فهمت ولكن . . .
ولكن ربما سيتضح كل شيء الآن ، في الحال ، خلاف ما فهمت .
اجاب سيفريوكوف :
ــ الملازم برودني . . . والمحاربون . اعني الذين عادوا . لقد قتل ستة اشخاص ، ايها الرفيق آمر الكتيبة .
ــ والالمان ؟ والطريق ؟
سبق لساني بالسؤال ، وان يكن لا فائدة من السؤال . فقد اتضح الامر . . . وجاء جواب سيفريوكوف بان الطريق استولى عليها العدو فسكت . وسأل سيفريوكوف :
ــ ايها الرفيق آمر الكتيبة ، هل تسمع ؟
ــ نعم .
ــ هل ادعو برودني الى التلفون ايها الرفيق آمر الكتيبة ؟
ــ لا لزوم لذلك .
ــ هل يأتي اليك ؟
ــ لا لزوم لذلك .
ــ ماذا اذن ؟
ــ انتظروني .
ووضعت السماعة ولم انهض على الفور .

٥

هو ذا اذن اخوف ما اخاف .
لم اكن اخشى فقدان الطريق . فقد كنت مستعداً لذلك .
وكان يجب ، حسب خطتنا ، ان يحدث هذا غداً او بعد غد .

ولكن ملازمي وفصيلتي ومحاربيّ انسحبوا اليوم وتركوا الطريق بلا امر بذلك . اي انهم هربوا !

وصلت بعد عدة دقائق ، على صهوة فرسي ، إلى نقطة قيادة السرية الثانية . من مدة غير بعيدة ، من ثلاثة ايام ، ودعت هنا المحاربين في العتمة التي اذكرها . والآن ايضاً تسود العتمة . ولكن آنذاك ، من ثلاثة ايام ، استقبلني صف من الجند . اما الآن فالجنود العائدون كانوا مرتمين من التعب على الارض المكسوة بطبقة من الثلج المبكر .

وعند الاستحكام ، على المنحدر الخفيف الذي يضيع في تعاريج الشاطئ ، كانت جماعة من الآمرين . وانفصل عنها شخص قصير القامة وهرع إلي . ورفع يده بالتحية وهو يركض .

– قف ! تهيأ !

كان ذلك برودني . فوقف وسلم بحركة دقيقة وانتصب امامي . وبدأ كلامه مضطرباً : – ايها الرفيق آمر الكتيبة . . .

فقاطعته :

– ايها الملازم سيفريوكوف ! اليّ !

فهرع سيفريوكوف متثاقلاً .

– من الرئيس الاعلى هنا عندكم ؟

– انا ايها الرفيق آمر الكتيبة .

– لماذا اذن لا تأمر ؟ لماذا الفصيلة غير مصطفة ؟ ما هذه الفوضى ؟ على الجميع ان يصطفوا ! والآمرون كذلك !

اقترب بوزجانوف . وسأل باللغة الكازاخية بصوت خفيض :

– اكساكال ، ماذا جرى ؟

فاجبت بالروسية :

– الامر لا يشملك ايها الرفيق القائد السياسي ؟ اصطف !

وقف بوزجانوف عدة ثوان رافعاً إلي وجهه الممتلئ . كان واضحاً انه يريد قول شيء ولكنه لم يقدم . كان يعرف اني الآن لن اتقبل اية كلمة مهدئة ولن اصبر عليها .

وبانت معالم صف دقيق على الثلج . وكان الهدوء مخيماً ، ما عدا طلق المدافع الاصم الذي كان يترامى من بعيد ، من اعماق الشرق . فاقتربت من الصف . وفي هذه المرة قدم التقرير سيفريوكوف . وكان برودني يقف الى جانبه متوتر الاعصاب منتصب القامة . فالتفت اليه وقلت :

— قدم تقريرك .

فبدأ كلامه مستعجلاً :

— ايها الرفيق آمر الكتيبة ، ان الفصيلة المعززة التي تحت امرتي ابادت اليوم زهاء مئة فاشستي ، ولكننا وقعنا في الطوق . فاتخذت قراراً بالهجوم واختراق الطوق . . .

— حسن . ولماذا لم تخرج الى الطريق من جديد ؟

— انهم ايها الرفيق آمر الكتيبة كانوا يطاردوننا . . .

— يطاردونكم ؟

هتفت بهذه الكلمة والشرر يتطاير من عيني والحقد يعمر قلبي .

— يطاردونكم ؟ ويطاوعك لسانك على قول هذا ؟ لقد اعلن العدو انه سيطاردنا حتى الاورال . فهذا اذن ما سيحدث في رأيك ؟ سنسلم موسكو ، ونسلم بلادنا ، ونهرع إلى اسرنا وشيوخنا ونسائنا ونقول : « انهم طاردونا . . . » هكذا ، أليس كذلك ؟ اجب .

ولكن برودني لم يقل كلمة .

وواصلت كلامي : — من المؤسف ان النساء لا يسمعن هذا منك الآن ، وإلا لصفعنك وبصقن عليك . انك لست بآمر في الجيش الاحمر ، بل انت جبان .

وترامى من الابعاد هدير المدافع الاصم .

– هل تسمع ؟ ان الالمان هناك ، وراءنا . هناك العدو يحاول التقدم الى موسكو . هناك يحارب اخواننا . اما نحن ، اما كتيبتنا ، فنمنع عنهم الضربة الجانبية . انهم واثقون بنا ، واثقون باننا صامدون ولن ندع العدو يمر . ولقد وثقت بك . فاحتفظت بالطريق ، وسددت منافذه . ثم جبنت ، وهربت . هل تظن انك تركت الطريق ؟ كلا ، انك سلمت موسكو !

– اني . . . اني . . . اني ظننت . . .

– انتهى حديثي معك . اذهب .

– الى اين ؟

– الى هناك ، الى حيث مكانك بموجب الاوامر .

واشرت بيدي الى ما وراء النهر . وانتفض رأس بروديني كما لو انه اراد ان ينظر الى ورائه ، الى حيث تشير يدي . ولكنه امسك نفسه وبقي واقفاً امامي متهيأ .

وقال بصوت ابح : ولكن هناك ايها الرفيق آمر الكتيبة . . .

– نعم ، هناك الالمان ! اذهب اليهم ! اخدمهم اذا اردت ! او اقتلهم ! اني لم آمرك بالحضور هنا ! اني لا احتاج إلى هارب ! اذهب !

وسأل بروديني غير واثق : – مع الفصيلة ؟

– كلا . سيكون للفصيلة آمر آخر ! اذهب وحدك !

يستطيع آمر الكتيبة ان يستخدم على اشكال مختلفة سلطته تجاه الضابط الذي لم ينفذ امر القتال : فاما ان يعيده الى القتال ، أو يعزله من وظيفته ، أو يحيله للمحاكمة ، أو يرميه بالرصاص في الحال اذا اقتضت الضرورة . وانا . . . انا ايضاً اجريت محاكمة فورية . وكان

الحكم : الاعدام امام الجنود ، اعدام وان يكن غير جسدي ، — اعدام آمر نسي شرف الجندية وهرب مع محاربيه من العدو . وقد عاقبت العار بالعار .

أما برودني فكان لا يزال واقفاً امام الصف الصامت ، ولكنه لم يدرك ان الحديث انتهى فعلاً ، واني طردته من الكتيبة . فقد كانت تلك عليه دقيقة رهيبة . كان عضواً في الكومسومول ، ولا بد انه فكر اكثر من مرة بالحرب وبالموت ، وعرف انه قد يترتب عليه في الحرب ان يبذل حياته فداء الوطن ، وحلم بان يكون شجاعاً ، حلم بسعادة النصر العظيمة وبالمكافأة في ذلك وبالمجد ، وبالسعادة الشخصية الصغيرة حقاً والحبيبة الى نفسه مع ذلك حباً لا يمكن التعبير عنه .

ولكن جاء الوقت الحق ، وجاء القتال الحق ، فهرب الكومسومولي برودني ، الملازم ، آمر الفصيلة ، مع فصيلته . وصدر الحكم بلا نقاش ، ولا تصويت ، لا في جلسات مكتب الكومسومول ، بل في ميدان القتال ، — حكم القائد العسكري المطلق السلطة ، حكم آمر الكتيبة . فانهارت الاحلام . لقد انقذ برودني حياته ، ولكن لم تعد ثمة حياة له . فقد قيلت له امام الجنود ، كلمة « الجبان » المشينة ، وصدر عليه الحكم بالطرد !

كان يقف وكأنما كل هذا — هذا الذي ربما كان ارهب من الموت — لم يصل إلى مداركه ، كأنما ينتظر كلمة اخيرة مني . ولكني كنت انظر اليه في وجهه صامتاً . لقد كنت في تلك اللحظة كالحجر ، ولم تكن نفسي تشعر بذرة من شفقة . ان الذين حاربوا يدركون شعوري هذا ، فالحقد في تلك الدقائق يلتهم كالنار كل ما يعترض سبيله من مشاعر اخرى .

وادرك برودني ان كل شيء قد قيل . فجمع ما تبقى له من قوة ورفع يده بالتحية .

ــ حاضر ايها الرفيق آمر الكتيبة !

قال هذا ودار بالطريقة العسكرية ، من جانب كتفه الايسر ، على عقب حذائه . وانطلق مزيداً من سرعة خطوه كأنما يستعجل للوصول إلى الجسر القائم على نهر روزا ، حيث هدأ العدو في سكون الليل .

٦

انفصل شخص من جدار الفصيلة الاسود وركض وراء بروديني . وسمع الجميع صوته يقول :

ــ ايها الرفيق الملازم ، ساذهب معك . . .

وعرفت صاحب هذه القامة الطويلة العريضة الكتفين ، الذي يحمل بندقية نصف اوتوماتيكية على الحزام ، عرفت صاحب هذا الصوت .

ــ كورباتوف ، ارجع !

فوقف .

ــ ايها الرفيق آمر الكتيبة ، ونحن ايضاً مذنبون .

ــ من سمح لك بترك الصف ؟

ــ ايها الرفيق آمر الكتيبة ، لا يمكن لواحد وحده ان يذهب الى هناك . هناك . . .

ــ من سمح لك بترك الصف ؟ عد الى مكانك ! اذا لزم الامر فخاطبني كما يخاطب آمر في الجيش الاحمر .

فعاد كورباتوف الى الصف ، وقال :

ــ ايها الرفيق آمر الكتيبة ، اسمح لي بالكلام !

ــ لا اسمح ! ليس هذا اجتماعاً ! اعرف انكم هربتم انتم ايضاً مع الآمر . ولكن الآمر هو المسئول عنكم . فاذا أمر الآمر بالهرب فعليكم ان تهربوا ! هل تسمعونني جميعاً ؟ اذا امر الآمر بالهرب

فانتم ملزمون بالهرب . انه هو المسئول . ولكن عندما يأمر الآمر بالوقوف فانه هو نفسه وكل واحد منكم ، كل جندي شريف ، ملزم بان يقتل كل من يهرب . ان آمركم لم يستطع ان يضبطكم ولا ان يوقفكم ولا ان يرمي بالرصاص فوراً كل من يعصي امره . ولهذا دفع ثمن ذلك .

وظهر برودني مرة اخرى من الظلام الذي غاب فيه وكأنه شبح قاتم . ومع الحقد الذي عاد يأكل احشائي شعرت الآن بالازدراء ايضاً . ماذا جاء يتوسل ؟ هل جبن هنا ايضاً ؟

— ماذا تريد ؟

— ايها الرفيق آمر الكتيبة ، خذ اوراقي .

ماذا عندك ؟

واجاب برودني في شبه تلعثم :

— بطاقة الكومسومول . وثيقة الآمر . ورسائل .

فدعوت بوزجانوف .

— ايها الرفيق القائد السياسي ، استلم الاوراق .

فاخرج برودني من عبه كدسة رقيقة من الاوراق وناولها بوزجانوف .

— اكساكال ، — همس بوزجانوف لي بهذه الكلمة همساً يكاد لا يسمع .

ولم يقل اكثر من ذلك ، ولكنه كان يتوسل بهذه الكلمة وحدها . وكان برودني واقفاً مطأطئ الرأس . فخيل إلي انه دهاء الجبان. لقد عاد على هذا الاساس : فآمر الكتيبة سيدعو القائد السياسي ، والقائد السياسي سيدافع عنه . وقلت بيني وبين نفسي : « واذن تظهر دهاءك هنا لا مع العدو ؟ لقد اردت ان امكنك من انقاذ شرفك ، ولكن اذا جبنت مرة اخرى ، فتباً لك ، مت بلا شرف ! »

قلت : برودني ، تستطيع الاحتفاظ بوثائقك . تستطيع ألا تذهب الى هناك . اليك طريقاً آخر .

واشرت الى الدرب المؤدي إلى المؤخرة .

ـ اذهب إلى مركز رئاسة الالاي. . . ابلغهم هناك اني طردتك من الكتيبة ، واني احلتك للمحاكمة . . . برئ ساحتك هناك .

وشهق برودني بصوت صافر يكاد لا يسمع ، شبيه بالاجهاش .

ـ ايها الرفيق آمر الكتيبة ، اني . . . اني ساثبت لك . . . ساقتل . . .

ـ كان صوته الآن يرتجف ، كان يقول الآن ماكان يخفيه . ـ ساقتل الحارس هناك . . . ساجلب سلاحه واوراقه . . . ساثبت لك . . .

كنت استمع اليه ويزول الحقد من نفسي . وانتابتني الرغبة في ان اهمس حتى يسمع هو وحده : « احسنت ، احسنت ، هكذا يجب ! » وانتفضت روحي ، وغمرها الحب . ولكن احداً لم يعلم بهذا .

ـ اذهب الى حيث شئت ! انا لست بحاجة اليك .

وقال برودني : ـ خذ ايها الرفيق القائد السياسي .

فاضاء بوزجانوف مصباحه الكهربائي ، ومر الشعاع على وجه برودني الاسمر النحيف : فبدت عيناه غائرتين ووجنتاه بارزتين ، وعليهما بقع من حمرة . ثم سقط الضوء على كدسة الاوراق . فاستلمها بوزجانوف . وانطفأ المصباح .

ودار برودني وذهب مسرعاً . فصرخت :

ـ كورباتوف ، اعط الملازم بندقية نصف اوتوماتيكية !

كان ذلك كل ما استطيع ان افعله لاجله . كنت مسئولاً عن صلابة الكتيبة ، عن الخط ـ عن الخط في النفوس وعلى شاطئ روزا ـ ، الذي يحمي موسكو .

معركة اخرى على الطريق

١

عدت الى استحكام الرئاسة واستدعيت كورباتوف .

فدخل جهم الوجه . لقد طارده العدو فيمن طارد ، طارده وهو الرجل الابي ، الوسيم ، القوي ، والجريء كما كان يبدو . فلماذا ؟ لماذا حدث هذا ؟ اني ملزم بان اعرف جلية الامر .

قلت آمراً : — قل لي ماذا حدث لكم ؟ ولماذا هربتم ؟

فاجاب كورباتوف جواباً مقتضباً . في اثناء تبادل النار مع الالمان المنبطحين ، سمعت اصوات البنادق الرشاشة في الخلف ، على مسافة قريبة جداً . وارتسم من وراء الاشجار ، في ظهور المحاربين ، خط من نار الرصاص الكاشف . فصرخ برودني « اتبعوني ! » ، واندفعت الفصيلة خارجة من الغابة مشرعة البنادق ودخلت في الاجمة المجاورة ، كما كان مرسوماً من قبل . ولكن الطلق جاء فجأة من هناك ايضاً ، من امام المحاربين . وسقط شخص ، وصرخ آخر ، فاندفع الناس إلى جانب ، ومنذ تلك اللحظة لم يعودوا يستطيعون التوقف . فالرصاص الكاشف كان يطاردهم كل الوقت . وكان الالمان وهم يطلقون الرصاص يسيرون على الاثر ، وهو ما يدعى باللغة العسكرية « على الاعقاب » .

سألت :

— كم كان عدد هؤلاء الجنود الذين طاردوكم ؟

فاجاب كورباتوف كئيباً :

— لا اعرف ايها الرفيق آمر الكتيبة .

ـ قد يكون عددهم اثني عشر ؟ او اقل ؟
ولكن كورباتوف لم يجب ولم يرفع نظره .
فقلت : ـ انصرف .

٢

انصرف كورباتوف .

ما الذي كان يختلج في نفس جنديي ؟ لقد رأيت انه كان يشعر بالحياء .

الحياء . . . هل فكرت مرة فيما هو الحياء ؟ اذا قتل حياء الجندي في الحرب ، اذا سكت في الجندي هذا الصوت الداخلي الرادع ، فلن يمسك الجيش عندئذ تدريب او انضباط .

عندما انهال الرصاص على كورباتوف هرب مع الآخرين ، وكان الرعب يصرخ في اذنيه :

« انت هالك . حياتك الغضة قد انتهت . سيقتلونك الآن أو يشوهونك ويجعلونك عاجزاً إلى الابد . فاخلص بنفسك ، اختف ، اهرب ! »

ولكن صوتاً آخر ذا سلطان كان يصرخ ايضاً :

« كلا ، بل قف . فالهرب عار وشنار ! سيحتقرك اصحابك كجبان ! قف ، وحارب ، وكن جديراً بوطنك ! »

لشد ما كان ضرورياً آنذاك ، في تلك اللحظة من النضال الداخلي اليائس ، في تلك اللحظة التي كانت فيها كفة الميزان تتأرجح فتشيل تارة وتهبط اخرى ، في تلك اللحظة التي توزعت فيها نفس الجندي بين جاذبيتين ، ـ لشد ما كان ضرورياً آنذاك امر الآمر ! ان امراً هادئاً مرتفعاً شديداً يصدر من آمر ، كان كأنما هو امر من الوطن لابنه . ان

الأمر كان يمكن ان ينقذ المحارب من براثن التردد وان يحشد كل ما تربى عليه الجندي من تدريب عسكري وانضباط ، بل كل ما في نفسه من احاسيس سامية ، كالضمير والشرف والوطنية . ولقد فقد برودني رباطة جأشه ، فافلت من يده تلك الفرصة التي كان يستطيع اثناءها بل يجب عليه ان يصدر الامر . ولهذا انكسرت الفصيلة في القتال . ولهذا يشعر الجندي الشريف الآن بالحياء فلا ينظر إلي" .

٣

لقد سئل آمر الفصيلة عن ذنبه .

وانا ؟ ذلك اني مسئول ايضاً عن كل ما جرى وسيجري في الكتيبة ، وعن كل اخفاق في القتال ، وعن كل حادثة هرب ، وعن كل آمر ومحارب . ان فصيلتي لم تنفذ الامر العسكري ، وهذا يعني ان الامر العسكري لم انفذه انا الآخر .

ابلغت مركز رئاسة الالاي بالتلفون عما جرى ، واوضحت ما طُلب مني ايضاحه ، ووضعت السماعة و . . . ورحت احاسب نفسي امام قاض لا يرحم — امام ضميري انا وتفكيري انا . لقد كنت ملزماً بايجاد الذنب الذي ارتكبته . هل ذنبي اني عينت لامرة الفصيلة آمراً غير اهل لذلك ؟ هل ذنبي اني لم ادرك ، قبل فوات الاوان ، انه جبان ؟ كلا ، ليس ذلك كذلك . فلقد استطاع ، حتى بعد هربه ، وحتى بعد حكم الاعدام امام الجنود ، ان يثير من جديد عاطفة الحب في قلبي ، استطاع ان يثبت ان الشرف ما يزال حياً فيه .

فماذا الذي حدث له هناك ، تحت وابل الرصاص ؟ لماذا نسي هناك واجبه وسلطته كآمر ؟ هل وقع تحت تأثير جبن الآخرين ؟ كلا ، اني لا أصدق ان جنودي جبناء . واذا كان ذلك كذلك فهل اكون

عندئذ قد اسأت اعدادهم ؟ كلا ، ففي هذا ايضاً لا ارى عليّ ذنباً .

لم تتضح لي الحقيقة وتنفتح لعقلي إلا بالتدريج ، وفي خطوط عريضة غير دقيقة .

فلعدة ايام خلت ، عندما اوكلت للملازم بهذه المهمة ، قلت في نفسي : هل ان الالمان حقاً سيضعون رؤوسهم كالاغنام تحت وابل رصاصنا مرة اولى وثانية وثالثة ؟ ولكني عندئذ لم اخلص إلى اي استنتاج من هذه الفكرة العارضة . وكنت احسب العدو احمق مما بدا .

بديهي اننا ، منذما بعد المعركة الاولى على الطريق ، اجبرنا القائد الالماني على التفكير ، اجبرناه ابكر مما كنت اظن . ففي حالة التقائه بالكمين يصبح لديه على ما يبدو مشروع معين لا استطيع ان احزره مسبقاً . فقد اجاب على المفاجأة بالمفاجأة . فاجبر على الهرب فصيلتي وجنودي وطاردهم بنفس الطريقة التي هرب منها جنوده مذعورين ، — بطريقة المفاجأة بالنار عن قرب .

انه اليوم انتصر ، وطاردني ، — لقد استعملت في فكري ياء المتكلم لا غيرها ، — ولكن ليس ذلك لان ضباطه وجنوده كانوا اشجع واحسن استعداداً من ضباطي وجنودي . ثم ان غلبته عليّ لم تكن بالعدد ، — فضد العدد ، حسب خطتنا الموضوعة ، كان يمكن القتال وقتاً طويلاً بقوات قليلة ، — بل كانت غلبته علي كغلبتي عليه : بالتفكير ، والمناورة التكتيكية ، والعقل .

نعم ، كنت افكر قليلاً امس ! لقد غُلبت من قبل ان يشتبك القتال . وهذا هو ذنبي .

٤

امعنت النظر في الخارطة ، واستعدت في مخيلتي صورة القتال ، صورة الهرب ، وحاولت ان احزر كيف اعد ذلك عدوي القائد العسكري الالماني ، وكيف نفذه .

لقد هرب محاربيّ . اجبرهم العدو على الهرب وطاردهم . ورأيت في خاطري هذا وتمعنت فيه . رأيت كيف كانوا يسرعون لاهثين يجلدهم الرصاص الكاشف المنهمر باسواط من نور ، يجلدهم الموت في ظهورهم ، ورأيت كيف كان الالمان يتتبعونهم وهم يطلقون الرصاص راكضين ، لاهثين هم ايضاً ، يتصبب منهم العرق منهمكين في المطاردة . كم كان في طريق فرارهم من غابات صغيرة وعواسج واخاديد ! كان يجب الكمون في مكان ما والانبطاح في الحال وتحويل جميع الفوهات صوب الاعداء وتركهم يقتربون منتصرين مأخوذين بنشوة المطاردة ثم اطلاق الرصاص عليهم برباطة جأش عن قرب .

أما برودني فلم يحافظ على رباطة الجأش هذه ، وفقد سيطرته على نفسه وعلى نفوس الجنود . وفي هذا ذنبه .

وأما انا ، آمر الكتيبة ، فقد كان علي بالامس ، قبل القتال ، ان افكر عنه واتنبأ بما قد يحدث .

لقد استولى العدو على الطريق. ولكنها لا تزال واحدة . اما الاخرى فما تزال لنا . وهناك ، في تلك الطريق ، تترصد فصيلة دونسكيخ الالمان مستبدلة مكان الكمين . ولسوف يحاول العدو غداً أن يجبر هذه الفصيلة على الفرار ، بطريقة من الطرق ، وان يطاردها ايضاً .

٥

اتصلت بدونسكيخ تلفونياً وامرته بان يأخذ حراسته ويحضر اليّ . وبعد حوالي ساعة ونصف جاء .

كان يبدو وكأنما لم يتغير عن ذي قبل . فبشرة وجهه ويديه ما تزال كالسابق بشرة فتاة. ولما دخل تشرب بحمرة خفيفة. ولكني ادركت في الحال ، من اول حركة اتى بها ومن اول كلمة نطقها ، ان دونسكيخ قد اصبح غير ما كان . وابتسم عندما لاقت نظرته نظرتي ، ابتسم ابتسامته المعهودة التي يسودها ظل من استحياء ، ومع ذلك فقد كانت ابتسامة جديدة ، فقد اصبحت فيها قوة داخلية ، واصبح كأنما يعي حقه في الابتسام . ثم ان حركاته اصبحت اكثر بتاتاً ، واكثر سرعة . ورفع يده بالتحية العسكرية بانطلاق اكثر من السابق ، وكذلك قدم تقريره بانطلاق اكثر معلناً مثوله .

قلت : اجلس . وخذ الخارطة .

لم يكن مكان الكمين معلماً باية علامة على الخارطة التي نشرها دونسكيخ . ففي مثل هذه الاحوال لا يجوز بث الاسرار للخارطة . ولكن نقطة الاشتباك الاول لم تعد سراً ولذا فقد احاطها دونسكيخ بدائرة حمراء وكأنما ذلك للذكرى . فنظرت الى هناك . وعرفنا كلانا ان تجربة عظيمة للروح قد جرت هناك ، ان غبطة نصر عظيمة قد عيشت هناك ، — عرفنا كلانا ولكننا كلينا لم ننبس في ذلك ببنت شفة .

قلت : — اسمع يا دونسكيخ . اننا في المرة الماضية قلنا انا واياك انه لا بأس ان يلف العدو حول الكمين . فهذا جائز . ولكن لا يجوز الوقوع في الطوق .

وافق دونسكيخ بهزة من رأسه . وكانت نظرته تدل على الفهم . فاستمررت اقول :

— ومع ذلك فقد يستطيع العدو ان يضرب الطوق خلسة . مثلا ، هكذا . . . يأتيك العدو من هذه الناحية . — واشرت على الخارطة بنهاية القلم غير المبرية — فيبقى لك مخرج من هنا . فتندفع اليه وتبدأ بالخروج

واذا بالعدو منبطح هنا على طريقك ينتظرك بعد ان وصل الى هنا مسبقاً دون ان تلحظه . وهكذا يقابلك بالرصاص . فما العمل عندئذ ؟

فسأل دونسكيخ : — ما العمل ؟ نهجم بالحراب .

— آخ ! دونسكيخ . . . الحراب لا تطال من بعيد ، فالعدو يقتلك برصاصه قبل ذلك . ألن يطير صوابك ؟ ألن تهرب ؟

فهز رأسه هزة خفيفة .

— اني ، ايها الرفيق آمر الكتيبة ، لن اهرب .

— لست وحدك المقصود . ألن يهرب الناس ؟

التزم دونسكيخ الصمت ناظراً في الخارطة ، مفكراً ، باحثاً عن جواب شريف .

— بديهي يا دونسكيخ انه يجب الصراع مهما كان الموقف ميئوساً منه . ولكن لماذا نترك انفسنا تقع في موقف كهذا ؟ ليقع الالمان فيه . انك يا دونسكيخ لن تقتل بالحربة إلا شخصاً واحداً ، اما بعقلك فتقتل الفاً . هكذا يا دونسكيخ يقول المثل الكازاخي .

— وكيف ايها الرفيق آمر الكتيبة ؟

كانت عيناه الفتيتان الزرقاوان تنظران إلي بثقة .

قلت : الفرار ! الفرار كما يريد الالمان ، في فوضى ، في ذعر . حارب لمدة عشر دقائق او خمس عشرة وتظاهر بالذعر . وليطاردوك ! اللعبة سنقودها نحن . ليسوا هم الذين سيطاردوننا ، بل نحن الذين نجبرهم — هل فهمت ؟ — نجبرهم بالخديعة والمكر ان يطاردونا . ولا تبتعد عن الطريق . ثم انزل في هذه الوهدة . — ومرة اخرى علمت على الخارطة بنهاية القلم غير المبرية . — او اختر مكاناً آخر ملائماً . وهناك يجب في لمح البصر ان تختفوا وتنبطحوا . ولتدع الجماعة الاولى الالمان يمرون . اما الثانية فلتقابلهم بالنار من الرشاشات والبنادق في وجوههم .

فيرتدون مندفعين الى وراء . وعندئذ يجب لفحهم من هناك ، في وجوههم .
وبذلك توقعون من طاردكم بين نارين وتقتلونهم جميعاً ! مفهوم ؟

بعد ان عشت في مخيلتي هذه المعركة نظرت إلى دونسكيخ وانا ابتسم بسمة ظافرة شامتة . فلم يرد دونسكيخ ببسمة . وعرفت من عينيه انه التقط الفكرة ، ولكني قرأت في اعماق حدقتيه ، اللتين كأنما جمدتا في محجريهما ، رجفة وارتعاشاً .

لم ادرك فوراً ماذا به .

قد يكون دونسكيخ قد احس ، لحظة ، بالهول قبل حمّام الدم الذي يترتب عليه ان يفعله .

ولكنه اجاب بحزم :

ــ فهمت ايها الرفيق آمر الكتيبة .

ثم تكلمنا عن مختلف التفاصيل . ثم قلت له :

ــ اشرح المناورة للمحاربين .

فسأل :

ــ المناورة ؟

لقد بدت له هذه الكلمة ، ولا ادري لماذا ، غريبة . قد يكون ما اتصل عنده حتى الآن بكلمة « مناورة » شيئاً آخر غير ابادة الاعداء .

ولكنه اجاب في الحال كما يجب :

ــ حاضر ايها الرفيق آمر الكتيبة .

ــ انتهى يا دونسكيخ .

فنهض .

كان على هذا الفتى ذي الوجه الناعم ، والروح الناعمة ، ان يستدرج العدو غداً للفخ ثم يقتل عن قرب اناساً مضطربين مضيعين صوابهم . وكنت ارى انه سيقدر على ذلك .

٦

كان يتراءى لي اني حصلت على جعل تجربة اخفاق اليوم بشيراً بنجاح الغد .

وشعرت بثلاجة صدر . واستلقيت بعد ان صرفت دونسكيخ وتغطيت بالمعطف وانقلبت ناحية الجدار لكي انام . وظلت الافكار تشتغل بعض الوقت . ثم بدأ النعاس يدب .

ونجمت امام عينيّ المغلقتين خارطة طوبوغرافية ، ووجه دونسكيخ البادي الاهتمام . ورأيت اني اعلم الخارطة بنهاية القلم غير المبرية واشير اليه قائلا : « سيهربون ويندفعون الى هنا ، وهنا سنقابلهم من جديد بالنار ! »

وعلى حين غرة — ولقد انطبعت فى ذاكرتى هذه اللحظة بوضوح رهيب — ، رأيت ان الخارطة تعلم بقلم غريب غير قلمي . فقلمي كان اسود عادياً ، اما هذا فاحمر الجوانب مطلي ونهايته زرقاء مقلمة تقليماً حاداً . واليد لم تكن يدي ، بل كانت يداً بيضاء عليها شعرات شقراء حمراء وبشرة متوردة اجتازت طور الشباب .

وانزلق نظري من اليد الى الوجه . نعم ، لقد كان اياه ، عدوي القائد الالماني ذا العينين القاسيتين الحادتين . وخاطب من كان يقف الى جانبه ولفظ (لم اكن افهم لغتهم ، ولكني كنت افهمها في الوقت نفسه ، — ففي الاحلام ، وكذلك اليقظة التي تسبق الحلم ، تحدث هذه الغرائب) لفظ جملتي كلمة بكلمة : « سيهربون ويندفعون إلى هنا ، وهنا سنقابلهم من جديد بالنار » . وعلى الخارطة ، تحت رأس القلم ، لم ار الوهدة ، لم ار فخ الغد المنصوب للهتلريين ، بل رأيت خط كتيبتي . فحددت بصري لكي ارى واتثبت النقطة التي كان القلم يشير اليها . وانحنيت بكل قامتي عليها . . . وفتحت عيني . . .

كان مصباح الغاز المعهود يضيء في الاستحكام . وكان عامل التلفون جالساً في الزاوية عند جهاز التلفون .

فادرت وجهي مرة اخرى الى الجدار ، ومرة اخرى رحت استغرق في النوم . وتذكرت وجه برودني وقد اضاءه مصباح الجيب في لمحة بصر : وجه متألم ولكن لم يفقد انفته ، وعينان غائرتان ، ولطخات كلطخات المحموم على نتوئي الخدين البارزين . وتذكرت صوته الذي ارتجف في اللحظة الاخيرة : « ساثبت . . . ساثبت لك » . ثم تذكرت باشياء اخرى . ثم اختلط كل شيء في نوم ثقيل .

٧

لم اكد انهض في الصباح حتى ابلغني سينتشنكو سائس فرسي بشيء من الغموض :

ــ ايها الرفيق آمر الكتيبة ، هناك ، ــ واشار بيده إلى الباب ، ــ الملازم برودني . . . ينتظر متى تنهض .

ــ لماذا هو هنا ؟

وخفق قلبي . هل عاد ؟ هل نفذ ما قاله آخر مرة ؟

وقال سينتشنكو مستعجلاً :

ــ لقد وصل ايها الرفيق آمر الكتيبة للالمان . وجلب معه بنادق رشاشة . انه الآن جالس لا يتكلم مع احد . يريد ان يراك شخصياً .

قلت : ــ ليدخل .

وغاب سينتشنكو . وبعد دقيقة فتح الباب . واقترب برودني نحو المائدة التي اجلس اليها ، دون ان ينطق بكلمة ، ضاغطاً على شفتيه ، ووضع بندقيتين رشاشتين المانيتين ودفترين من دفاتر الخدمة الالمانية ، ورسائل وكراسة ، ونقوداً ورقية ومعدنية المانية . وكانت عيناه السوداوان الغائرتان

تنظران إليّ غير محاولتين الاختفاء ، بل بشكل غريب من تحت الحاجبين .

اردت ان اقول : « اجلس ! » ، — ولكني شعرت فجأة باني لا استطيع التلفظ بكلمة ، وبان غصة كانت بحلقي . فاخذت سيكارة ، ونهضت ، وذهبت ابحث عن الكبريت في المعطف مع انه كان في جيب البنطلون . واشعلت السيكارة ، ووقفت عند النافذة المنقوبة تحت صف الاعمدة ، ونظرت إلى جذوع اشجار الصنوبر وجذورها الضاربة في الارض ، وإلى الثلج الخفيف الذي غطى الارض في بعض الاماكن بين الاشجار ، ثم عدت وقلت بهدوء :

— اجلس يا برودني . . . هل افطرت ؟

فلم يجب برودني . ففي تلك اللحظة كان هو الآخر غير قادر على الكلام . وبص سينتشنكو من الباب ، وهرع إلي وهمس في اذني :

— هل اقدم فودكا مع الفطور ايها الرفيق آمر الكتيبة ؟

لقد كان سائس فرسي ، رجلي الممتاز سينتشنكو ، يعرف ، كما يعرف كل انسان في الكتيبة ، قصة الامس . ولهذا فهو يفهم كل شيء الآن .

قلت : — نعم ، صب قدحاً للملازم .

وتناولنا افطارنا معاً . وحدثني برودني عن مخاطراته الليلية ، وكيف قتل اثنين من الالمان . ولمعت في عينيه ، اللتين اصبحتا رطبتين براقتين من الفودكا ، اقباس ذكية معهودة .

سألت : — ولكن ماذا فعلت يا برودني امس ؟ كيف ذهبت بدون أمر ؟

فقطب حاجبيه ولم يكن يريد ان يتكلم عن هذا .

— انك تعرف . . .

ـ لا اعرف .

وقال دون رغبة :

ـ انك قلت . . .

ـ جبنت ؟

فهز رأسه . والآن ، وقد اعيد لفظ كلمة الامس ، اصبح من الاسهل عليه ان يتكلم في هذا .

ـ انا نفسي لا افهم ايها الرفيق آمر الكتيبة . . . لقد كان ذلك ، كيف اقول . . . ضربة شديدة على رأسي . . . وكأنما اصبحت شخصاً آخر . . . ولم اعد افقه شيئاً . . .

وهز كتفيه بحركة عصبية .

فسألت : ضربة شديدة ؟

وفجأة انبثقت امامي الكلمات التي فتش عنها ذهني طويلاً . الضرب على الحالة النفسية ! وهكذا اسميت لنفسي اخيراً سر القتال ، سر النصر في القتال ، باسمه .

الضرب على الحالة النفسية ! على الدماغ ! على الروح !

قد يبدو ذلك غريباً ، ولكن تلك الدقيقة التي لم يحدث فيها شيء كما يبدو في الظاهر ، ظلت في ذاكرتي إلى جانب اقوى ما تركته الحرب من مشاعر .

الضرب على الحالة النفسية ! ولكن ليس هناك اية اشعة سينية للتأثير في الحالة النفسية . فالحرب تجري بادوات القتل الجسدي ، وهذه الادوات تؤذي الجسم لا الروح ولا الحالة النفسية . كلا ، بل انها تؤذي الروح ايضاً ! وبعد ان تتأذى الحالة النفسية ، بعد ان تتحطم الروح ، يمكن طرد اسراب العدو ونيلهم وقتلهم واسرهم .

ان العدو يحاول فعل هذا معنا . ولقد نجحت مرة في هذا ايها السيد « الجرماني الكبير » وطبقته على فصيلتي . أما الآن فكفى .

قلت لبرودني :

ـ اليك ما اقول . . . الفصيلة لن اعهد بها اليك الآن . ولكنك ، على ما اعتقد ، لم تعد تخاف الالمان . سارسلك اليهم . وساعينك نائب آمر فصيلة الاستطلاع .

فنهض مغتبطاً :

ـ حاضر ايها الرفيق آمر الكتيبة !

وصرفته .

الضرب على الحالة النفسية ! ان هذا معروف منذ اقدم العصور . ومنذ اقدم العصور يتم الحصول على هذا بالمفاجأة . ترى أفن القتال ، أفن الخطط ، في ان تباغت العدو وتجنب قواتك هذه المباغتة ؟

ليست هذه الافكار جديدة ، بل يمكن ايجادها في الكتب . ولكنها في الحرب تفتحت لي مجدداً بعد كثير من التفكير المؤلم احياناً ، وبعد النجاح والاخفاق في القتال . لقد كانت هذه الافكار تتراءى امامي في الايام السابقة بصورة غير واضحة . ولكن سر القتال الآن اصبح واضحاً اخيراً .

هكذا بدا لي .

ولكن العدو اثبت لي ، في ذلك اليوم نفسه ، بعد عدة ساعات ، اني لم ادرك كل شيء على الاطلاق ، واثبت ان هناك قوانين اخرى للقتال . والبرهان في الحرب ، كما تعرف ، ليس كالبرهان في المنطق او في الرياضيات . ان البرهان في الحرب يصير بالدم .

٨

اليك ما قاله محاربو فصيلة دونسكيخ الذين عادوا من القتال . في ذلك اليوم ، الثاني والعشرين من تشرين الاول ، بعد ان اقترب

العدو بمدفعيته واحماله في الطريق المحتلة ، استأنف ايضاً امام جبهة الكتيبة ، تحركه في الطريق الاخرى التي منعه كمين دونسكيخ فيها ، اول امس ، من التقدم :

وفي هذه المرة سار الالمان بحذر اكبر : ساروا مشياً على الاقدام وتوزعوا على مسافة كبيرة ، مطلقين نيران بنادقهم الرشاشة على اطراف الغابة القريبة من الطريق وعلى الشجيرات الصغيرة وتحركت السيارات فارغة ببطء وراء الجنود .

وهنا ايضاً قابلت فصيلة دونسكيخ الالمان بوابل الرصاص . ولكن العدو الآن كان مستعداً لذلك فانبطح الالمان على الفور ، ثم اخذوا يتقدمون نحو الفصيلة ملتفين حولها .

وهنا بدأ تحقيق الخطة . وحان الوقت للتظاهر بالذعر ، فاخذ الرجال يهربون في كل جانب ، بلا نظام .

ورأى الالمان الهاربين : «آ . . . ، الروس يهربون ! الى الامام ! » .

وهرب المحاربون ، كما هو مبيت ، غير مبتعدين عن الطريق . فحرك السائقون الالمان محركاتهم ، وركض الجنود الى السيارات وهي تتحرك ، وراحوا ، وهم واقفون في صناديق السيارات ، يطلقون النار ويطاردون رجالنا مرتاحين في سياراتهم .

فارتمت الفصيلة في وهدة ، وانبطح المحاربون بسرعة وراء الشجيرات الصغيرة والتلعات على جانبي الطريق . وظهرت السيارات . وكان الالمان ، وقد اثارت المطاردة حماستهم ، يطلقون النار كيفما اتفق ، زارعين الهواء بالرصاص المضيء . « اين الروس ؟ الى اين هربوا ؟ الى امام ! » .

وفجأة انهمر وابل الرصاص من جانب وانطلقت النار الخنجرية من الرشاشات اليدوية . هل تعرف كيف يُضرب بالخنجر ؟ يضرب به على مسافة قريبة ، وبشكل فجائي ، وحتى الموت . فارتمى القتلى

ودوى الصراخ . وقفز السائقون الذين لم يصبهم الرصاص من مقاعدهم غير واجدين متسعاً من الوقت لضرب الفرامل . فاصطدمت السيارات بعضها ببعض . وظل الوابل بعد الوابل والنار بعد النار ينهمر من جانب .

بهتت الالمان المفاجأة واستولى عليهم الذعر ، فراحوا يتركون السيارات ويهربون ، يهربون كالقطيع ، في اعقابهم النار ، في اعقابهم الموت .

وفيما هم هاربون اذا من الجهة التي يركضون نحوها مبتعدين عن الرصاص محميين بالسيارات ، يواجهون من جديد ضربة الموت في وجههم ، ووابل الرصاص والنار الخنجرية من الرشاشات اليدوية .

وهنا حدث ما لم اتوقعه . فالضربة الثانية والمفاجأة الثانية كأنما اعادت للاعداء عقلهم . ففعلوا الشيء الوحيد الذي يمكنه ان ينقذهم من الهلاك : فقد اندفعوا وهم يجأرون ، في موجة من الضراوة ، الى امام مقابل الرصاص ، الى جنودنا .

لم يكن عند الالمان حراب . فقد تدربوا على الذهاب للهجوم بلا حراب ، بل بالبنادق الرشاشة المثبتة على بطونهم ، وباطلاق الرصاص وهم يسيرون . وسواء أكان اليأس قد اعطاهم القدرة ، ام ان آمرهم استطاع ان يضبطهم في اللحظة الحرجة ، فان الالمان ، وكأنما تذكروا في لمح البصر كل ما تعلموه ، حملوا على سلسلتنا غير الكثيفة ، مشرعين امامهم لا الحراب بل الخطوط المضيئة الطويلة التي يتركها الرصاص على مدى انطلاقه .

تغير كل شيء على حين غرة . وبدأ يعمل قانون بسيط من قوانين الحرب — وهو قانون العدد ، قانون التفوق بالعدد والسلاح . فان اكثر من مئتي رجل هائج ، مندفع لكي يقتل ، انقضوا على رجالنا . واما رجالنا فكانوا حفنة ، كانوا نصف فصيلة ، كانوا خمسة وعشرين محارباً .

لقد كان في فكرة القتال نفسها ، كما فهمت فيما بعد ، خطأ. اذ لا يجوز لمن يحارب بقوى صغيرة ضد قوى كبيرة ان يقاتل العدو عن قرب وان يشتبك معه وجهاً لوجه . لقد كان ذلك درساً مراً .

ماذا استطاع دونسكيخ ان يفعل ؟ في مثل تلك اللحظات الرهيبة ، إما ان تغادر الشجاعة نفس الانسان او تظهر بقوة لا سابق لها .

لقد امر دونسكيخ بالابتعاد في وهدة الى الغابة القريبة . وبقي هو عند رشاشه اليدوي مغطياً الانسحاب مع بعض المحاربين .

واقترب الالمان وهم يطلقون ، ولكن دونسكيخ ايضاً كان يطلق عليهم ناره ، حاصداً الواحد بعد الآخر ، وسد عليهم طريقهم الى الوهدة ، الى اقصر سبيل للملاحقة . واصابته عدة رصاصات ، ولكنه استمر يطلق النار ، غير شاعر في حومة المعركة بان الدم ينزف منه .

وأزّ رشاش آخر من رشاشاتنا وراء دونسكيخ . ذلك ان فولكوف العبوس ، معاون آمر الفصيلة ، غطى انسحاب الملازم . واستطاع دونسكيخ ان يركض قليلاً نحو رجاله ، ولكنه سقط بعد ان ناله الرصاص من جديد . واما فولكوف فكان يضرب ويضرب بدفعات قصيرة متلاحقة ، غير تارك الالمان يقتربون من الملازم . وسحب المحاربون زحفاً آمرهم وحملوه الى الغابة . وهناك ضمدوا للملازم دونسكيخ جروحه السبعة التي لم تكن لحسن الحظ مميتة . اما السرجان فولكوف ، الذي كان صموتاً وعبوساً في الخدمة وفي القتال ، اما « الرجل المستقيم » كما كان الجنود يسمونه ، فقد قتل عند رشاشه .

٩

وهكذا استولى الالمان على الموقع المتوسط .

ليس علي انا ، آمر الكتيبة ، ان اصف الوضع العام في الجبهة عند موسكو او على الاقل في اتجاه فولوكولامسك .

ومع ذلك ساخالف قاعدتنا هذه في هذا الصدد واقول بايجاز . اني عندما نظرت فيما بعد الى الوثائق المتعلقة بسيرة رجال بانفيلوف الحربية ، والتي جمعت لعرضها في المتحف ، قرأت بعض تقارير العمليات التي قدمتها اركان حرب جيش روكوسوفسكي الذي كان يدافع عن منطقة فولوكولامسك . وكان تقرير الثاني والعشرين من تشرين الاول ينص على ما يلي : « اليوم عند المساء انهى العدو تجميع الحشد الرئيسي في الجناح الايسر لجيشنا والحشد الثانوي ضد مركز جيشنا » .

ضد مركز جيشنا . . . وفي تلك الايام كانت في ذلك القطاع كتيبتنا واخريان مع المدفعية الملحقة بنا .

الثالث والعشرون من تشرين الاول

١

في الثالث والعشرين من تشرين الاول ، في الصباح ، ما ان طلع الفجر حتى ظهرت فوقنا طائرة تصحيح المانية . كان جناحاها راجعين الى وراء كجناحي البعوض : وقد لقبها جنود الجيش الاحمر بلقب « الحدباء » .

ثم اعتدنا على « الحدباوات » ، وتعلمنا اسقاطها : تعلمنا اجبارها على احترامنا وعلى البقاء بعيدة عنا ! — ولكننا شاهدنا « الحدباء » في ذلك الصباح لاول مرة .

حلقت بلا عقاب تحت الغيوم الخريفية الواطئة ، لامسة طرف السحاب الاسفل احياناً ومحلقة احياناً اخرى هادئة المحرك في حركة حلزونية هابطة — حتى ترانا من اوطأ مسافة ممكنة .

ولم يكن لدى الكتيبة وسائل لمكافحة الطائرات . لقد قلت من

قبل ان الرشاشات المضادة للطائرات ، التي الحقت بالكتيبة ، قد ارسلت بامر من بانفيلوف الى الجناح الايسر للفرقة ، حيث كان العدو يضرب بالدبابات وبالطائرات معاً . ولم نكن نعرف آنذاك ان الطائرات يمكن اسقاطها بدفعات من نار البنادق . فهذا السر ، غير الماكرجداً ، انكشف لنا فيما بعد مع كثير غيره من الاسرار الاخرى .

تتبع الجميع « الحدباء » . واني لاذكر لحظة ارتفعت فيها الطائرة وغابت لحظة وراء الغيوم ثم برزت – وفجأة دوت اصوات انفجارات من حولنا .

وارتفعت في الحقل اعمدة من التراب وسطع منها نور كالبرق . وقبل ان تقع كتل التراب الاولى وفيما العين لا تزال ترى كتل الارض المتجلدة المتفتتة تتهاوى ببطء ، اندفعت كتل اخرى في جانبها .

وقدرت من صوت التحليق ومن نوع الانفجارات ان العدو يضرب ناراً مركزة من مدافع مختلفة العيارات ، وفي الوقت نفسه تطلق مدافع الهاون نيرانها . فاخرجت ساعتي ، فرأيتها تشير الى التاسعة والدقيقتين .

فذهبت الى استحكام الرئاسة المختبئ في الغابة ، واستمعت الى انباء السرايا ، وقدمت تقريري لآمر الالاي بالتلفون : في الساعة التاسعة تماما بدأ العدو باطلاق نار حامية من مدافعه على خط القتال الرئيسي من جبهة الكتيبة جميعاً . فابلغت في الجواب ان الكتيبة التي الى اليمين تعرضت كذلك لمثل هذه النار .

٢

كان واضحاً انه تمهيد المدفعية للهجوم . وفي مثل هذه الدقائق تتوتر الاعصاب عند كل انسان . وتلتقط الاذن الضربات المتواصلة التي تنقلها الارض بشكل داو ؛ ويشعر الجسم كيف ان الاعمدة تهتز

في الاستحكام . وعندما يكون الانفجار قريباً تتساقط من بين العوارض الثقيلة كتل صغيرة من التراب المتجمد على الارض والمائدة . ولكن ادعى اللحظات الى توتر الاعصاب هي لحظة الهدوء . فالجميع يصمتون وينتظرون قصفاً جديداً . لا قصف جديداً . . . واذن. ولكن . . . مرة اخرى — بم . . . بم . . . ومن جديد يدوي الانفجار ومن جديد تهتز الاعمدة ، ومن جديد تنتظر اللحظة الرهيبة : الهدوء.

ان الالمان مشعبذون . ولقد لعبوا في ذلك اليوم على اعصابنا ، فقد كانوا يتوقفون عدة مرات لمدة دقيقتين او ثلاث عن القصف ، ثم يعودون اليه . واصبح الامر لايطاق . واصبح كل واحد منا يتمنى ان يقع الهجوم باسرع ما يمكن .

ولكن مضى نصف ساعة ، ثم ساعة ، وبعدها ساعة ، والقصف مستمر : ولم اكن انا ، المدفعي السابق ، لاظن ان النار المركزة المركبة الموجهة ضد خطوط من ملاجئ الميدان ، ضد مواقعنا التي لم تكن منها اية نقطة من باطون ، يمكن ان تطول هذه الساعات . لقد كان الالمان يقذفون بعربات كاملة من القذائف ، بكل ما جرّوه الى هنا من المؤخرة في اثناء توقفهم ، ممزقين الارض شر ممزق راغبين على الارجح في تكنيس الخط وسحقنا حتى يتم المشاة الامر بسهولة في اندفاع سريع.

كنت بين الفينة والفينة اتكلم بالتلفون مع آمري السرايا . وكان هؤلاء يبلغونني بانه لم يكشف في اي مكان عن تجمع للمشاة الالمان . وكان الاتصال كثيراً ما ينقطع ، اذ كثيراً ما تمزق الشظايا السلك . فكان عمال الاتصال المناوبون يصلحون الخط بسرعة تحت القصف .

وفي اواسط النهار ، عندما انقطع السلك في مكان ما ، — ولست ادري لاية مرة ، — خرجت من الاستحكام وراء عامل الاتصال المناوب لارى ماذا يحدث في العالم .

كانت القذائف تطير إلى الغابة ايضاً . ودوى شيء في اعالي الاشجار فتكسرت هذه وطقطقت وتساقطت منها اغصانها . واردت ان اعود الى ملجأي تحت الارض . ولكني صرخت في نفسي على نفسي وخرجت الى طرف الغابة . وكانت « الحدباء » لا تزال تحلق فوقنا . وفي الحقل المثلج ، المحفّر على شكل قموع ، والمرشوش بالغبار الذي يكون داكناً في بعض الاماكن ، كانت الارض تتطاير هنا وهناك : تارة تتطاير في ارتفاع واطئ إلى الجهات الاربع مع بريق ضارب الى الحمرة ، وذلك عندما يسقط لغم بعوائه المتزايد الخاص به ، وتارة اخرى تتطاير في عمود اسود يبلغ علوه احياناً علو اشجار الغابة ، وذلك عند انفجار قذيفة ثقيلة .

بعد عدة دقائق اعتادت الاعصاب بعض الشيء وهدأ الارتعاش اللاارادي ، واصبحت الاذن تتلقى الضربات بهدوء اكثر . وفجأة انقطع كل شيء وساد الهدوء . فتوترت الاعصاب من جديد . ثم دوى صوت اصم في السماء وصفير شديد مرنان يجعل البشرة تقشعر . ثم صوت آخر وصفير شديد آخر . هكذا ينفجر الشرابنيل . فلصقت بشجرة شاعراً من جديد بالرعشة المقرفة .

وبدا ان الالمان ، وقد توقفوا لدقيقة واحدة ، بدلوا تركيب القذائف — تركيب الانفجارات والاصوات والمؤثرات البصرية . فهم الآن يرسلون الشرابنيل والقذائف المتفجرة ، التي تنفجر في الجو فوق الارض مباشرة مصدرة صوتاً رهيباً ولهيباً . وهذه القذائف غير ذات خطر تقريباً على المحارب المختبئ في حفرة القناصة ، غير ذات خطر على الاجسام ، ولكن الالمان كانوا يريدون تحطيم الروح فكانوا يقصفون الحالة النفسية . وفي تلك الدقائق التي كنت فيها ملتصقاً بالشجرة استشففت هذا وتعلمت من العدو .

ثم عادت القذائف شديدة الانفجار تزمجر في الحقل ، رافعة غيوماً سوداء من الارض وناثرة غبار المتفجرات الكثيف الاشبه بغبار الفحم .

ونزلت ضربة قوية رفعت الاعمدة الخشبية الطويلة التي كانت حتى الآن مخفية تحت مرتفع من الارض . وفي تلك اللحظة ، دون شك ، طفح وجه الطيار الالماني الذي كان يحوم فوقنا ، بالبشر منتصراً .

ولكني ابتسمت شامتاً انا الآخر . فقد انطلت عليهم حيلتنا الحربية ، وقصف العدو الموقع الكاذب .

ان الاستحكامات الكاذبة التي كان لها شكل الفطر ، والتي كانت مهالاً عليها التراب ومغطاة بالثلج المبكر الذي رسمنا عليه عمداً دروباً ضيقة ، كانت تمتد على خط واضح محاذاة النهر .

أما الاستحكامات الحقيقية التي اختبأ فيها المحاربون فقد كانت كما تعرف محفورة على مسافة اقرب من النهر ، على منحدرات الشاطئ ، ومغطاة باربعة صفوف من الاعمدة الضخمة ، على مستوى الشاطئ .

وكان الالمان باطلاقهم النار المسددة وغير المسددة ، يضربون الشاطئ ايضاً ، ولكن كان على ضرباتهم ، لكي تدمر ، ان تقع لا في السدود العليا الثقيلة ، بل في الجبهة ، في صف اعمدة جبهي ضعيف نسبياً . وقد كان دفاعنا ، كما تعرف ، مخللاً اضطراراً بحيث ان الكتيبة لم تصب إلا بخسائر عرضية وقليلة .

٣

في حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر شدد العدو ناره بشكل ظاهر على قطاع السرية الثانية ، في منطقة قرية نوفلانسكويه ، حيث يمر طريق سيريدا ـــ فولوكولامسك .

وقد عرفت هذا على الفور بالسمع وبشدة الاهتزاز فتلفنت لآمر السرية الثانية سيفريوكوف .

ــ غير موجود .

عرفت صوت احد عمال الاتصال ، التتاري الصغير القامة موراتوف .

ــ اين هو ؟

ــ زحف إلى نقطة المراقبة .

ــ ولماذا لست انت معه ؟

ــ ذهب وحده حتى يكون السر اقوى . انه ايها الرفيق آمر الكتيبة يعرف التكتيك .

كان موراتوف يتكلم بحيوية . وفي تلك اللحظات تلحظ بدقة خاصة فروقات اللهجة عند الجنود ، وتقرأ هذا فيهم كما تقرأ تقرير الموقف . طُلبت الى تلفون آخر . وكان المتكلم سيفريوكوف .

ــ الرفيق آمر الكتيبة ؟

ــ نعم . اين انت ؟ ومن اين تتكلم ؟

ــ انا في نقطة المراقبة التابعة للمدفعية . . . انظر بمنظار المدفعية . شيء ممتع جداً ايها الرفيق آمر الكتيبة . . .

لم تفارقه حتى هنا ، وهو تحت النار ، طريقته البطيئة في الكلام ، فلاحقته بالاسئلة :

ــ ما هو الممتع ؟ ماذا ترى ؟

ــ الالمان احتشدوا عند طرف الغابة . . . انه يعج بهم المكان ايها الرفيق آمر الكتيبة ويكثرون من الحركة . الضابط خرج ، وهو ينظر بالمنظار ايضاً .

ــ كم عددهم ؟

ــ ربما . . . حتى لا اكذب . . . يشكلون كتيبة . . . اعتقد ايها الرفيق آمر الكتيبة انه يجب . . .

ـ ماذا تعتقد ؟ ادع للتلفون كوختارينكو ! بسرعة !

ـ اني ايها الرفيق آمر الكتيبة هذا ما فكرت . . .

كثيراً ماكانت طريقة سيفريوكوف البطيئة في الكلام تثير غضبي . ومع ذلك فاني لا استبدل احداً بهذا الآمر للسرية ، المتزن التفكير سيفريوكوف ، الذي زحف في ذلك اليوم ، اكثر من مرة ، في الحقل الرهيب ، وزار الخنادق والمراقبين . . .

واخذ السماعة الملازم كوختارينكو مصحح المدفعية .

ان المدافع الثمانية ، التي الحقت بالكتيبة ، واخفيت في الغابة ، في المخابئ الارضية سكتت طول اليوم ولم تكشف عن نفسها حتى اللحظة الحاسمة . ولقد كانت هذه اللحظة الحاسمة تقترب . فطرف الغابة الذي احتشد فيه الالمان للهجوم ، كان ، كالقطاع الذي امام جبهة الكتيبة ، قد سّجل للضرب من قبل . وكان مشروعي للقتال كما يلي : الاّ نشغل المدفعية المختبئة الا في اللحظة التي تستعد فيها مجموعة العدو الضاربة للهجوم ، وان نضرب على الرأس كما لو بالطوب وان نفجأهم ونشتتهم ونحبط الهجوم .

اخذتني الرغبة في ان آمر : « على حشد العدو بجميع المدافع ، نار ! » ولكن كان يجب اولاً اطلاق بعض القذائف حتى نصحح ، بعد مراقبة سقوطها ، توجيه الضرب ، او كما يقول المدفعيون ـ « نفتل » حسب اتجاه وقوة الريح والضغط الجوي وغوص المدافع في الارض والكثير من المعطيات المتغيرة .

وكان يجب لذلك شيء من الوقت : بضع دقائق لا اكثر .

ولكن هل تذكر لغز بانفيلوف فيما هو الزمن ؟

هل تعرف ماذا يمكن ان يحدث في الحرب في بضع دقائق ؟

٤

بعد ان اصدرت الامر لم اضع السماعة الموصولة بشبكة تلفون المدفعية . فسمعت امراً في مواقع النار :

— كل الى مكانه ! احشوا المدافع وابلغوا !

ثم يشير كوختارينكو — العين الحية للمدافع المختبئة في الغابة — الى الاحداثيين . ويكرر احد الاصوات ذلك . وتنعطف مواسير المدافع ببطء . والزمن يجري ويجري . . .

واخيراً سمعت :

— جاهز !

وتبعه امر كوختارينكو :

— قذيفتان ، نار سريعة !

ثم فترة صمت جديدة ، دون ان تُسمع الكلمات اللازمة المنبئة بالتنفيذ ، ومن جديد تمر الثواني . . . يبدو ان شيئاً ما غير جاهز . اسرعوا ، اسرعوا ، ياللعنة ! واذا بهذه الكلمة تنطلق في السماعة ، ويصرخ كوختارينكو :

— اسرعوا !

فتدخلت في الامر :

— كوختارينكو ، ماذا جرى ؟

— ان الالمان يستعدون ايها الرفيق آمر الكتيبة ، يلبسون حقائبهم الظهرية ، ويضعون خوذهم على رؤوسهم . . .

ويصرخ :

— موقع النار !

— نعم !

— بسرعة !

ـــ استلم ! طلقة ! طلقة ! رش !

وبين الضربات المتواصلة التي تصم الاذن لا تميز طلقاتنا ولكـ
القذائف اطلقت ، ولكن القذائف تطايرت ـــ انها موقتاً للتسجيل ، ا؛
موقتاً اثنتان . وسيرى كوختارينكو الآن الانفجار . هل بعيدة عن الهدف
ومن يدري فقد تكون اصابت الكبد منذ الضربة الاولى ؟ فهذا يحدث
احياناً ، يحدث احياناً !

كلا ! فقد صحح كوختارينكو النار :

ـــ التصويب واحد اكثر . إلى اليمين صفر . . .

واذا بقرقعة هائلة تدوي في السماعة . وانقطعت جملته .

ـــ كوختارينكو !

لا جواب .

ـــ كوختارينكو !

استمر الصمت . . . الى اليمين صفر . . . صفر ماذا ؟ . . . صفـ
تسعة ؟ ام صفر ثلاثة ؟ أو ربما صفر صفر ثلاثة ؟

لدينا كثير من القذائف ، ولدينا ثمانية مدافع ، ولكن في تلـ
اللحظة ، عندما كانت في امس الضرورة ، جعلتها صدفة القتا
الملعونة عمياء لا ترى .

كان مناوب الاتصال المدفعي قد هرع إلى الخط . ولكن الوقـ
كان يمر .

ولكن لم يكن ذلك انقطاعاً في الخط . بل ان الكارثة كانت افدح
دعيت الى تلفون آخر . وتكلم من مركز قيادة السرية الثانية ، مـ
اخرى ، موراتوف ، التتاري الصغير القامة ، الذي اجاب على اسئلة
بمرح لعدة دقائق خلت . اما الآن فان صوته مضطرب .

ـــ ايها الرفيق آمر الكتيبة ، ان آمر السرية جرح .

ـ اين ؟ وهل الاصابة خطيرة ؟

ـ لا اعرف . . . لم يجلبوه بعد . . . وهناك ايضاً آخرون . . . لا اعرف اذا كانوا جرحى او قتلى .

ـ اين هناك ؟

ـ في مركز المراقبة . . . لقد خرج الجميع من هنا ، لحمل الآمر والآخرين . . . اما انا فقد تركوني . . . امروني بان اخبرك .

ـ ماذا حدث . . . هناك . . . في مركز المراقبة ؟

لقد تلفظت بالكلمات الاخيرة بصعوبة ، اذ اني بت اعرف ان كارثة رهيبة قد حلت .

ـ حطم . . .

سكت . وبعد لحظة انتظار سأل موراتوف بلهجة شاكية :

ـ الى اين ساذهب الآن ايها الرفيق آمر الكتيبة ؟ مع من نحن الآن ؟

شعرت بيتم المحارب الذي بقي بلا آمر .

الآن سيحل الهدوء المخيف محل الهدير والقرقعة . الآن سيمر المشاة الالمان وقد تجمعوا للهجوم عبر النهر ، وحُطم مركز المراقبة واعميت المدافع ولم يبق للسرية آمر .

قلت :

ـ اجمع المراسلات يا موراتوف . وليبلغوا السرايا ان الملازم سيفريوكوف جرح وان آمر الكتيبة حل محله في مركز قيادة السرية . ساكون الآن عندكم .

وضعت السماعة وامرت رئيس مركز الرئاسة رحيموف :

ـ اتصل في الحال بكرايف . وليحضر ليستلم مني السرية الثانية .

ثم هتفت :

ـ سينتشنكو ! الفرس !

٥

انطلقنا على متون الخيل عبر الحقل : انا على الغراء ومن ورائي سائس فرسي سينتشنكو . ومدت الغراء ، كالهرة ، اذنيها الرفيعتين الشفافتين . وكنت اغذ بها السير جاذباً الي المقود غير تارك لها مجال الارتعاش من الانفجارات .

وكانت افكاري تقول : « ايضاً ! ايضاً ! ليت الهدوء لا يحل ! ليتني اصل قبل فوات الاوان ! »

ومرت من امامي ، قادمة من نوفلانسكويه ، عربة عسكرية مسرعة . وكان الحوذي يلهب ظهر الجياد بالسوط ، وكان الدم يسيل على فخذ احدها خطاً ادكن .

— قف !

لم يستطع الحوذي ان يوقف الخيل في الحال .

— قف !

ورأيت في المقعد الخلفي كوختارينكو ووجهه شاحب جداً منقوط بالتراب وعلى جبينه يقطعه من زاويته العليا إلى زاويته السفلي المقابلة خمش منتفخ جف الدم على جوانبه . وكان منظار المدفعية يهتز على معطفه الطويل الملطخ بالطين .

- كوختارينكو ، الى اين ؟

— إلى . . . الى . . . — ولم يستطع ان يلفظ في الحال كأنما يتلعثم في كلامه ، — إلى موقع النار ايها الرفيق آمر الكتيبة . . .

— لماذا ؟

— ان مركز المراقبة . . .

— اعرف ! اني اسألك — لماذا ؟ هل انت هارب ؟ ارجع !

ـ ايها الرفيق آمر الكتيبة ، اني . . .

ـ ارجع !

نظر كوختارينكو إلي محملق العينين قليلاً وكأنما انطفأ فيهما نور الحياة وارتسم عليهما هول ما رأى .

وفجأة ، وبتأثير نظرة الآمر الصارمة ، تغيرت حدقة كوختارينكو وكأنما غيرها احد من داخل . فوقف وصرخ بصوت اضرى من صوتي :

ـ ارجع !

وانهال بالسباب والشتائم .

واندفعنا نحو القرية . ومن ورائي زوجا خيل المدفعية يجران العربة العسكرية على الطريق كيفما اتفق في تثاقل .

وكانت الكنيسة المتوجة بقبة الناقوس ، تستعمل مكاناً للتضميد . وفي خارجها ، من وراء الجدار الذي يحمي من القصف ، كان يقيم مطبخ الكتيبة . وانتصب الملازم بونوماريف آمر فصيلة الادارة ، بعد ان رآني .

ـ هل يشتغل خط الاتصال يابونوماريف ؟

ـ يشتغل ايها الرفيق آمر الكتيبة .

ـ اين التلفون ؟

ـ التلفون هنا ، ايها الرفيق آمر الكتيبة ، في بيت الحارس .

كانت المسافة ، حسب تقدير العين ، من كوة قبة الاجراس حتى بيت الحارس مئة وخمسين متراً تقريباً .

ـ هل يوجد سلك ؟

فهز رأسه دلالة الايجاب ، فأمرت :

ـ ضعوا التلفون حالاً في قبة الناقوس ! بسرعة ! الثانية لها قيمتها يا بونوماريف !

ودخلت الى الكنيسة ركضاً على سلم مدخلها الحجري . وكانت رائحة الدم تزخم الانف . وكان الجرحى مطروحين على القش المفروش بقماش الخيام .

ـ ايها الرفيق آمر الكتيبة . . .

كان ذلك سيفريوكوف يدعوني بصوت خفيض . فاقتربت منه بسرعة ، واخذت بيديّ كفيه المصفرين الثقيلين الى حد الغرابة .

ـ اعذرني يا سيفريوكوف . . . ولكني لا استطيع الآن . . .

ولكنه لم يدع يديّ . وكان وجهه الكهل ، ذو الصدغين المحلوقين بعناية والموخوطين شيباً ، والشعر القاسي القصير البارز بوضوح ، قد هزل ونضب منه الدم .

ـ من ، ايها الرفيق آمر الكتيبة ، حل محلي ؟

ـ انا يا سيفريوكوف . . . اعذرني ، لا استطيع اكثر . . .

شددت على يديه الثقيلتين وتركتهما . وشيعني سيفريوكوف ببسمة خفيفة .

وهرع التلفوني إلى اعلى ومعه الجهاز ومن ورائه السلك يتلوى كالافعى .

وفي الطريق اوقفني الطبيب كراسنينكو :

ـ ايها الرفيق آمر الكتيبة ، كيف الوضع ؟

ـ اهتم بشغلك . ضمد الجرحى ورحلهم بسرعة .

فسأل قلقاً :

ـ بسرعة ؟

فغضبت وقلت :

ـ اذا رأيت وجهك ينقلب مرة اخرى لدن سماع كلمة « بسرعة » وحدها ، فاني ساعاملك بوصفك جباناً ، مفهوم ؟ اذهب . . .

ارتقيت السلم الحلزوني حتى قبة الناقوس . وكان كوختارينكو قد اصبح هناك ، جالساً القرفصاء ، ينظر بالمنظار من وراء الدرابزين الحجري . واوصل عامل التلفون السلك بالجهاز .

فسألت : — كم إلى اليمين ؟

فنظر كوختارينكو بدهشة ثم فهم .

فقال : — صفر خمسة .

فالتفت إلى عامل التلفون .

— متى ستنتهي ؟

— في الحال ايها الرفيق آمر الكتيبة .

ومد لي كوختارينكو بمنظاره . فضبطته حسب عيني ، وظهر بوضوح خط الغابة المسنن الذي اصبح قريباً وانزلت العدسات الى تحت ، واذا بي ارى الالمان بوضوح ، وكأنما هم على بعد خمسين خطوة مني . وكانوا واقفين مستريحين ، ولكنهم مصطفون . وكان يمكن تمييز الترتيب الخاص بالقتال : فقد كانوا منقسمين الى جماعات ، ربما الى فصائل ، تفصل بينها مسافة غير كبيرة . وكانت هذه الجماعات موزعة حسب الترتيب التالي : في المقدمة حضيرة واحدة ، ومن ورائها حضيرتان كجناحين . ومع الضباط ، اللابسين الخوذ ايضاً ، اغماد لمسدسات البارابيلو مفتوحة . وكنت ارى لاول مرة انهم كانوا يحملونها الى الشمال عند البطن . واذن فها هم اولئك الذين اقتربوا من موسكو ، ها هم اولئك « الذين جعلوا النصر مهنة لهم » ! انهم الآن سيعبرون النهر من اماكنه الضحلة .

٦

قال عامل التلفون : — انتهى ! الاتصال جاهز ايها الرفيق آمر الكتيبة .

ـ ادع موقع النار . . .

وها انه اخيراً يُلفظ الامر الذي اعاد الجملة المنقطعة .

ـ لتصويب واحد اكثر ! الى اليمين صفر خمسة ! قذيفتان ، نار سريعة !

واعطيت المنظار لكوختارينكو .

ورحت امعن النظر في طرف الغابة بالعين المجردة ، بعد ان اصبحت لا اميز الالمان ، منتظراً الانفجارات متوتر الاعصاب . ولمع النور في الاشجار ، ثم ارتفع عمودان متحاذيان من الدخان . فلم اكد اصدق ، ولكن خيل إلي ان الهدف اصيب .

وقال كوختارينكو منزلاً المنظار : ـ في الهدف ! واشرق وجهه المرشوش بالتراب ، الممسوح في بعض الاماكن ، المخدوش خدشاً منتفخاً على عرض جبهته . ـ اننا الآن . . .

ولم انتظر باقي الجملة ، فاخذت السماعة ، وامرت :

ـ من جميع المدافع ، بثماني قذائف شظايا من كل منها ، نار سريعة !

وقدم لي كوختارينكو المنظار في استعداد وفي انفة وعزة .

فنظرت . ورأيت ان قذائف التسجيل قد جرحت على ما يبدو احداً . ففي مكان ما انحني بعض الالمان على احدهم وظهورهم الينا ، ولكن الصفوف كانت واقفة .

صلوا لربكم ! وكنا في القرقعة والأزيز اللذين لم تعد الاذن تميزهما ، نصغي الى مدافعنا وهي تتكلم . ورأيت ، وانا امد جسمي الى امام من فوق الدرابزين ، ان اللهب قد اندلع عند طرف الغابة ، حيث الالمان متجمعون ، واندفعت الارض الى السماء ، وهوت الاشجار ، وتطايرت البنادق الرشاشة والخوذ .

وجذبني كوختارينكو بقوة ، وصرخ :

ـ انبطح !

لقد اكتشفوا مكاننا . وظهرت « الحدباء » قرب قبة الناقوس بازيزها البشع المصم للآذان . وكانت تطلق نار رشاشها . وقد اصابت عدة رصاصات العمود الرباعي الزوايا ، وتركت فيه ثقوباً . لقد سفت الطائرة الى درجة من القرب بحيث رأيت الوجه الشرس الذي ينظر اليّ . وتقابلت انظارنا لحظة . وكنت اعرف ان علي ان اسقط على الارض ، ولكني لم استطع ان اجبر نفسي ولم اشأ ان استلقي امام الالماني . فامتشقت المسدس وصوبت إلى وجه العدو وضغطت على الزناد ، ثم ضغطت مثنى وثلاث ورباع ، إلى ان انتهى الخرطوش .

وابتعدت الطائرة في اتجاه مستقيم . وبدأ العدو يضرب قبة الناقوس بالمدافع . ووقعت قذيفة تحتنا على الجدار المتين المبني بالآجر . وثار في الجو نثار من غبار الآجر وقع تحت الاسنان . ولكن بدا لنا وكأن قذائف العدو ليست حقيقية ، كأنما نراها تنفجر على شاشة السينما : اي على مقربة منا ولكن في عالم غير عالمنا . فهي ليست كقذائفنا التي تصيب وتحصد الاجسام .

وطارت « الحدباء » مرة اخرى ، وتطاير منها الرصاص . فاختبأت وراء العامود الحجري .

وبدأ عامل التلفون يئن .

ـ الى اين ؟ هل تصل لتحت ؟

ـ اصل ايها الرفيق آمر الكتيبة .

فاخذت السماعة ودعوت بونوماريف .

ـ عامل التلفون جرح . ارسل آخر الى قبة الناقوس .

ولم اختم جملتي حتى سمعت صوتي البالغ الارتفاع .

فقد هدأ كل شيء . وساد صمت رهيب يضرب طبلة الاذن. إلا من بعيد جداً جداً ، من المؤخرة ، حيث كان يترامى صوت المدافع . لقد كان جنودنا يحاربون هناك ، والى هناك يستعد الالمان للاندفاع عبر ستارنا باسفين جديد .

امرت كوخنتارينكو :

ــ ادر النار ! احصد ، احصد اذا بدأوا الزحف .

ــ حاضر ايها الرفيق آمر الكتيبة !

فالى تحت الآن كل درجتين معاً ، إلى السرية باسرع ما يمكن .

٧

وامتطيت صهوة الغراء مرة اخرى ورحت اعدو عليها عدواً من جديد عبر القرية نحو النهر . آه ! يا للسكون ! . .

على طول الشاطئ ، المغطى بالثلج الذي اسود في بعض الامكنة من اثر الانفجارات ، كان رجل حامل البندقية يعدو مسرعاً محني الظهر قليلاً . فاقتربت منه وانا على فرسي . واذا بموراتوف يقف ثم ينحني في الحال وهو ينظر إلي بعينيه السوداوين .

قال بعجلة : ــ انزل ايها الرفيق آمر الكتيبة ، انزل .

ــ الى اين ذاهب ؟

ــ الى الفصيلة . . . لانقل اليها ان القائد السياسي بوزجانوف استلم امرة السرية . ــ ثم اضاف وكأنما يعتذر : ــ لقد طال غيابك ايها الرفيق آمر الكتيبة ، وهو . . .

ــ حسناً . اسرع !

وافترقنا .

وعند مركز قيادة السرية ، عند الاستحكام المحفور في الارض

الى عمق كبير ، والواقع على بعد خمسين خطوة وراء خط الخنادق التي كانت تُرى من هنا ، من وراء ، بشكل غير واضح بسبب خنادق الدخول المتباعدة ، اوقفت فرسي وقفزت منها . ولم يعد جلدها يرتعش واذناها تنتصبان . شكراً لك ! اننا معاً اليوم حضرنا القصف الاول . وتمنيت لو اربت عليها والاطفها . . . ولكن ليس ثمة متسع من الوقت ياصديقتي ! اما هي فقد كانت تتوسل وكانت تفهم . فرميت بالمقود إلى سينتشنكو الذي خف إليّ ، ولمست طرف اللجام بحنان . فتناولت بطرف شفتيها اصابعي وابقتها عليها لحظة . ورأيت عينها الجاحظة المبتلة ، وانفتلت وذهبت بسرعة إلى السلم المتجلد المؤدي الى الاستحكام ، صارخاً وانا ماش :

ــ سينتشنكو ، الى الوهدة !

لم استطع ، في عتمة ما تحت الارض ، ان الحظ بوزجانوف على الفور . وكان بعض المحاربين جالسين على الارض مستندين الى الجدران . فنهضوا جميعاً حاجبين الضوء الباهت الآتي من شقوق صفوف العوارض الامامية . وقبل ان اتبين الوجوه تساءلت في نفسي : ما هذا ، ولماذا هذا الجمع الكثير هنا ؟

ابلغني بوزجانوف انه استلم القيادة بدلاً من سيفريوكوف الجريح . وبوزجانوف هو القائد السياسي لسرية الرشاشات التي كانت ، حسب طبيعة دفاعنا ، موزعة على الجبهة في اعشاش متفرقة للنار ، فكان ينتقل طول النهار ــ اما ركضاً اوزحفاً ــ من عش الى عش ، ليتحقق من جنود الرشاشات . وذهب نحو قرية نوفلانسكويه إلى قطاع السرية الثانية ، منذ ان نقل العدو ، لنصف ساعة خلا ، كل ناره الى هنا .

كان اول سؤال لي :

ــ ماذا يُلاحظ امام جبهة السرية ؟ كيف العدو ؟

ـــ ليس هناك اية حركة ايها الرفيق آمر الكتيبة .

واعتادت عيناي العتمة . فرأيت غاليولين في الزاوية يسند العوارض العليا برأسه المحني .

قلت : ـــ ومن هؤلاء الناس ؟ ولماذا اجتمعوا هنا ؟

ففسر بوزجانوف قائلاً انه ينتظر من الالمان ان يندفعوا بقوة ، ولذا قرر ان يستجلب لهذا ، إلى مركز قيادة السرية ، رشاشاً ، ان يجعله متحركاً حتى يمكن مواجهة المفاجآت .

قلت : ـــ صحيح !

كان بوزجانوف ثقيل الجسم بعض الشيء ، ممتلىء الوجه (ذلك كان نوعاً من احدى قبائل الكازاخيين الذين يختلفون عن قبيلة المحاربين الهزيلين الضيقي العظام ، ويسمون بـ « القضاة ») ، ولكنه كان في الوقت نفسه سريع الحركة ، او كما يقال « مثل البرق » . وكان الآن يقف منتصب القامة ، مرفوع الرأس ، يلقي تقريره بايجاز وبشكل رسمي. وكان توتر الاعصاب الداخلي يتجلى في النظرات وفي الشفاه المضغوطة وفي الحركات الدقيقة القليلة. وكان ، وهو القائد السياسي ، الذي اشترك في الحرب الفنلندية ، وحضر القتال اكثر من مرة ، ومنح مدالية « الشجاعة » قد اعرب اكثر من مرة عن رغبته في ان يكون آمراً في الجيش النظامي . ولقد تحقق هذا الآن ، في تلك الساعة الرهيبة من القتال .

عند الجسم الاسود للرشاش الموضوع وفي علبة الخزنة منه شريط الخرطوش ، كان بلوخا القصيريقف منتصباً . ولم يجلس ، رغم الاذن له بذلك ، ولم يتكئ على الجدار . لقد كانت تبدو عليه علائم الجد .

كان مورين الكثير الحركة منحنياً مع المراقب على عوارض الاعمدة الجبهية ، ناظراً عبر الفتحة إلى بعيد .

فاقتربت من هناك ايضاً . وكانت تضاريس الشاطئ والمنحدر

المضاد للدبابات ، تمنع في بعض الاماكن من رؤية النهر ، ولكن الجهة لاخرى كانت واضحة . ولم استطع بدون منظار المدفعية ان اتبين الاشجار المقطعة المفتتة في ذلك المكان ، الذي وقعت فيه قذائفنا منذ قليل . ولم يكن من الممكن تبين غير بعض من شجرات الشوح الواقعة على الثلج ، التي اصبحت الآن تصلح لتعيين الاتجاه . من هناك لا بد ان يظهر الالمان قريباً بعد أن يعودوا الى رشدهم . ليظهروا ! فكوختارينكو قابع في قبة الناقوس ، والمدافع موجهة الى ذلك القطاع والى ذلك القطاع ايضاً تنظر الرشاشات والبنادق .

من حولنا الهدوء ، الهدوء . . . والفراغ . . .

وهدرت طلقة وحيدة شديدة من مدفع الماني . فحددت نظري بغير ارادة مني ، واعددت نفسي لرؤية شخوص خضراء راكضة . ولكن في تلك اللحظة بالذات حدث كأنما مئات المطارق هوت على صفيحة حديد . ذلك ان الالمان عادوا إلى ضرب خط القتال الرئيسي : إلى ضرب الكنيسة التي اكتشفوا فيها المصحح ، والمدافع التي كشفت عن نفسها .

وقال بلوخا : ـــ الآن اذن لن يزحفوا !

فهم الجميع هذا . فالهجوم الاول قد رُد قبل ان يبدأ ، ـــ رده ضرب المدفعية . وتردد الالمان في الاندفاع الى امام من موقع الابتداء الذي غطته قذائفنا . ولكن اليوم لم ينته بعد . ونظرت الى الساعة ، فكان العقرب يشير الى الثالثة والدقيقة الخامسة : اي اننا كنا في الساعة السابعة من بدء القصف .

تلفنت إلى رئاسة الكتيبة وامرت بان تبقى المدافع والمصحح في اماكنهم ، وان يرسل الى الكنيسة مصحح مدفعي آخر مع وسائل الاتصال الاحتياطية، حتى يمكن ، في حالة الاصابة المباشرة ، اعادة مركز

المراقبة لقبة الناقوس ، وان يقوم الجنود وهيئة رئاسة فصيلة الادارة مع رجال الصحة بنقل الجرحى من الكنيسة إلى وهدة في الغابة .

وابلغني رحيموف : ـــ بناء على امرك جاء كرايف . هل ارسله اليك ؟

ـــ كلا ! لينتظر ، فسآتي بعد قليل لمركز الرئاسة .

٨

قبل ان اعود إلى مركز الرئاسة. عزمت ان اذهب الى عند المحاربين في حفر القناصة . فخرجت من الاستحكام وجلست القرفصاء في الخندق ورحت انظر . لقد انقشعت الغيوم وبان طرف الشمس من وراء النهر في صفحة السماء الزرقاء . وراحت حزم الاشعة تتساقط ماثلة بعض الشيء، ولم يلمع الثلج لانه اصبح متربا . وبعد ساعة ونصف أو ساعتين يحل المساء .

وعرفت من صوت الطلق ومن كثافة نار الالمان ان الهجوم سيبدأ ، وسيبدأ اليوم ، في مكان ما قريب . ان الساعة الاخيرة من هذا اليوم القتالي لن تنتهي هكذا بالقصف وحده .

كان الالمان ، وكأنما يتشفون ، يضربون بجميع العيارات خط القتال الرئيسي . وكان قسم من القذائف ، يخترق الهواء مصدراً حفيفاً ، ويطير الى حيث كانت مدافعنا في مواقعها المستورة ، في الاستحكامات . أما القذائف الاخرى فكانت تسقط على مقربة منا . وفي وسط الحقل كانت الانفجارات اقل مما في النهار . وكانت هذه الانفجارات تتقدم نحو مرتفع الشاطئ حيث حفرت على المنحدرات آبار غير ملحوظة . وكان يستدل من انتقال النار ، ان العدو عرف خط دفاعنا المخفي . وربما كانت حركة عمال الاتصال والآمرين هي التي كشفت عنه .

كنت انظر الى عواميد التراب المتناثرة وانا لاط على درجة الممر الضيق . واصبح الجوبارداً وكنت بلا معطف ، مرتدياً المضربية القطنية المشدودة بحزام .

ربماكان الامر لايستحق الذهاب الى هناك ، الى الخنادق ؟ وما ان القيت على نفسي هذا السؤال حتى ادركت اني خائف . وبدا لي ان الف مخلب نشب في مضربيتي ، وأن الف رطل يمسكني في الخندق . ولكني انتزعت نفسي من المخالب وتخلصت من الالف رطل ، واسرعت إلى الشاطئ راكضاً .

كنت وانا اقطع الحقل ممتطياً صهوة فرسي ، ثم في قبة الكنيسة فيما بعد ، لا الاحظ القذائف في تلك الدقائق الحرجة . ولكن هنا . . . جرب ان تركض اربعين او خمسين خطوة تحت نار مركزة ، عندما يخزك الهواء الحار من جانب واحد ، وانت تقفز جانباً ثم تقفز مرة اخرى ، عندما يلمع لهب ابيض من الجانب الآخر . جرب ثم حاول ان تصف ذلك . اما انا فاسمح لي بان اقول بايجاز : بعد عشر خطوات اصبح ظهري ينقط عرقاً .

ولكني دخلت الى الخندق كآمر :

— مرحباً ايها المحارب !

— مرحبا ايها الرفيق آمر الكتيبة !

لشد ما كان الجو لطيفاً هناك بعد مروري بالعالم الطلق ، في القبو المظلم المغطى بالعوارض الخشبية الثقيلة . لقد كان خندقاً لمحارب واحد ، أو ما يسمى حفرة القناصة المنفردة .

اني حتى الآن اذكر وجه ذلك المحارب ، واذكر اسم عائلته . اكتب عندك : سوداروشكين ، جندي روسي ، فلاح ، كولخوزي من جوار آلما — آتا . كان شاحب الوجه قليلاً ورصيناً . وكانت قبعته وعليها

نجمة الجيش الاحمر تميل قليلاً الى جنب . انه استمع ثماني ساعات تقريباً إلى ضربات المدافع التي كانت الارض تهتزلها وتتساقط من الجدران . وكان طول اليوم يجلس ويقف هنا لوحده ، وجهاً لوجه امام نفسه ، ناظراً عبر الفتحة إلى النهر والى الشاطئ الآخر .

نظرت في الفتحة فرأيت المنظر واسعاً . وكان القطاع المكشوف الذي فرش بالثلج النظيف في الضفة الاخرى ، ظاهراً بوضوح . فماذا اقول للمحارب ؟ كل شيء هنا واضح : عندما يظهرون يجب التصويب والتقتيل . فاذا لم نقتلهم قتلونا هم . وكانت في الفتحة بندقية ، خارجة بحربتها الى خارج ، مهيأة للطلق . وعندما كانت الارض تهتز كانت تتساقط فيها ذرات متجمدة لصق بعضها بالشحم .

فسألت بصرامة :

ـــ سوداروشكين ، لماذا البندقية وسخة ؟

ـــ المعذرة . . . الآن سانظفها ايها الرفيق آمر الكتيبة . . . الآن ستكون على ما يرام .

وادخل يده في جيبه ، في استعداد ، لكي يخرج ادوات التنظيف البسيطة . وكان يلذ له اني في تلك اللحظة احثه كما كنت احثه دائماً . وشعر بقوة تضاف إليه ، واصبحت نفسه اهدأ من ذي قبل تحت يد الآمر الحازمة . واخرج الاوساخ من الماسورة بالخرقة ، وراح ينظر اليّ كأنما يطلب : « فتش ايضاً ، جد ايضاً شيئاً من الفوضى ، ابق هنا ! »

آه يا سوداروشكين لو انك تعرف كم اردت وقتها ان ابقى ، كم اردت ألا اخرج من عندك إلى حيث ينهمر من السماء ما لا يعرفه إلا الشيطان . ونشبت المخالب فيّ مرة اخرى ، وعلقت الارطال برجلي ثانية . ورحت افتش بنفسي عن شيء من الفوضى يسمح لي بالبقاء دقيقة اخرى . ولكن كل شيء كان عندك يا سوداروشكين على ما يرام ، —

حتى الخرطوش لم يكن على الارض المتربة بل في حقيبة الظهر المفتوحة . ونظرت إلى ما حولي ، ونظرت الى فوق . لشد ما كانت لطيفة فوق رأسي جذوع اشجار الشوح السليمة القشور ذات الاغصان المحطوبة تحطيباً سريعاً . ونظر سوداروشكين الى هناك ايضاً ، وابتسمنا كلانا : فقد تذكرنا كلانا كيف بعثرت العوارض الضعيفة ، وكيف اجبرت الجنود على جلب عوارض ثقيلة ، صارخاً في المتذمرين .

وسأل سوداروشكين :

ـــ كيف ، ايها الرفيق آمر الكتيبة ، هل يأتون اليوم ؟

اتمنى لو اني انا يا سوداروشكين سألت احداً هذا السؤال . ولكني اجبت بحزم :

ـــ نعم . سنجرب اليوم بنادقنا فيهم .

لايجوز اللعب بالغميضة مع الجندي : لا يجوز التنهد امامه قائلاً : « قد لا نصاب » . انه في الحرب . وعليه ان يعرف انه جاء الى حيث القتل ، جاء لكي يقتل العدو .

قلت : ـــ اصلح من وضع قبعتك . وانظر بامعان اكثر . سنكدس جثثهم اليوم عند هذا النهير .

ومرة اخرى انتزعت نفسي داخلياً من المخالب المتشبثة فيّ ، وخرجت من الخندق .

ولكن لاحظ ان هذه المرة كانت اسهل علي .

ولاحظ ايضاً شيئاً آخر : ليس هناك اطلاقاً من دافع لآمر الكتيبة بان يركض تحت نار المدفعية بين الخنادق . فهذا شيء لا لزوم له ولعب بالموت لا مبرر له . ولكني فكرت بان آمر الكتيبة يستطيع في القتال الاول ان يسمح لنفسه بذلك حتى يقول المحاربون فيما بعد : « ان آمرنا ليس بجبان: انه تحت القذائف ، عندما كان رهيباً ان يبين المرء رأسه ولو لقضاء الحاجة ، كان هو يمر علينا » .

وفكرت بان مرة واحدة كافية : فسيذكر الجميع هذا ، وسيثق بك الجنود . ان ذلك امر عظيم في الحرب . هل تستطيع انت الآمر ان تقول امام ضميرك : اني واثق بجنودي . نعم ، تستطيع ، اذا كان الجندي يثق بك .

٩

علي ان اروي قصة حادثة اثارت فيّ شيئاً من الدهشة عندما كنت اعدو بين حفر القناصة . كنت سائراً واذا بي ارى شخصاً يخرج من الارض ويندفع إلي بكل قوته محني القامة . ما هذا ؟ من هذا الاحمق (طبيعي اني لم اكن اعتبر نفسي من هؤلاء) ، من هذا الاحمق الذي يعدو تحت هذه النار في خط القتال الرئيسي ؟ اوه ، انه تولستونوف. . . ويبدو اني لم اذكر بعد شيئاً عنه .

لقد حضر امامي قبل بدء القتال بمدة غير طويلة وقدم نفسه : « مدرب الدعاية في الالاي ، ساشتغل في كتيبتكم » . واني لاعترف باني نظرت اليه آنذاك بشيء من الازدراء .

لقد جاء تولستونوف الى الكتيبة لمدة غير مسماة . واذا وجب قول الصدق كان علي ان اعترف باني اعتبرت ذلك شيئاً من الاساءة لسلطتي . ولم يكن لتولستونوف ، حسب النظام ، اية حقوق في الكتيبة ، ولم يكن مفوضاً عندي (فلم يكن للكتائب في ذلك الوقت مفوضون) ، ولكنه ، وقد تعارفنا ، قال : « ارسلني الى كتيبتكم مفوض الالاي » . فسكتُّ بجفاء .

وقلت في نفسي : « حسناً ، اذهب واشتغل بما يجب لك ان تشتغل به . ولنرَ كيف ستكون في القتال » .

واذا بهذا اللقاء .

ــ يا آمر الكتيبة ! ــ كان تولستونوف يدعوني دائماً هكذا ــ يا آمر الكتيبة ! لماذا انت هنا ؟ ــ انبطح !

ــ انت انبطح !

ــ سانبطح .

واستلقينا كلانا على الارض .

ــ يا آمر الكتيبة ، لماذا انت هنا ؟

ــ وانت لماذا ؟

ــ انا بداعي الوظيفة . . .

كانت عيناه الكستناويتان تبتسمان . لعنة الله على الشيطان ! ترى هل قرأ افكاري عنه ؟

ــ بداعي الوظيفة ؟

ــ نعم . فالمحارب يزداد فرحة اذا زرته . فهو يفكر : اذن ، ليس ثمة ما يدعو للرهبة هنا . . .

وانفجرت قذيفة على مقربة منا . فزاد آمر الكتيبة والمدرب التصاقاً بالارض محاولين ادخال رأسيهما في مكان ما . وهبت موجة من الهواء فرفع تولستونوف وجهه ، فكان شاحباً وقال جاداً :

ــ هه ، ليس ما يدعو للرهبة. . . ما كان عليك يا آمر الكتيبة ان تتجول هنا فبدونك يمكن موقتاً تدبير هذا الامر . . . والآن ، الى اللقاء . . . سنكون من المعارف .

ونهض ولوح لي بيده . ثم تفرقنا في الحال على جناح السرعة . « سنكون من المعارف . . . » هكذا هو اذن . . . نعم ان هذا ، والحق يقال ، اول تعارف لنا . حتى لم الحظ كيف انتقلنا الى مخاطبة بعضنا بعضا برفع الكلفة .

تفقدت خندقين او ثلاثة اخرى ، من التي زارها تولستونوف منذ قليل . وكان المحاربون حقاً هناك اكثر هدوء اعصاب واكثر مرحاً .

هكذا كنا نحن ، الآمرين والقادة السياسيين ، نرد على ضربة الالمان « النفسية » . وهكذا سار ذلك القتال الذي لم يطلق فيه بعد اي محارب رصاصة واحدة .

ولكن ألم يكفني فعلاً هذا الركض ؟

وعدت إلى الغابة من النهر ، من خط القتال الرئيسي .

وفرقعت قذيفة عند طرف الغابة فوق رأسي . فتهاويت على الارض . فان الشظايا التي تتطاير من هذا النوع من القذائف المتفجرة في الهواء ، تذهب إلى امام . واهتزت شجرة الصنوبر القوية ، وتناثر الثلج ، وظهرت على قشور الاشجار نقاط بيضاء جديدة . فخفق قلبي بشكل مزعج .

وفي الغابة تقدم في الحال سينتشنكو الامين ، الذي تتبعني بالخيل طول الوقت على طول طرف الغابة ، وسلمني مقود الفرس .

لقد حان الوقت ، حان منذ زمن طويل للعودة الى مركز الرئاسة !

الثالث والعشرون من تشرين الاول عند المغيب

١

كان كرايف ، آمر سرية الرشاشات ، ينتظرني في مركز الرئاسة . وكان الدم يسيل من صدغه الى خده وذقنه . وكان يمسحه في ضجر ملوثاً به كل وجهه الناتئ عظم الخدين . ولكن خط الدم القاني النافر كان يظهر من جديد على صفحة الدم الجاف .

ـ ماذا بك يا كرايف ؟

ـ الله اعلم . . . خدشتني رصاصة . . .

ـ اذهب إلى المركز الطبي . يا رحيموف ! هل اخليت الكنيسة من الجرحى ؟

ـ الاخلاء لا يزال مستمراً ايها الرفيق آمر الكتيبة . ان المركز الطبي اقيم في الغابة ، في بيت الناطور .

ـ حسن . اذهب الى هناك ياكرايف . . .

ـ لن اذهب .

قال ذلك بعناد وعبس . فصرخت :

ـ هل تراني ارسلك على هذا الشكل لتخويف الجنود ؟ اتخذ لنفسك مظهر المحارب . اغسل وجهك وضمد جرحك . وبعد ذلك نتحدث . يا سينتشنكو ، اجلب قدرين من الماء للملازم كرايف .

فخرج كرايف وهو يبتسم في جهامة . ولكنه لم يسعفه الحظ لكي يضمد جرحه .

فقد دعاني الى التلفون الماجور ايلين آمر الالاي .

ـ ماميش اوغلي ، هذا انت ؟ ان العدو يهاجم السرية السادسة في منطقة التل الاحمر . انه الآن وصل الى خط الاستحكامات . ساعدها . ماذا يوجد تحت يدك قرب الرئاسة ؟

كان الماجور ايلين رجلاً هادئ الاعصاب قويها ، اشترك في حربين . وحتى في هذه اللحظة ، عندما نطق بكلمة « ساعدها » ، لم يتغير نسق انفاسه .

كانت قرية التل الاحمر تقع الى يمين قرية نوفلانسكويه ، على بعد كيلومترين ونصف منها . فماذا كان تحت يدي ؟ حرّاس الرئاسة وعدة اشخاص من عمال التلفون يتناوبون الدور وفصيلة الادارة . فابلغت بذلك .

– ارسلهم في عجل الى نجدة السرية السادسة . اعلم انه من الشمال تأتي الى هناك فصيلة بقيادة الملازم اسلامكولوف . نبه رجالك حتى لا يطلقوا النار بعضهم على بعض . ابلغني بالتنفيذ .

فامرت رحيموف بدق نفير الحرب لفصيلة الادارة وكل من يوجد على مقربة من الرئاسة وخرجت من الاستحكام . وكان المساء قد اقترب في الغابة . وعلى مسافة غير بعيدة كان كرايف يغسل وجهه . وكان وجهه غير المتناسق ، ذو الفك الثقيل وعظمي الجبين البارزين ، قد اصبح نظيفاً ، ولكن الماء الذي يسقط منه كان يتحول الى لون وردي .

– كرايف !

فهرع إلي . وزحف خط من دم مجدداً على وجهه المبلل . فمسحه في ضجر . وكنت اعتزم تعيين كرايف آمرا للسرية الثانية ، ولكنه . . . سيذهب بالنجدة إلى التل الاحمر .

وخرج عامل التلفون من الاستحكام .

– ايها الرفيق آمر الكتيبة ، يطلبونك على التلفون .

– من ؟

– آمر الالاي . يرجو الاسراع .

في هذه المرة تكلم الماجور ايلين بعجلة واضطراب :

– ماميش اوغلي ، هذا انت ؟ لا تفعل ! فات الاوان ! العدو اندفع موسعاً الاسفين . ثمة جماعة تتقدم الى هنا ، الى مركز رئاسة الالاي . سانسحب . الجماعة الاخرى مجهولة العدد ، انعطفت نحوك ، الى الجناح . اطو الجناح ! اصمد ! ثم . . .

وغاب الصوت وانقطع الاتصال .

ولم يعد يصدر من السماعة الميتة لا رنين ولا اهتزاز ولا شحنات كهربائية . وساد الصمت . . .

فوضعت السماعة غير الضرورية ، وضرب الصمت على اعصابي من جديد . ولم يكن الصمت في السماعة وحسب ، بل كان في كل ما حولي . فقد اوقف العدو قصف المدافع على منطقتنا . ما هذا ؟ هل هي لحظة الهجوم ؟ هل هي وثبة المشاة الى اختراق دفاع السرية الثانية ؟ كلا ، فالجبهة قد اخترقت .

٢

اخترقت الجبهة ، واصبح الالمان على هذه الضفة يتقدمون الى امام . وهم قادمون الى هنا ايضاً ، الينا ، ولكن لا من الجهة التي قامت منها الخنادق لسد الطريق عليهم ، لا من الجهة التي كنا مستعدين فيها لمواجهتهم بالرصاص من وراء الكوى ، والتي كانت مدافعنا ورشاشاتنا مصوبة اليها .

انهم قادمون من الجانب ومن المؤخرة في حقل اعزل غير محميّ ، من الجهة التي ليست منها امامهم جبهة .

وتصورت لحظة هيئة المحاربين القابعين في جباب معتمة محفورة في منحدرات الشاطئ ، اما من الوراء فلا توجد كوى . ونظرت في سرعة الى الساعة .

كانت الرابعة إلا ربعاً .

تقدم رحيموف الحساس الذي يفهم في اغلب الاحيان بلا كلام ، ووضع امامي الخارطة . ولما قابلت عيني نظرته المتسائلة هززت رأسي صامتاً .

قال : ــ في منطقة التل الاحمر ؟

ــ نعم .

كنت انظر الى الخارطة وانا اسمع الى الساعة كيف تدق والى الثواني كيف تمر ، شاعراً ان الوقت لم يكن وقت نظر ، بل وقت عمل . ولكني تحاملت واجبرت نفسي على الوقوف وانحنيت على الخارطة . آه لو تستطيع وصف تلك الدقيقة ، الدقيقة الواحدة ، التي أعطيتها انا الآمر لاتخذ قراري .

هل اسلم نوفلانسكويه ؟ هل اسلم القرية التي تقع على الطريق العام والتي يحتاج اليها العدو اشد الحاجة والتي يندفع بها العدو مباشرة ، على سيارات الشحن، الى جناح الالاي الذي يحارب على الطريق المحاذي للجبهة . ليس من السهل ان اجيب على نفسي قائلاً : نعم ، أسلمها ! ولكني لن استطيع ، بغير ذلك ، ان احافظ على الكتيبة . اما بعد الحفاظ عليها . . . فسنرى عندئذ لمن تكون الطريق .

وعلى الخارطة ، على الخارطة وحدها موقتاً ، ارتسم خط جديد يقطع الحقل معترضاً الالمان الذين يتقدمون . وبعد ان ابلغت رحيموف بقراري ، وامرت بنقل المدافع الى طرف الغابة ، الى خط الدفاع الجديد ، واعطيت بعض التعليمات الاخرى ، خرجت مسرعاً من قبو مركز الرئاسة .

— سينتشنكو !

— نعم .

— الفرس ! وهات فرس رحيموف ايضاً ! لكرايف ! كرايف ، اتبعني !

وعدنا مرة اخرى نقطع ذلك الحقل نفسه ، الغارق في الصمت الآن ، نحو السرية الثانية . وانقشع نصف صفحة السماء . وضربتني الشمس الواطئة المحمارة باشعتها في عيني .

٣

انحنيت على الغراء وعدوت بها عدواً سريعاً . وفجأة اخذت يراعات حمراء تلمع فوق رؤوسنا فانتصبت لحظة على الركاب ونظرت الى جانب فرأيت الالمان . وكانوا يسيرون في الحقل الذي كنا نقطعه راكبين ، على بعد كيلومتر تقريباً منا ، كانوا يسيرون في سلسلة منتصبي القامة مبتعدين كما كان يمكن التقدير من بعيد ، بمقدار خطوتين او ثلاث بين الواحد والآخر . كنت اعرف ان معاطفهم خضراء وكذلك خوذاتهم ، ولكنهم كانوا يبدون الآن على صفحة الثلج سوداً . يالهم من مشعبذين — انهم ، وهم يطلقون من بنادقهم الرشاشة في اثناء سيرهم ، اطلقوا الوف الرصاصات المضيئة المثيرة للرعب .

وكانت الفرس الطيبة تعدو وتعدو .

كان غاليولين في مركز قيادة السرية ، قد حمل على ظهره الرشاش . وركض احد عمال الاتصال بصورة محترضة الى النهر ، الى جناح الكتيبة . وكان رحيموف قد تلفن الى هنا وابلغ المهمة .

كان بوزجانوف يقف في الخارج ، مشيعاً رجال الرشاشات . وكان الى جانبه عاملا الاتصال : موراتوف القصير وبيلفيتسكي الطويل . وكان موراتوف يضرب رجلاً برجل وكأنما يرتجف من البرد .

اقتربت بفرسي وامرت :

— بوزجانوف ! ستذهب مع رجال الرشاشات ! كرر المهمة !

— الموت ! — قال ذلك بصوت اصم — ولكن . . .

— الحياة ! ان نقطة النار يجب ان تحيا ! يجب ان تصمد إلى ان نطوي الجناح !

— حاضر ، ايها الرفيق آمر الكتيبة . ان نقطة النار يجب ان تحيا . . .

ـــ اتبع الوهدة . واعمل بهدوء اعصاب . امهل الالمان . . . اتركهم يقتربون . . .

نظرت إلى رجال الرشاشات مورين ودوبرياكوف وبلوخا المثقلين بشرائط الخرطوش .

ـــ اسرعوا ! اجبروا هؤلاء الانذال على الانبطاح ! كرايف ، اتبعني . سينتشنكو ، اتبعني !

واقترب مني موراتوف .

وسأل بلهجة المتيتم : ـــ ونحن ايها الرفيق آمر الكتيبة ؟

ـــ مع القائد السياسي ! المراقبون وعمال التلفون مع القائد السياسي !

وانطلقنا على الخيل عبر الارض الواقعة بين النهر والقرية ، الى ما وراء نوفلانسكويه ، الى جناح الكتيبة . وكان عامل الاتصال لم يصل بعد الى هناك ، ولكن المحاربين كانوا قد خرجوا من الخنادق المتطرفة ، وجلس بعضهم في الممرات ، غير مبرزين فوق الارض إلا رؤوسهم ، اما الآخرون فاجتمعوا حلقات . ومن هنا ، من وراء التلة ، لم يكن يُرى الالمان السائرون ، ولكنهم جميعاً كانوا ينظرون الى هناك حيث تفرقع البنادق الرشاشة ، وتتطاير الخطوط الحمراء الطائشة التي يتركها الرصاص في الجو .

كانت كتلة الشمس الغاربة القانية ترسل اشعتها المائلة .

وهرع آمر الفصيلة ، الملازم الشاب بورناشيف ، الى ناحية الطلق لعدة خطوات ، ووقف مضطرباً محتاراً . ان هذا يلحظ فوراً في القتال . فقد كان يضغط على المسدس باصابع شاحبة ولكن يده كانت متدلية . كانت المفاجأة قد اربكته فلم يعرف ماذا يفعل وبماذا يأمر . ربما كان قد فقد لحظة رباطة جأشه ، ولكن المحاربين ايضاً ـــ في هذه اللحظة الحرجة

ـ فقدوا آمرهم . ولم ارَ حضائر ولا آمرين اصغرين ـ كانوا جميعاً هنا طبعاً ، ولكنهم لم يكونوا ليمتازوا عن غيرهم ، وكانوا هم ايضاً على الارجح لاصقين بجماعات الناس الدكناء التي لا شكل لها .

ان النظام العسكري ، ان الهيكل العسكري الذي كنت اراه من النظرة الاولى ، كان ضائعاً من اثر المفاجأة ومفككاً . واحسست بان الكتائب تهلك هكذا ، نعم ، تهلك هكذا .

لم يهرب احد بعد ، ولكن احد الجنود ، دون ان يبعد نظره عن الرصاص المضيء المتلاحق ، كان يخطو ببطء راجعاً القهقرى على طول الشاطئ . انه بعدُ يخطو ببطء . . . انه بعدُ واحد . . . ولكن اذا اندفع هارباً ألا يلحقه الجميع ؟

وفجأة اشار احدهم بحركة آمرة إلى المكان الذي يتقهقر فيه الجندي. غريب . . . من الذي يأمر هناك ؟ من هذا الذي مد يده بهذا الحزم ؟ وعرفت من بعيد شخص تولستونوف . فشعرت بعبء ينزاح عن نفسي فجأة . وليس ذلك لاني تذكرت أفكاري التي كانت تراودني في الزمن القريب ، بل لان فكرة مرت بخاطري في لمح البصر : جميل انه هنا .

وهنا ارتفعت صرخة :

ـ إلى اين ؟ ساريك كيف تهرب ! ساطلق عليك النار ايها الجبان ! ولا خطوة بلا امر !

كان الصارخ المنظم السياسي للسرية الجندي بوكييف ، وهو كازاخي صغير القامة دقيق الانف . وقد اُشرعت بندقيته بعزم .

وعندئذ فقط تبينت في اماكن مختلفة عدة شخوص اخرى غير ضائعة في المجموعة : وكأنما انتقلت اليهم من تولستونوف الموجود في الوسط ، تلك الوقفة من الحزم الصامت . ولم يكن ذلك هيكل فصيلتي

المألوف لعين آمر الكتيبة ، ولكني رأيت ان هؤلاء الناس هم الذين يمسكون الفصيلة الآن .

وعرفت ، لا على الفور ، لا في ذلك الحين ، بل في وضع اخر ، عندما مرت على ذهني انطباعات النهار ، ــ عرفت ان قوة كانت تفعل فعلها هنا وهذه القوة اسمها : الحزب .

اقتربت وصحت :

ــ بورناشيف ! من الذي يأمر عندك ؟ لماذا انت ذابل الهيئة ؟ اين آمرو الحضائر ؟

احمر بورناشيف خجلاً . فقد استحيا لارتباكه . وصاح مستعجلاً :

ــ آمري الحضائر ، إليّ !

نزلت من الفرس ، واعلنت قراري بايجاز وصوت عال : يجب طي الجناح واعطاء القرية للعدو . ثم امرت :

ــ آمر الحضيرة الاولى ! خذ المحاربين واذهب ! ليعرف كل واحد منكم مكانه حسب ترتيب الارقام ! الحضيرة الاولى ساقودها انا ، والثانية سيقودها تولستونوف ، والثالثة بورناشيف ! كرايف استلم قيادة السرية . خذ الفصيلة التالية . وانضم الينا . وانسف الجسر .

ــ حاضر ايها الرفيق آمر الكتيبة .

ــ تولستونوف ، إلى حضيرتك . . .

ــ يا آمر الكتيبة ، اعتقد . . .

ــ لا مجال للاعتقاد . . . حافظ على مسافة خمسين متراً مني . ولا تتأخر ! ولا تتجمعوا ! الحضيرة الاولى لتسمع أمري ! اتبعوني ! بسرعة !

الصقت مرفقيّ المحنيين بصدري وصعدت بكل ما لدي من عزم على المرتفع البطيء الانحدار ، بقرب بيوت القرية الداكنة حيث كان

نور الشمس الغائبة ينعكس في زجاجها، ثم انطلقت في الحقل المحفّر إلى الغابة . وسمعت من ورائي وقع اقدام الحضيرة التي كانت تلحق بي .

٤

وعند منتصف الطريق رأيت الالمان مرة اخرى . لشد ما اقترب هؤلاء الشخوص السود السائرون على الثلج ، ولشد ما ازدادت حجومهم ! ففي الدقائق الخمس او الست التي انقضت منذ ان لحظناهم عندما كنا ممتطين الخيل ، نقصت المسافة حتى نصف كيلومتر . انهم يسيرون بسرعة : مئة متر في الدقيقة . اما نحن فلا يزال علينا ان نركض ونركض... ان طرف الغابة بعيد ، وكأنه طرف العالم . وثمة زهاء نصف كيلومتر ايضاً حتى اولى الاشجار .

سارعت من عدوي بكل ما اوتيت من قوة .

ولحظتنا سلسلة الالمان فراحت خطوط الرصاص الحمراء تتقاطع في الهواء من امامنا ومن ورائنا وتتطاير فوق رؤوسنا أو تنطفئ عند اقدامنا في نشيش خفيف .

كان الالمان يطلقون كيفما اتفق ، بلا تسديد ، ولكن برصاص كثير . ووقع شخص من ورائنا . وترامت إلى سمعنا صرخة رفيعة مؤلمة :

ــ ايها الرفاق !

القيت نظرة وصرخت :

ــ اتبعوني ! انهم سيحملونه .

وسارع الالمان ايضاً من خطوهم بدافع من غريزة المطاردة : آها ، الروس يهربون ! ولكن ها هي الغابة ، على بعد مئة خطوة . وفجأة شعرت في يأس ان نفسي انقطع . واذن فقد ترك الاندفاع الشديد في منتصف

الطريق اثره . فاللهاث ووقع الاقدام يزدادان اقتراباً . والمحاربون يزدادون لحاقاً بي . لقد امرتهم بألا يتجمعوا . ولكنهم مع ذلك تجمعوا . نعم ، ذلك هو الركض على مرأى من العدو وتحت ناربنادقه الرشاشة ومع صراخ الجريح الذي يرن في الآذان — وليس تغيير الاجنحة في ساحة التدريب .

جمعت ما استطعت من نَفَس وصحت :

— حضيرة ، قف !

هل تفهم ؟ في هذه اللحظة وحدها ، في هذا الامر ، في كلمة « قف » ! وحدها ، تكدست كل قصتنا السابقة ، قصة كتيبة رجال بانفيلوف . ففيها دخلت معرفة الواجب ، و « اسبل يديلك » ، والأمر الذي لا يرحم « نفذ ! ولا تناقش ! » الذي اصبح عادة اي طبيعة ثانية للجندي ، ورمي الجبان بالرصاص امام الجنود ، والغارة الليلية على سيريدا حيث قُتل الالمان مرة وقُتل الذعر .

وماذا لو لم يقف المحاربون ، ماذا لو انهم اندفعوا إلى الغابة دون توقف ؟ إذن . . . اذن لكان الموت لآمر الكتيبة باورجان ماميش اوغلي . انه قانون جيشنا : المسئول عن هرب المحاربين المشين هو الآمر صاحب العار .

ولكن المحاربين وقفوا متجمعين ، متنفسين بصعوبة ، — وقفوا ! — وقفوا إلى جانبي .

— آمر الحضيرة !

— نعم !

— إلى هنا ! اطلق النار ! جندي القدوة !

— نعم !

— إلى هنا ! انبطح ! اطلق النار ! من إلى جانبه !

– نعم !

– إلى هنا ! انبطح ! اطلق النار ! تفرقوا ! المسافة خمسة امتار ! اين انبطحت ؟ ! ابتعد ! هنا ! اطلق النار !

٥

ارتكبت غلطة . فقد كان يجب الانبطاح وعدم اطلاق النار ، بل الاستعداد والتصويب للهدف ، وتهدئة خفقان الدم العنيف ولو قليلاً . ثم اطلاق النار بعد ذلك دفعات .

ولهذا راح المحاربون يطلقون في فوضى ، وبسرعة محمومة وبلا دقة . فكان الالمان يسيرون نحونا وهم يرسلون سيل رصاصهم . دون ان يسقط منهم احد .

كانت الشمس الساطعة رغم غروبها ترسل اشعتها مائلة . ولم يعد الالمان يبدون سوداً لا وجوه لهم . بل ان الشمس اعادت اليهم لونهم . فاخذت وجوههم المرداء تبيضّ تحت خوذاتهم الخضراء . ولمعت عند بعضهم نظاراتهم . ولكن لماذا لا يسقطون ؟ لماذا ؟

وهنا فقط ادركت ان الالمان لا يزالون في الحقيقة بعيدين – على مسافة ثلاثمائة او اربعمائة متر . ولكننا نطلق النار بكثرة تاركين اطار التصويب على الخط الاول اي على مئة متر .

صحت مغطياً بصوتي صوت البنادق : التسديد اثنان ونصف !

كانت حضيرة تولستونوف تركض على آثارنا في الحقل . وظهرت من وراء بيوت نوفلانسكويه الحضيرة الثالثة .

وخرجت من القرية العربات المحملة . وكان الحوذيون ينهالون بالسياط على الخيل .

وكان الالمان يتقدمون . وسقط عندهم واحد ، ثم آخر . . . وعندنا ايضاً اصدر احدهم انيناً . . . واختفى الطرف البعيد من صف الاعداء وراء البيوت . لقد اصبح العدو في نوفلانسكويه . لقد سلمنا القرية .

اما الآخرون فكانوا يخطون ، ويخطون . . . سيؤمرون : « ركضاً ! » وقست المسافة بنظري . سيدعكوننا ! آه لو جربت هذا الشعور المقرف الخانق عندما ترى إلى العدو وهو يحكم عليك الطوق ويدعكك . الرشاش ! اين انتم يا بوزجانوف ، يا مورين ، يا بلوخا ؟ اين الرشاش ، الرشاش ؟

وصرخ شخص بقربي وراح يندب :

ـ آه ، آه ياموت ! آه ، آه ! . .

كان صراخ الالم هذا يرعش الاعصاب ويُفقد الشجاعة .

كان كل امرئ يتخيل ان دوره سيأتي ، ان رصاصة ستناله ، ان الدم سينفر من جسمه ، انه سيصرخ صراخ الموت . قلت : كل امرئ . . . نعم ، فانا ايضاً تخيلت ذلك . نعم ، فمن هذا النحيب والندب المرهق ارتعشت انا ايضاً : ودب من بطني إلى حلقي برد يذهب بالقوة ويقضي على الارادة .

نظرت إلى حيث كان الصراخ يتصاعد . هذا هو الجريح ، مستلق نصف استلقاءة على الثلج ، بلا قبعة ، وقد صبغ الدم الحار وجهه . ان الدم يسيل من ذقنه إلى معطفه . ولشد ماكانت عيناه مرعبتين بيضاوين : فقد اتسع محجراهما واصبح بياضهما كبيراً إلى حد خارق .

وعلى مسافة غير بعيدة استلقى شخص واضعاً وجهه في الثلج وضاغطاً على رأسه بيديه كأنما لا يريد ان يرى اويسمع شيئاً . ما هذا — قتيل ؟ كلا ، ان رجفة خفيفة تهز يديه . . . وإلى جانبه بندقية نصف

اوتوماتيكية ملقاة على الثلج . من هذا ؟ انه الجندي جيلبايف ، ابن بلدي ، من كازاخستان ! انه غير مصاب بأذى . انه جبن ، يالنذل ! ولكن ألم اتمن انا ايضاً منذ لحظة ان اضع وجهي هكذا واندس في الارض وليحدث ما يحدث !

قفزت إليه :

ــ جيلبايف !

فانتفض ورفع رأسه الشاحب من الثلج .

ــ ايها الوغد ! اطلق النار !

فامسك بالبندقية نصف الاوتوماتيكية وركزها إلى كتفه واطلق على عجل ــ فقلت :

ــ صوب بهدوء . اقتل !

فنظر إلي ، وكانت عيناه لا تزالان خائفتين ولكن عاد اليهما التفكير المنطقي . واجاب بصوت خفيض :

ــ ساطلق النار ، اكساكال .

والالمان يسيرون . . . يسيرون في ثقة ، وسرعة ، منتصبي القامة ، مطلقين نار بنادقهم الرشاشة التي كانت تبدو وكأنها مزودة بحراب نارية طويلة تصل الينا ، ــ هكذا تظهر الرصاصات المتلاحقة الراسمة خطوطاً في الهواء . وكنت اعرف ان الالمان يريدون ان يصمّونا ويعموننا حتى لا يرفع احد منا رأسه ، حتى لا يستطيع احد ان يصوّب عليهم باعصاب هادئة . اين بوزجانوف ؟ اين الرشاش ؟ لماذا يلتزم الرشاش الصمت ؟

لا يزال الجريح يئن . فاقتربت منه . فرأيت عن كثب وجهه المدمي ويديه المبللتين الحمراوين .

ــ استلق واسكت !

ــ آه . . .

ـ اسكت ! عض على خرقة ، عض على المعطف اذا كنت تتألم ، ولكن اسكت !

فسكت . ياللجندي الشريف !

ها هي اخيراً . . . ها هي اخيراً فرقعة الرشاش . . . دفعة طويلة : تك ـ تك ـ تك ـ تك . . . اوه ، لشد ما تركهم بوزجانوف يقتربون ! لقد تمكن من ضبط نفسه ، ولم يكشف موقعه حتى اللحظة الاخيرة . ولكن الرشاش راح الآن يحصد حصداً ـ مباغتة ، وعلى مسافة قصيرة ، وحتى الموت .

قصت الطلقات الاولى مركز السلسلة الالمانية . وراحوا يتراكضون في كل جانب . وسمعت لاول مرة كيف يصرخ العدو . ولقد ايقنا اكثر من مرة فيما بعد ان تلك خصلة من خصال الجيش الالماني ، وهي ان الالمان عندما يقعون في ورطة أو يمنون بالاخفاق في القتال ، يصرخ المصابون منهم بصوت عال طالبين النجدة ، ـ ولم يكن جنودنا ليصرخوا هكذا اطلاقاً .

ولكن كانت امامنا ، مع ذلك ، قوة منظمة أُحسن ترويضها . فما إن دوى أمر اجنبي حتى رأينا الالمان الذين لا تطالهم رشاشاتنا ينبطحون دفعة واحدة .

والآن يمكن ان نتنفس الصعداء .

وزحف تولستونوف إلي بعد دقيقة .

ـ ما رأيك يا آمر الكتيبة ؟ هل نطلق صيحة الهجوم ؟

فهززت رأسي بالسلب . ان هذا سهل جداً في القصص الخفيفة ، سهل جداً ان تصيح صيحة الحرب فيهرب الالمان .

أما في الحرب فليس الامر كذلك .

ولكن صرخة الحرب انطلقت مع ذلك في تلك الامسية . فلم تكن كتيبتي وحيدة بين الكتائب ، ولم اكن الوحيد بين الذين يديرون دفة القتال . ولقد ظهرت الصيحة في مكان لم يكن ينتظرها منه احد ، لا نحن ولا الالمان .

٦

فمن مكان الغابة ، من وراء الالمان المنبطحين على مسافة قليلة ظهر صف راكض متفرق .

ورأينا في اشعة الشمس الغاربة جنود الجيش الاحمر — رأينا قبعاتنا ومعاطفنا وحرابنا المشرعة . ولم يكن عددهم كبيراً : فهم اربعون او خمسون . وحزرت بانها فصيلة الملازم إسلامكولوف ارسلت من نقطة اخرى إلى منطقة الاختراق .

والآن لم يكن علينا نحن ، بل على الالمان ان يعرفوا ما هو الضرب في الجناح وفي المؤخرة . ولكن مناورة طي الجناح معروفة لديهم بلا شك . وهكذا نهض طرف السلسلة وهو يطلق النار ، وبدأ الالمان يتراجعون مسرعين مشكلين قوساً .

قال تولستونوف بصوت متهدج : — يا آمر الكتيبة !

فهززت له برأسي : نعم ! ثم صحت :

— أبلغ السلسلة ان تستعد للهجوم !

لم اعرف صوتي . فقد كانت البحة تخنقه . وانتقلت هذه الكلمات من محارب الى آخر : « استعدوا للهجوم » ، — وانقطعت انفاس الجميع وراحت قلوبهم تخفق باضطراب .

ومن جانب الغابة كان صف المحاربين يسرع الخطى نحونا ، وترامت ضعيفة من هناك صيحة هجوم ، فغير الالمان بسرعة اماكنهم .

واصبح خط الالمان من امامنا قليل العدد ، ولكنهم تمكنوا من ان يوجهوا الينا رشاشين خفيفين كانا من قبل على ما يظهر وراء الصفوف المهاجمة . وبدأ احد الرشاشين يضرب ، ويتطاير من فوق رؤوسنا ازيز غير مستحب .

اما في سلسلتنا فقد هدأ الطلق . وكان المحاربون مستلقين ، ممسكين ببنادقهم ، منتظرين اللحظة التي فكر فيها كل شخص منذ ان دعي للخدمة في الجيش والتي تبدو لكل شخص ارهب لحظة في الحرب ، ـ منتظرين الامر بالهجوم .

وقد ادهشني هذا التوقف اللاارادي عن اطلاق النار : لا يجوز هذا ، لا يجوز ! ولكن لم يكن ثمة متسع من الوقت لاصلاح الخطأ . بل كان يجب العمل بسرعة ما دام العدو في ارتباك وحيرة .

صرخت :

ـ بورناشيف !

كان الملازم بورناشيف ـ آمر الفصيلة الذي احمر وجهه على الشاطئ منذ قليل خجلاً من حيرته العابرة ، ـ كان مستلقياً في السلسلة على بعد خمسين متراً مني . ورفع بسرعة يده وانزلها دلالة على انه سمعني .

ـ بورناشيف ، انطلق !

مرت ثانية . لا بد انك قرأت وسمعت اكثر من مرة عن بطولة الكثيرين في الجيش الاحمر . انها حقيقة ، انها كلمات مقدسة . ولكن اعرف ان بطولة الكثيرين لم تكن لتوجد لو لا الزعيم ، لو لا الذي يسير في الطليعة . انه ليس من السهل انهاض الناس الى الهجوم ، ولم يكن احد لينهض لو لا وجود الاول ، لو لم ينهض احدهم ويسير الى امام جاذباً وراءه الآخرين .

لقد نهض بورناشيف . وظهر على صفحة سماء الغروب شخصه المحني بشكل متوتر ، المندفع الى امام . وظهرت امامه ، على مستوى

كتفه ، صورة سوداء لحربة حادة ــ لقد تناول اذن من احدهم بندقية ، وتحرك فمه المفتوح . وصاح بورناشيف بكل صوته ، وهو ينتزع نفسه من الارض ملبياً الامر ، امري وامر الوطن لابنه :

ــ في سبيل الوطن ! الى امام !

لقد اتفق لي قبل هذا اكثر من مرة ان اجد في الصحف وصفاً للهجوم . وكانت الرسائل تشير دائماً تقريباً الى ان المحاربين ينهضون للهجوم بهذا الهتاف . ولكن كل هذا كان يبدو احياناً في الصحف سهلاً جداً وكنت افكر بانه عندما سيأتي دورنا ونهجم بالحراب فلا بد ان يكون كل شيء على غير ما تصفه الصحف . لا بد ان ينبعث من الحناجر شيء آخر ، شيء ضارٍ شرس من ــنوع « اضرب » او مجرد صرخة « آ . . . » . ولكن بورناشيف في تلك اللحظة العظيمة الرهيبة تقدم قاطعاً الف خيط من الخيوط التي تسمر الانسان بالارض تحت النار وهو يصرخ بهذه الصرخة بالذات :

ــ في سبيل الوطن ! الى امام !

وفجأة انقطع صوته وسقط هو على وجهه وكأنما تعثر بحبل ممدود تحت قدميه . وخيل الي انه سينهض الآن وسيواصل ركضه ويركض وراءه الجميع مشرعين امامهم الحراب .

ولكنه ظل مستلقياً مبعد اليدين ولم ينهض . وكان الجميع ينظرون اليه ، الى الملازم المنطرح على الثلج ، الذي حصد منذ خطواته الاولى ، وكان الجميع ينتظرون شيئاً .

ومرت من جديد ثانية توتر . ولم تنهض السلسلة .

ومن جديد هب احدهم ، ومن جديد تماوجت فوق الحقل ، مع طلقات الرشاشات ، نفس الكلمات ونفس النداء :

ــ في سبيل الوطن ! الى امام !

كان الصوت عالياً بشكل غير طبيعي ، كان الصوت غير صوته ، ولكن الجميع عرفوا من لهجته غير الروسية ومن قامته القصيرة النحيفة ، جندي الجيش الاحمر بوكييف .

ولكن هو ايضاً ، لم يكد ان يندفع حتى تهاوى . لقد اصابه الرصاص على الارجح في صدره او رأسه ، ولكن بدا وكأن منجلاً قاطعاً حصده من رجليه كما حصد من قبل الملازم بورناشيف .

توتر جسدي وتشنجت اصابعي وغوزت في الثلج . ومرت من جديد ثانية . ولم تنهض السلسلة .

وكان الرشاشان قد اصبحا يعملان ضدنا ، وكان اللهيب الطويل المرتج الخارج من فوهتيهما يرى في غسق المساء الخفيف بوضوح . وكان هذا اللهيب يلقي ضوءاً كامداً على جنود الرشاشات الذين كانوا ، وهم جالسون على ركبهم محميون حتى منتصفهم بالدروع ، يغطون اعادة تنظيم الالمان غير تاركين لنا فرصة للاندفاع بالحراب ، ومبقين ايانا في اماكننا بنارهم المسطحة .

اما رفاقنا الاربعون او الخمسون من جنود الجيش الاحمر الذين استطاعوا اختيار اللحظة لضرب العدو في ظهره ، فقد كانوا يقتربون نحو الالمان ، فيما كان هؤلاء قد انشأوا في الجهة الاخرى جبهة وفتحوا نارهم هناك ايضاً ، وظللنا نحن مستلقين مسمرين بالارض حاكمين بالموت على الحفنة القليلة من اخواننا الشجعان .

كان كل واحد منا قد توتر جسده مثلي ، ورغب في الاندفاع والهبوب ولكن احداً لم ينهض .

فما هذا ؟ وهل نبقى هكذا مضطجعين جبناء ونخون اخواننا ؟ ألن يوجد احد يندفع لثالث مرة الى امام ويجر وراءه السرية ؟

وفجأة شعرت ان جميع الانظار متجهة الي ، شعرت بان اهتمام

الجميع موجه الي انا الآمر الاعلى ، آمر الكتيبة ، وكأني انا نقطة القتال المركزية ولو كنت على طرف السلسلة . كان الجميع ، كما بدا ، ينتظرون ما سيقوله وما سيفعله آمر الكتيبة . واندفعت الى امام لاكون مثالاً يحتذى وانا مدرك بوضوح اني ارتكب حماقة .

ولكن تولستونوف امسك بي في الحال في قوة من كتفي وضغط على الثلج ولفظ شتيمة روسية .

ـ لا تكن احمق ، لا تفعل يا آمر الكتيبة ! انا . . .

وتغير في لحظة وجهه الفظ اللطيف معاً : فتوترت عضلات وجهه وتحجرت . ودفع نفسه عن الارض حتى ينهض بحركة سريعة ، ولكن جاء دوري الآن لامسكه من يده .

كلا ، لا اريد ان افقد تولستونوف ايضاً . لقد عدت الى رشدي واصبحت من جديد آمر كتيبة . واصبحت مشاعري السابقة اكثر حدة : وكان الجميع اطلاقاً كما بدا لي ينظرون الي من اطراف عيونهم . ولحظ المحاربون دون شك ان آمر الكتيبة اراد ان ينهض ولم ينهض ، وان القائد السياسي اراد ان ينهض ولكنه لم يفعل . وقال لي حدسي الذي يختص به الآمر في القتال دائماً ان اندفاعتي التي لم تتم اثارت الحيرة في نفس الجندي . فاذا اندفع الآمر ولم ينهض ، فمعنى هذا انه لا يجوز النهوض .

ان على الآمر ان يعرف ان كل كلمة منه وكل حركة وكل تعبير يظهر على وجهه ، في القتال ، يلتقطها الجميع وتؤثر في الجميع ، يجب ان يعرف ان قيادة دفة القتال ليست قيادة اطلاق النار أو تحركات الجنود ، وحسب ، بل هي كذلك قيادة الحالة النفسية .

لقد كنت عدت الى رشدي . طبيعي ان قيادة السرية مباشرة ليست من مهمات آمر الكتيبة . ولكني تذكرت وصية بانفيلوف : « لا يجوز

الحرب بصدور المشاة . . . احفظ جنودك . احفظهم بالعمل ، وبالنار . . . »

اني اقول لك كل هذا في مدة طويلة وفي تفصيل واسهاب ، ولكن ذلك لم يكن هناك ، في الحقل ، إلا ثواني معدودات . وفي تلك الثواني تعلمت كما تعلم الجميع كيف نحارب ، تعلمت ذلك من العدو ايضاً .

صرخت :

ــ نار سريعة على رجال الرشاشات ! من الرشاشات اليدوية دفعات طويلة على رجال الرشاشات ! الصقوهم بالارض !

وفهم المحاربون . واصبحت رصاصاتنا الآن هي التي تصفر فوق رؤوس الالمان . وكان احد رشاشاتنا اليدوية يقع على مسافة غير بعيدة . وكان قد سكت ايضاً بعد ان امرت بورناشيف بالانطلاق . وراح المحارب عند الرشاش يضع الآن خزنة جديدة . وزحف تولستونوف الى هناك بسرعة . واطلق المحاربون نيرانهم بصورة محمومة . واشتغل ذلك الرشاش ايضاً .

هاها ! انبطح رجال الرشاشات الالمان ، واختفوا وراء دروعهم ! هاها ! لقد اصبنا اذن احداً هناك ! فقد خرس احد الرشاشات ، ولم يعد يرسل لهبه الحاد الطويل . ام ترى يغيرون شريط الخرطوش . كلا ، ان هذا ليس بسيطاً تحت النار . . . واذن . . . فقد سنحت الفرصة لاصدر الامر ، ولكن الوقت لم يتسع لي . فقد اطلق تولستونوف فوق السلسلة صيحة ضارية :

ــ يا انصار الكومونة !

لم يكن هذا النداء موجهاً إلى الشيوعيين وحدهم ، بل إلى الجميع . ورأينا تولستونوف ينهض مع الرشاش ويركض مسنداً عقبه على صدره

ويطلق النار ويصيح وهو راكض . وللمرة الثالثة دوى فوق الحقل نداء ضار متأجج :

– في سبيل الوطن ! هورا !

وضاع صوت تولستونوف بين صيحات الآخرين . وهب المحاربون . واندفعوا نحو العدو في صياح وحشي ووجوه شوهتها الشراسة ، وسبقوا تولستونوف .

واستطعت ان الحظ عقب الرشاش اليدوي ، الضخم ، ذا المقطع الخاص ، وهو يرتفع إلى فوق ، – ذلك ان تولستونوف ، وقد افرغ خرطوشه ، امسك به من ماسورته الحامية ، ورفع فوق رأسه عقبه الثقيل كجذع السنديانة .

لم يقبل الالمان تحدينا بالالتحام ، لم يقبلوا القتال بالحراب ، بل اختلط حابلهم بنابلهم وولوا الادبار .

ولقد لحقناهم وقتلنا منهم من قتلنا واندفعنا نحن ، سريتنا الثانية وفصيلة الملازم اسلامكولوف ، الى قرية نوفلانسكويه من جميع الجهات ، واضعين بهجومنا من المؤخرة ، بداية ذلك الهجوم المعاكس الشهير .

نحن هنا!

١

ذهبت إلى القرية على آثار المحاربين . وكان هناك الطلق والهرج والمرج . وكان جنود الجيش الاحمر يطهرون القرية من الالمان المتخلفين .

وركض آبيل جيلبايف النحيف بكل ما تستطيعه رجلاه من سرعة ، دون ان يلحظني ، وفي يده البندقية نصف الاوتوماتيكية . وكانت اذيال

معطفه موصولة بحزامه ، وقبعته منفلتة يخفق لساناها اللذان يغطيان الاذنين ، اشبه بالجرو عندما ينطلق في الحقل مرعوباً .

واقترب جيلبايف لاهثاً من احد الرفاق ، وهو الآخر كازاخي ، وقال له وهو يشير باصبعه :

ـ يوجد هناك الماني . . . انه يطلق النار لتلحقه اللعنة . . . هيا بنا . . .

تكلما ورجعا راكضين معاً . واندفع آبيل في خط مستقيم ، متحمساً نشيطاً مشرعاً الى امام بندقيته نصف الاوتوماتيكية على استعداد . أما رفيقه فقد بدأ ينفصل عنه ـ لكي يأتي العدو من جانب على ما يبدو .

وفجأة وفيما كان آبيل منطلقاً بكل قوته اذا به يقف ويلتفت إلى رفيقه ويصرخ :

ـ اي ، موناربيك ، كيف يقال بالالمانية ؟ هولت أليس كذلك ؟

ضحكت . ذلك لاني منذ عدة ايام اصدرت امراً للكتيبة بان يتعلم كل فرد منها زهاء عشر كلمات المانية ، هي : « قف » ، « استسلم » ، « اتبعني » ، الخ . . ولكن لم يتسع الوقت للتحقق من ذلك .

وتوقف الرفيق ايضاً . وتصايحا بالكازاخية :

ـ ماذا قلت ؟

ـ هولت ، أليس كذلك ؟

ـ صحيح .

واندفع الصديقان فالحقتهما بالتصحيح :

ـ ليس كذلك يا جيلبايف ! هالت !

فنظر آبيل ورأى آمر الكتيبة وراح يركض ولسانا قبعته يخفقان . وضحكت انا من جديد .

كنت اسير واضحك ، مندهشاً لهذا الضحك الذي لا استطيع له ضبطاً . فقد تحول توتر القتال العصبي إلى هذا الانفلات .

– باورجان ! لماذا تضحك ؟

من هذا ؟ ان احداً لم يدعني باسمي منذ مدة طويلة . نظرت فرأيت الملازم محمدكول اسلامكولوف يقترب مني مبتسماً . فهرعت اليه . فرفع يده بالتحية العسكرية .

– ايها الرفيق الملازم الاول ! اني بحكم الظروف اوجد مع فصيلتي تحت تصرفك . خسارة الفصيلة قتيل واحد واربعة جرحى . آمر الفصيلة الملازم اسلامكولوف .

فاخذت يده بكلتا يدي وصافحته صامتاً . لقد تعارفنا منذ زمن طويل في آلما – آتا ، حيث كان محمدكول اسلامكولوف صحفياً يعمل في صحيفة « كازاخستان السوفييتية » . والآن رحت انظر إلى وجهه الجميل البرونزي اللون الضارب الى بياض ، بحب وحنان لم اعهدهما فيّ قبل الحرب . ورحت اتأمل فيه باعجاب وهو واقف امامي طويل القامة ممشوق القد مبتسماً .

لقد اثبت انه هنا ، في ساعة التجربة الحاسمة ، محارب حقيقي : جريء وداهية . فليس من السهل ان تخفي نفسك وراء العدو وان تنتظر اللحظة المؤاتية للهجوم عليه من خلفه صامتاً .

قلت له :

– نظم صفوف فصيلتك ثم تعال إلي في مركز الرئاسة . وهناك سنتكلم .

هدأ القتال . وهرب من سلم من الالمان الى ما وراء النهر قاطعين اياه في اماكنه الضحلة غاطسين في مائه البارد حتى الحزام ، بل حتى الصدر . اما من كان منهم بعيداً عن النهر فقد هربوا نحو التل الاحمر .

وفي ذلك الاتجاه كان محاربونا يطاردون الهاربين ، وكان وهج النار يتراءى بين الفينة والفينة في غسق المساء ، في الاماكن التي يقاوم فيها افراد محاصرون .

٢

وفجأة تطايرت مما وراء النهر ، من المكان الذي ذهب اليه معظم الالمان ، اسهم نارية للاشارة ، لم تضيء الشواطئ ، بل كل ما في الامر ان مياه النهر العكرة عكست ، بشكل غير واضح ، انواراً ملونة عابرة .

سهمان اخضران ، وسهم برتقالي وآخر ابيض ، ثم اثنان اخضران آخران . وبعد فترة انطلقت اسهم اخرى بنفس التركيب .

لا شك ان الالمان كانوا يبلغون عن شيء . ولكن ما هو ؟ هل هو ابلاغ عما حدث ؟ أم دعوة للنجدات او اشارة لهجوم جديد ؟

وظهرت الاشارات الجوابية الملونة في بقاع مختلفة .

القيت نظرة فاحصة على الافق الذي كانت تقطعه الانوار المتأفعية .

اوهو ! اين تغلغل العدو عليه اللعنة ! لقد كنا بين شدقي الوحش .

وظهرت الاشارات في تسفيتكي وجيتاخا وغيرهما من القرى الواقعة وراء النهر ، امام خنادقنا التي تخلى المحاربون عن قسم منها على مدى كيلومترين عندما اعادوا تنظيم صفوفهم ، — وهناك كانت الجبهة المفتوحة فاغرة فاها . وفي هذا الشط ، في الاتجاه المعاكس لتيار روزا ، كانت قرية التل الاحمر ترسل الاسهم النارية . وكانت هذه الاسهم تحلق بصورة مائلة ، الى الداخل ، فوق نوفوشورينو حيث كانت نهاراً رئاسة الالاي ، ثم تهبط باتجاهنا فوق ييميليانوفو فوق لازاريفو . . . ثم تمتد مسافة معتمة هادئة في سماء المساء : لا تشقها الانوار . . . ولكن هذه المسافة ضيقة الى حد الغرابة . وادرت ظهري نحو التل الاحمر فرأيت

ما اثار حيرتي . ذلك ان الاسهم النارية كانت تحلق ، كما بدا لي ، فوق قرية سيبونوفو ايضاً . فما هذا ؟ ان هناك كتيبة الكابتين شيلوف ، هناك مؤخرة هذه الكتيبة .

تفرقت الانوار شرارات ثم اعتمت ثم انطفأت . . . وساد الظلام على الفور .

كلا ، ليست هذه سيبونوفو . فبحساب الزمن ومن طبيعة الهجوم المتجه الى داخل ، يستدل ان العدو لا يمكن ان يكون قد وصل الى هناك . لا بد ان يكون الالمان قد لجأوا هناك ايضاً إلى حيلهم وألاعيبهم . ان شخصاً أرسل مسبقاً إلى المؤخرة يخوفنا باسهمه النارية . ولكن يجب ، يجب علي ان اكون الآن في مركز الرئاسة وان اتصل هناك بالكابتين شيلوف واستوضح منه امر هذه الاسهم النارية الغريبة عنده في مؤخرته وان اجهز اناساً للتفتيش . اعمل ، اعمل ، مُرْ بدوني يا رحيموف ! استوضح ، استوضح على عجل امر هذه الالاعيب هناك ، قرب سيبونوفو !

اننا في ضيق حتى بدون هذا . . . فجميع الطرق تقريباً ، المتقاطعة في نوفلانسكويه ، قد احتلها العدو . فاذا ارسل الى هنا ، من مختلف الجهات ، مشاته على سيارات الشحن أو مشياً على الاقدام ، تغير كل شيء هنا فجأة . انهم يضربوننا في ظهرنا ، ولن ينقذ احد محاربيّ الذين تبعثروا في الحقل في حماسة الهجوم .

فتشت عن كرايف ، وامرته بان يسحب السرية من القرية وان يتخندقوا في خط يعترض الحقل في المكان الذي بدأنا منه الهجوم ، ثم توجهت إلى الرئاسة .

وفي طرف الغابة ، حيث كانت توجد في الداخل قليلاً رئاسة الكتيبة ، كانت مدافعي الثمانية تختفي بين الاشجار .

وقد جيء بها الى هنا حسب الاوامر . فكانت مواسيرها الداكنة تنظر الى الطريق المؤدي من نوفوشورينو . واستدعيت الآمر .

– هل استوليت على الطريق ؟

– نعم ايها الرفيق آمر الكتيبة .

– دع الالمان يدخلون نوفلانسكويه اذا ظهروا .

– ندعهم ؟

– نعم . هل ترى القرية ؟

كان شارع القرية العريض المحفوف بشخوص البيوت الدكناء ، يمتد امامنا على بعد سبعمائة متر . ومن هنا كان يخرج المحاربون هاتفين بعضهم لبعض في طريقهم باحثين عن حضائرهم وفصائلهم .

– ارى .

– صوب على الشارع . دع العدو يدخل . وعندئذ اضرب مباشرة في الوجه .

– حاضر ايها الرفيق آمر الكتيبة .

ومرة اخرى تطايرت الاسهم النارية فوق الافق . الاولى فوق نوفوشورينو والجوابية من حولها . مرة اخرى قطعت الاشرطة الملونة صفحة السماء بعيداً وراء الغابة ، في تلك الجهة التي توجد فيها سيبونوفو .

ما هذا ؟ يجب الاسراع إلى مركز الرئاسة !

٣

دخلت إلى استحكام الرئاسة . فنهض الجميع . وعرفت فيهم اسلامكولوف .

ولكن شخصاً ، على مسافة بعيدة من المصباح ، في الزاوية ، ظل جالساً ، محدقاً بالارض ، وكأنما لا يرى شيئاً من حوله . ولم يكن على

رأسه قبعة ذات لسانين من النوع الذي نرتديه جميعاً ، بل عمرة ملونة بالاخضر ولها شريط احمر من الذي يحمله المشاة .

ـ الكابتين شيلوف ؟ هذا انت ؟

فنهض مستنداً إلى طرف المائدة . ورفع يده إلى رأسه بالتحية .

اني لا ازال اذكر اول انطباع تركه فيّ : لقد كان يتألم ويخفي المه . ماذا به ؟ جريح ؟ ولماذا هو هنا ؟

ـ ماذا بك يا كابتين ؟

لم يجب . فاعدت سؤالي :

ـ ماذا بك ؟ ماذا حل بالكتيبة ؟

ـ الكتيبة . . . ـ وارتعشت زاوية فمه عدة مرات . وبلع شيلوف شيئاً ، ثم قال : ـ الكتيبة محطمة .

ونظر إلي منتظراً الاسئلة . فتطلعت إلى عينيه . . . ولكنه ظل ينظر إلي وهو مستند بتثاقل الى المائدة .

ماذا اسأل ؟ « الكتيبة محطمة . . . » وانت ؟ انت ، آمر الكتيبة ، هربت ؟ ! كلا ، ليس الآن وقت ذلك ، ليس الآن وقت الاسئلة .

« الكتيبة محطمة . . . » وشيلوف في استحكامي ، في مركز رئاستي . . . فماذا يعني ذلك ؟ . . ذلك يعني ان الجبهة خُرقت من اليسار ايضاً . . .

وجلس شيلوف وعاد إلى تحديقه بالارض .

وقال رحيموف : ـ اسمح لي بتقديم التقرير .

قلت :

ـ تكلم .

٤

بسط رحيموف الخارطة . واشار وهو يقدم تقريره إلى النقاط الطوبوغرافية . وتتبعت بصورة آلية قلمه المبري بعناية كما هو شأنه دائماً . واسمى بصوت متزن الساعة والدقيقة التي حدثت فيها المصيبة .

ولكني كنت لا افقه ولا اسمع جيداً ما يقول . وكأنما كان صوت يقول من الاعماق : « هاجم العدو كتيبة الكابتين شيلوف على حين غرة وبلا تحضير بالمدفعية . وبعد هذا ، اندفع عند قرية سيبونوفو . . . »

وكنت اعرف ماذا حدث بعد ذلك . وعاد إلى ذاكرتي كل ما عشناه منذ قليل . خرج المحاربون من الخنادق . . . وكان بعضهم يقف في الممرات عند حفرهم ، واجتمع الآخرون مثنى وثلاث . . . وكان الجميع ينظرون إلى وراء ، حيث تفرقع البنادق الرشاشة وتتطاير خطوط النار الحمراء الطائشة . وكانت النفوس مضطربة . الى اين الذهاب ؟ فالالمان من امام ومن خلف . . . لحظة اخرى و . . . لا كتيبة ولا من يحزنون . . .

واصل رحيموف . ويبدو ان الطوابير الالمانية التي اندفعت عند المساء من جهتي منطقة كتيبتنا ، لم تطبق الكماشة بعد في الداخل . أما فرساننا الاستطلاعيون الذين أُرسلوا إلى المؤخرة ، فقد تعرضوا للضرب عدة مرات . ولكنهم في بعض القرى لم يلاقوا من يعترض سبيلهم اذ كان الالمان قد مروا بها ولم يدخلوها . وعبر هذه النقاط والدروب الفرعية يمكن الافلات . واشار رحيموف إلى هذا على الخارطة .

وازيل خط الدفاع السابق ، خط الحلقات الموصولة الحاجزة لموسكو . ومحت الممحاة اثر القلم وازالت الطبقة اللامعة التي على الورق ولم يبق على الخارطة إلا آثار تكاد لا تبين .

كانت جبهة الكتيبة التي رسمت على الخارطة من جديد ، محنية كحدوة الفرس . وكانت النهايتان مقطوعتين قطعاً ، كانتا كلتاهما مستندتين الى فراغ . بل كان ثمة جيران . كان جار اليمين الالمان . وكان جار الشمال الالمان . ومن وراء ، فوق المؤخرة المكشوفة ، التي وجه اليها رحيموف رشاشين وارسل مراكز الحراسة ، — كان ايضاً الالمان .

كان رحيموف يفترض ان الالمان انهوا يوم قتالهم بحلول الظلام . فقد كنا نعرف طريقتهم : النوم ليلاً والحرب نهاراً . والارجح انهم لن يجروا تحركات جديدة قبل الفجر . ويبدو ان البرزخ الضيق الموصل بيننا وبين وحداتنا الاخرى لن يُحتل حتى الفجر .

كان رحيموف يقدم تقريره بهدوء اعصاب ، وبطريقة رجال الاعمال ، غير مستعمل كثيراً من الكلمات . وكنت اقدر فيه هذا كل التقدير : اعني دقة التعبير . لقد كان دقيقاً حتى في الاشياء التي يجهلها ، اذ كان يقول عنها : لا اعرف . ولم يكن يعرف قوى العدو الذي اخترق من مكانين ، ولم يكن يعرف اين رئاسة الالاي وهل احتُلت او هلكت ، ولم يكن يعرف إلى اين تنسحب وحداتنا . ولكنه قرر ان ثمة ثغرة تؤدي إلى هناك ، الى وحداتنا .

كان قد اعطى التعليمات التمهيدية بدوني . فكانت الذخيرة والمئونة وادوات الهندسة والمركز الطبي قد اصبح جميعاً في العربات وتم تكدين الخيل .

لقد كان يعمل في الساعات الحرجة بسرعة وبتفكير : كان يقدم تقريره بلا اية حركة زائدة وبلا اي اضطراب عصبي في الصوت .

وكنت انا ملتزماً الصمت .

٥

كان يكفي ان اقول « نعم » ، حتى تتحرك الكتيبة المستعدة للمسير وتتملص من شدقي الوحش . ولكني التزمت الصمت .

ارجوك ان تفهم شعوري . لقد تكلم معي لساعتين خلتا بالتلفون آمر الالاي الماجور ايلين . واني لاذكر الحديث ، اذكر جميع الجمل المستعجلة المتلاحقة : « ماميش اوغلي ؟ هذا انت ؟ فات الاوان . لا تفعل . لقد تغلغل العدو . ثمة طابور يسير نحو رئاسة الالاي . سانسحب . الطابور الآخر ، مجهول العدد ، يقترب نحوك ، إلى الجناح . اطو الجناح ! قاوم ! وبعد ذلك . . . » وكأنما بانسة قطعت الصوت ، وانقطع الاتصال .

« وبعد ذلك . . . » ماذا بعد ذلك ؟ انسحب ؟

اني لاشعر بالخجل وانا اعترف ، ولكن كانت لحظة استسلمت فيها لخداع النفس المنحط . فكنت كأنما اقنع نفسي واقول لها : « لقد سمعت الكلمة التالية ايضاً ، لم تسمعها كاملة ولكن سمعت مقطعها الاول ، احرفها الاولى : وبعد ذلك انس . . »

اكاذيب ! لا تكذب ، لا تلجأ الى اللف والدوران امام ضميرك ! هل سمعت ام لا ؟ هل امرك الرئيسُ الاعلى ان تنسحب ام انه ليس لديك هذا الامر ؟

كان رحيموف ينتظر . كان يكفي ان اقول « نعم » ، حتى تتحرك الكتيبة المستعدة للمسير وتتملص من شدقي الوحش . ولكني التزمت الصمت . لم يكن لدي امر بذلك .

هل كان بوسع الماجور ايلين ان يقول « انسحب » ؟ نعم . فقد ابلغ بانه سينسحب هو . ولكن كان يستطيع ايضاً ألا يقول . لقد كان

الوضع غيره الآن لساعتين خلتا . فمن يسارنا لم تكن الجبهة مفتتة ، ولم تكن هناك ثغرة فاغرة فاها .

اما الآن ؟ اين الآن آمر الالاي ؟ « سانسحب » . الى اين ؟ ان الاتصال انقطع قبل ان يقول الى اين ، وفي اية جهة ، وعلى اي طريق ، اوبلا اي طريق ، انسحبت الرئاسة شبه العزلاء . فلم يبق لآمر الالاي احتياطي . كان ثمة رشاش عند الرئاسة ، وكان مجموع عددهم ، بما فيهم آمرو الرئاسة ، ثلاثين او اربعين شخصاً . هل هم احياء ؟ ربما كانوا مطوقين في مكان ما يصدون الهجوم ؟ او انهم يتسللون في الغابة في مكان ما سائرين الواحد بعد الآخر متوتري الاعصاب ؟ أو انهم اندفعوا إلى اليمين نحو الكتائب التي بقيت في تلك الجهة من التل الاحمر ؟

هل يعرف آمر الالاي ان كتيبتنا في الانشوطة ؟ لو كان يستطيع لأمر عشرين مرة على الارجح : « استغل الظلام وانسحب ، وعند الصباح قف امام العدو كما لو ان الارض تنشق عنك ، في خط جديد ! »

ولكننا معزولون منقطعو الصلة .

وكان رحيموف ينتظر . ومن وراء جدران الاستحكام ، كانت الكتيبة ايضاً تنتظر مستلقية في شكل حدوة .

وانا صامت ، ليس عندي امر بذلك .

٦

قال عامل التلفون :

ــ ايها الرفيق آمر الكتيبة ، يطلبونك . . .

ــ من ؟

ــ الملازم كرايف .

فاخذت السماعة . ولم تكن بي رغبة في الكلام مع احد : فقد استولى على روحي وجسدي عدم اكتراث غريب .

وقال كرايف ان العدو دخل الى قرية نوفلانسكويه من جديد بعد ان طهرناها ، وان اخبار المراقبين تقول ان اربع عشرة سيارة شحن محملة بالمشاة قد دخلت .

— من اين ؟ من اي طريق ؟

— من نوفوشورينو .

يبدو ان نوفوشورينو كانت مركز احتشاد للعدو . ومن هناك ارسل العدو المشاة الآليين ضدنا .

ودخل شخص . ولو كان الوقت غير الوقت لنظرت . . . ولكنني لم احس الآن برغبة في ان ادير رأسي لارى احداً واستمع إلى شيء واجيب بشيء . وقلت مغمغماً من فوق كتفي وانا ممسك بالسماعة :

— إلى رحيموف . . .

وذكر كرايف التفاصيل .

— تفرقوا في القرية ايها الرفيق آمر الكتيبة . اشعلوا الاضواء في البيوت . لم يموهوا النوافذ . ارسلوا عدة سيارات شحن صوب النهر . يبدو انها محملة بالجسور العائمة .

هل حقاً سيكون لدى الالمان اليوم جسر بدلاً من الجسر الذي نسفناه ؟ واذن فان الآلة الحربية الالمانية لم تهدأ في الليل ، بل تنجز عملها .

سألت : ألا يروننا ؟

كلا . . . ولكنهم من جهتنا تغطوا بالحراسة . ولعلهم نصبوا الرشاشات في مكان ما . انهم على ما اعتقد لن يذهبوا قبل الصباح ايها الرفيق آمر الكتيبة .

كان كرايف على عادته ، يتكلم وكأنه يلهث . ولقد سكت ولكن انفاسه كانت مسموعة في السماعة . لقد كان كرايف ايضاً ينتظر شيئاً مني ، يريد مني كلمة .

ولكن ماذا كنت استطيع ، ماذا كان يجب علي ان اقول له ؟

٧

قلت :

ــ حسناً .

ووضعت السماعة .

كان شيلوف جالساً في الزاوية لا يتحرك ولا يغير وضعه . وعلى مقربة من المصباح كان يقف اسلامكولوف متهيأ جدياً .

سألت : ــ اين رحيموف ؟

ــ خرج إلى الاستطلاعيين الذين اتوا باخبار . . .

ــ وماذا هناك ايضاً ؟

ــ لا اعرف . . . في الظاهر لا شيء خارق للعادة .

نظرت الى اسلامكولوف نظرة طويلة كئيبة . وكدت اسأل : « هل تفهمني ايها الصديق ؟ » واجابت عيناه السوداوان المرهفتان الذكيتان : « افهم » .

وقال اسلامكولوف :

ــ اعتقد اننا سنخرج من هذه الورطة يا باورجان . . . ــ وابتسم .

كلا ، انه لم يفهمني .

اجبت بفظاظة :

ـــ حاول ان تبقي رأيك . اني لم اعقد ايها الرفيق الملازم ولا اعتزم ان اعقد مجلساً حربياً .

فنصب قامته .

ـــ المعذرة ايها الرفيق الملازم الاول . . . اسمح لي بالانصراف ؟

ولكن الذنب لم يكن عليه بل علي . فقد استسلمت للضعف ، واظهرت حيرتي بنظراتي ، وطلبت بعينيّ : « ساعدني » . لقد جرحتك يا اسلامكولوف ، ولكني عنفت نفسي وصرخت فيها .

وقلت بلهجة مصالحة : اجلس !

٨

يقول مثل كازاخي قديم : « ان الاستقامة اقوى من الموت » . ولثلاثة اشهر خلت القيت في دسكرة تالغار قرب آلما ـــ آتا ، في يوم قائظ من ايام تموز ، اول خطاب لي امام الكتيبة ، امام بضع مئات من الناس كانوا لا يزالون في الالبسة المدنية ، امام هؤلاء المستلقين الآن مع البنادق على الثلج ، على الارض الباردة قرب موسكو . ولقد ذكرت لهم آنذاك هذا المثل ، هذه الموعظة من مواعظ الجندي .

وهناك ايضاً ، في آلما ـــ آتا ، تكلم بانفيلوف معي مرة في الليل ، وكان الجميع عدا المناوبين ، نائمين في البيت الكبير ، في مركز رئاسة الفرقة . وكان بانفيلوف في الساهرين . كان في تلك الساعة المتأخرة قد دخل الى غرفة المناوب متعباً ، غير مرتد سترة الجنرال ، يسير في قميصه الداخلي والمنشفة على يده . وكنت انا في المناوبة . « اجلس ، ايها الرفيق ماميش اوغلي ، اجلس . . . » وجلس هو . وبدأ حديثه الذي اذكره جيداً . وبعد عدة اسئلة قال بانفيلوف مفكراً : «نعم ، ايها الرفيق ماميش اوغلي ، لن يكون سهلاً عليك ان تقود الكتيبة » . وقد جرحني هذا القول .

فانفجرت قائلاً : « ولكني استطيع الموت باستقامة ايها الرفيق الجنرال » .
— « مع الكتيبة ؟ » — « مع الكتيبة » . فضحك . « اشكرك على هذا الآمر. انك تقول بسهولة : سأموت مع الكتيبة . في الكتيبة ، ايها الرفيق ماميش اوغلي ، سبعمائة شخص . فاعرف كيف تخوض عشر معارك وعشرين معركة وثلاثين معركة ثم تحافظ على الكتيبة . على هذا سيقول لك الجندي : شكراً ! » .

وكذلك الكلمات الاخيرة التي سمعتها منه لعدة ايام خلت ودوت كوصية من الوصايا ، والتي قالها عندما افترقنا ، كانت بنفس المعنى : « حافظ على الجندي . فهنا ، عند موسكو ، لا توجد لدينا قوات اخرى ولا جنود آخرون . فاذا فقدنا هؤلاء لم يبق ما نصد به الالمان » .

لماذا اتعذب؟ ان رحيموف هيأ كل شيء ، واصبحت الاحمال في العربات ، وما علي إلا ان اقول : « فليكن ! » حتى تتحرك الكتيبة وتبقى سليمة .

لم يكن لدي امر ، ولا اتصال بالراديو . ولكن في تلك اللحظة ، والجبهة مخروقة مكسرة ، والالمان يسيرون الى فولوكولامسك في طابورين منتشرين في الداخل ، مستولين على الطرقات ، قاطعين خطوط التلفون ، محطمين ادارتنا ، هل كان بوسعي ام كان من حقي ان انتظر ان يدخل ضابط الاتصال ويسلمني الامر ؟

وماذا لو لم يهتد الى الطريق وقابل الالمان في كل مكان ؟ ماذا لو كان قد قُتل ؟ ماذا لو ضل وهو يسير بلا طريق ؟

وخيل الي طول الوقت ان دعوة بانفيلوف تصل اليّ خلال الليل وتقرع دماغي . ولم استطع ان اطرد عن نفسي احساسي باني اسمع — أو الافضل ان اقول : التقط أو اتقبل ، — كيف يدعوني من بعيد ويعيد علي قائلاً : « اخرج ! واخرج الكتيبة ! ثمة حاجة اليك لتغطية موسكو ، ولتغطيتها بسرعة ! فاخرج بسرعة ! » .

وصور لي الخيال كيف سيتقبلنا بسرور ويضغط على يدي ، ويسأل : « هل الكتيبة سليمة ؟ » — « نعم ، ايها الرفيق الجنرال . . . » — « والمدافع والرشاشات ؟ » — « معنا ايها الرفيق الجنرال . . . » .

كلا ، لعن الله الوهم ! وحاولت ان اخنق هذا الصوت وهذه الدعوة . يا للعنة ! ان هذا صوفية ، ان هذا ايحاء ذاتي . وليس من حق الآمر ان يستسلم لصوته الباطني . ان له عقلاً يفكر .

ولقد قال بانفيلوف : « يجب القتال بالعقل » .

٩

وتذكرت كل كلمة قالها بانفيلوف في آخر لقاء لنا .

« . . . اننا لن نستطيع وقف العدو بخيطنا » .

« . . . كونوا مستعدين للانضمام بسرعة والتحرك بسرعة » .

« اعملوا بحيث يجد قواتنا امامه على الطرقات في كل مكان وحيثما ذهب » .

وتذكرت لولب بانفيلوف الحلزوني .

لقد اطلعني بانفيلوف على افكاره اثناء لقائنا عند الكابتين شيلوف . واراد ان افهم انا آمر الكتيبة مشروع عملياته هو آمر الفرقة . اراد ان اعمل بعقل في اوضاع القتال المتغيرة وبين هزات المعركة وزعازعها ، وان افهم واحزر ، - وهذه الكلمة في محلها هنا ، — ما ينتظره مني ذلك الذي يدير القتال .

وليس هذا بدعوة صوفية ولا وساوس شيطانية ولا ايحاء ذاتي .

فما تباطؤي ؟ كفاني عذاباً . يجب ان انفض عن نفسي هذا الضعف اللعين . انهم ينتظرون كلمتي . فيجب اعطاء الحل . يجب اعطاء الامر .

١٠

وعاد رحيموف .

ــ ما هناك ؟

ــ نبأ سيء قليلاً . لقد احتل العدو دولغوروكوفكا .

ــ دولغوروكوفكا ؟

ــ نعم . . . على الطريق الذي كان حراً : لقد دخلت كما قيل لي جماعة صغيرة من اربعين شخصاً تقريباً ، فصيلة .

واشار رحيموف الى موقع دولغوروكوفكا على الخارطة . ورسم دائرة زرقاء داكنة عند انحناءة زقاق ضيق متعرج مرسوم بخط منقط احمر قليل الوضوح . لقد انسد البرزخ .

واذن . . . فان العدو لا يضيع وقته . ولا تزال التحركات مستمرة . ان الآلة الحربية الالمانية لم تهدأ بعد في الليل ، بل تدور .

واستمر رحيموف يقول : تكلمت مع رجال الاستطلاع . اسمح لي ان اعرض عليك اعتباراتي . . .

ــ هات .

فقال رحيموف ان طبيعة الارض ستسمح في رأيه بالعمل على وجهين . فيمكن ، قبل الوصول إلى دولغوروكوفكا بكيلومتر ونصف ، الانعطاف في الحقل ثم الدوران حول القرية باتباع مكان خلاء بين غابتين ، حيث لا وهاد ولا جذوع اشجار مقطوعة ، حيث يسهل امرار المدافع والاحمال والمشاة . وبعد القيام بهذه اللفتة يمكن الخروج ثانية الى الطريق . ويمكن ايضاً ، بلا شك ، ابادة الجماعة الموجودة في دولغوروكوفكا ، ولكن لا اظن ان هذا يحدث بلا ضجيج ، وعندئذ يتنبه العدو . . .

قلت : — من الذي استطلع الارض هناك . ليأت الى هنا في الحال .
ففتح رحيموف الباب وهتف لاحد ، ودخل الى الاستحكام مستعجلاً الملازم برودني .

١١

الملازم برودني ! هو نفسه الذي صرخت فيه لعدة ايام خلت : « جبان ! لقد سلمت موسكو ! » هو الذي طرد من الكتيبة وعاد ادراجه لجهة العدو ، وجلب معه عند الصباح اسلحة واوراق المانيين قتلهما في الليل ، جلبها ووضعها امامي كما يضع شرفه المفقود . فعينته ، — هل تذكر ؟ نائباً لآمر فصيلة الاستطلاع .

— ايها الرفيق آمر الكتيبة ، لقد مثلت بناء على دعوتك .

ووقف ينتظر الاسئلة ، سريع النظرات نشيطاً متورداً .

ونظرت اليه منفعلاً ؛ ففيه ، فيه صرخت حديثاً : « جبان ! انك سلمت موسكو ! » هكذا اذن ما يحدث عندما ينسحبون بلا امر . ان كل شيء هنا ، المرثيات والنداء التنويمي ، والتفكير بالجنود والمحاكمات المنطقية — كل شيء يؤدي الى نتيجة واحدة ، كل شيء يأمر قائلاً : انسحب !

هذه هي القضية اذن ! واذن فان التفكير يجرني الى تلك النتيجة ايضاً ، واذن فانه يخدم الرعب نفسه .

لم يكن ثمة امر بالانسحاب ، فاللعنة اذن على التفكير ! كلا ، لست محقاً ! ألم يكرر علينا بانفيلوف قوله بان الآمر ملزم دائماً وفي كل الظروف ، ان يفكر ويزن الامور بعقله ؟

وحاولت من جديد تصور وضع الفرقة بعد تغلغل الالمان ، حاولت تصور تصرف بانفيلوف وخطته الدفاعية . لقد اسمعني من مدة غير

بعيدة انه « ليس الخط هو الهام ، بل الطريق » . ان الطريق المارة بنوفلانسكويه كانت موكولة الينا ، الى كتيبتي . وبانفيلوف يعرفنا ، يعرفني . وقد يكون في هذه اللحظة بالذات يفكر هكذا : ان كتيبة ماميش اوغلي لن تتخلى عن الطريق ولن تذهب بلا امر . وقد يكون هذا داخلاً الآن في حساباته وهو يناور بقواته القليلة ويقيم سواتر من القوات ويحرك الوحدات حتى يلحم الجبهة في الداخل .

ولكن ماذا اذا لم يكن الامر كذلك ؟ ماذا اذا لم تكن القوات لدى بانفيلوف كافية لسد التغلغل ؟ ماذا اذا كان يحتاج اقصى الحاجة وعلى الفور الى كتيبتنا ؟ ماذا اذا كان الامر بالانسحاب قد اُرسل ولكن ضابط الاتصال لم يستطع الوصول الينا ؟ لا اعرف . لا اريد ان افكر بهذا . الامر غير موجود وانتهى .

لم اكشف بشيء عن ترددي الذي كان يمزقني منذ لحظة . ان آمر الكتيبة هو وحده الذي يعرف امر تردده . انه في الكتيبة الآمر الناهي الوحيد . انه هو الذي يقرر وهو الذي يملي ارادته . ولقد قررت .

١٢

قلت : هل انت مستعد للذهاب يا بروذني ؟ هل استطلعت الممرات ؟

فاجاب متحمساً :

ـ هذا ، ايها الرفيق آمر الكتيبة ، اسهل علي من شرب الماء . . . ساذهب واعود . . . سنستطيع المرور قرب دولغوروكوفكا على وجه التأكيد .

فنهض الكابتين شيلوف في اندفاع . وكان قد قضى بعض الوقت وهو جالس رافع الرأس يستمع الى ما يقال .

ـ ايها الرفيق الملازم الاول . . . معي هنا بضعة من محاربي يرجون استخدامهم في الجماعة التي ستذهب في الطليعة عندما ستشق الكتيبة لنفسها طريق الانسحاب .

كان من جديد يتكلم في شح . ولما نطق بجملته اطبق شفتيه بقوة كأنما يمسك كلاماً يهم بالخروج . ولم يحاول بكلمة واحدة ان يبرر مسلكه .

وكان جوابي قصيراً :

ـ لن اشق طريق الانسحاب ، اذ ليست لدي اوامر .

فسكت الجميع كما يجب ان يسكتوا عندما يعلن الآمر قراراً . وهكذا بجملة واحدة شطبت مقررات رحيموف التي اتخذها بدوني ، ولكن وجهه الجاف البارد لم يعبر عن شيء إلا الانتباه . وكان يقف مائل الرأس قليلاً ، مستعداً كشأنه دائماً لان يستمع ويعي وينفذ .

وواصلت كلامي :

ـ ساحارب ضمن الطوق . . .

ان نظام الجيش الاحمر ، كما قلت لك سابقاً ، يلزم الآمر ان يقول عن وحدته « انا » . وما « انا » الآمر الا جنوده . اي انهم سيحاربون ضمن الطوق .

ـ يترتب عليك ايها الملازم برودني ان تقوم هذه الليلة برحلة بين الالمان . ستذهب انت وكورباتوف .

واشرت على الخارطة الى عشر او اثنتي عشرة قرية يمكن ان تكون فيها رئاسة الالاي .

وقلت لبرودني : ـ اذا كان الالمان في هذه القرية فاذهبا الى التالية واذا كان العدو هناك ايضاً فواصلا مسيركما . ان مهمتكما الا تدعا تحت الرصاص . جدا رئاسة الالاي وابلغا عن الموقف ثم عودا الى هنا مع الامر .

— حاضر ايها الرفيق آمر الكتيبة .

وانصرف .

واقترب الكابتين شيلوف من الخارطة .

— ان مدافعي هناك .

قال ذلك في جهد .

— اين ؟ منسوفة ؟

— كلا . . . بل متروكة في الغابة . . . .

وعلم على الخارطة بالقلم .

— كم ؟

— ستة مدافع . . . واربعمائة قذيفة .

قلت : اسمع يا كابتين . ما رأيك لو جربنا سحبها من هناك ؟ خذ خيلي وخذ رجالي . هل تذهب ؟

ابتسم شيلوف بكآبة — من جانب واحد من فمه .

— كلا ، لست الآن بمستطيع المشي . . .

وادار ظهره ورفع طرف معطفه ، فرأيت بنطلوناً مفتوقاً واحذية مخرقة . وكانت رجله المنتفخة مضمدة . والدم يتراءى عبر الشاش بل لقد وصل الدم الى قماش بنطلونه .

سألت : هل ذهبت الى المركز الطبي ؟ هل العظم سليم ؟

— ومن يدري. . . المحاربون هم الذين ضمدوني والمدافع تركوها —
— اللعنة على هذا كله — كانت هذه اول شتيمة قوية تصدر من فم شيلوف اخيراً ، — وحملوني انا . . .

وجلس في تثاقل على الاسكملة دون ان يحني ركبة رجله المصابة .

فصحت : سينتشنكو ! — حمالات ! بسرعة !

وسكت شيلوف طويلاً ثم قال :

ـ ها اني كما ترى جالس افكر بالكتيبة ولا استطيع ان اعرف : هل كان تحطيم الكتيبة نتيجة منطقية ؟ نعم ، ان المحاربين قد اسيء تدريبهم . . .

وشتم مرة اخرى ، ثم واصل كلامه بقوة لم اكن انتظرها منه وهو ينظر إلي :

ـ هل تظن اننا جميعاً هربنا كالخرفان ؟ كلا ، ان سريتين حاربتا ببسالة . . . ثم انهم لم يتركوا آمرهم ، اذ . . .

واطبق على شفتيه مرة اخرى ولم يتم كلامه .

جيء بالحمالات إلى الاستحكام . وخرج شيلوف مستنداً إلى سينتشنكو .

١٣

وامرت اسلامكولوف ان يذهب بفصيلته ليدور حول قرية دولغوروكوفكا .

لم تكن هذه الوحدة تابعة للكتيبة ، فلم ار من الممكن ان استبقي عندي اربعين او خمسين محارباً، ما دمت اعرف ان بانفيلوف يبذل الآن كل جهوده ليسد الطريق بقواته القليلة امام العدو المتغلغل ، وان كل حضيرة وكل فصيلة ضرورية الآن لبانفيلوف .

فاحمر وجه اسلامكولوف ، وحاول ان يعترض . ونطق فيه ميله النبيل إلى تقاسم النصيب . ولكني لم اسمح له بالاعتراض .

وسأل رحيموف :

ـ هل ندخل الى الغابة ؟ هل الدفاع عند طرف الغابة ؟

ـ نعم .

واخذ رحيموف ورقة ، دون ان يسأل بعد ذلك اي سؤال ، وخط بسرعة عليها معالم الغابة ، واخذ يعلم عليها قطاعات السرايا من خط الدفاع الدائري .

وخرجت مع اسلامكولوف إلى الهواء الطلق .

وكان الوقت مظلماً وهادئاً . ولم تكن المدافع تهدر في اي مكان ، كما لم يكن يُسمع صوت قتال لا من قريب ولا من بعيد . وكانت النجوم تلمع فوق الغصون السوداء .

قلت : اذهب ، فهناك الحاجة اليك اكبر .

فقال في تردد :

ــ باورجان . . .

وسمحت بسكوتي ان يدعوني هكذا في لحظة الوداع . فاعاد كلمته بجرأة اكثر :

ــ باورجان ، اذا كان الامر كذلك فعلاً ، اذا كانت الحاجة هناك إلى فصيلة واحدة اكبر ، فان الكتيبة . . . فكر بنفسك في الامر . . .

ــ لا استطيع يا اسلامكولوف . لا يحق لي ذلك ، ولن افكر . اذهب !

ولم نتعانق . فذلك غير مألوف عند شعبنا .

١٤

اعد رحيموف في عدة دقائق مخططاً تقريبياً : كانت فيه غابتنا المنفردة ــ حسب التعبير المحلي ــ جزيرة ، والقرى القريبة واطراف الغابة القريبة ــ طرقات . وكان رسم الجزيرة ينقسم إلى قطاعات السرايا . وفي الوسط علامة لبيت الناطور الذي اقيم فيه المركز الطبي . وكان البيت ، كما عرفنا ، واسعاً نوعاً ما ، ورسم رحيموف هناك ، بموافقتي ، راية

صغيرة ــ اي اننا نقلنا الى هناك ، إلى النقطة المركزية ، مركز قيادة الكتيبة .

رسم التصميم مباشرة على الورق مع اربع نسخ تحت الكربون مباشرة ، لتوزيعها على آمري السرايا . وقال رحيموف وهو يقدمها لي لتوقيعها :

ــ سنتخندق ليلاً دون ان يلحظونا . وفي الصباح ايضاً اظن انهم لن يلحظونا .

فشعرت بلسعة .

آه يا رحيموف ! انه لينقصه شيء حتى يكون آمراً بله رئيس مركز رئاسة .

قلت : عامل التلفون ! ادع لي البطارية . . .

ــ حاضر ايها الرفيق آمر الكتيبة . . . تكلم ايها الرفيق آمر الكتيبة . فآمر البطارية على الخط .

فاخذت السماعة .

ــ هل تراقبون العدو؟ هل الالمان في القرية ؟

ــ نعم ايها الرفيق آمر الكتيبة . تركتهم يدخلون كما امرت .

ــ ماذا يفعلون ؟

ــ يصنعون جسراً عند النهر على ضوء النيران . والآخرون في البيوت او عند الآلات في الشارع .

ــ هل المدافع مصوبة ؟

ــ مصوبة .

ــ اطلق ناراً مباشرة باربعين قذيفة دفعة واحدة ، حتى تطير عقولهم .

ــ حاضر ايها الرفيق آمر الكتيبة ، اربعون قذيفة دفعة واحدة .

وبعد دقيقة نقلت قشرة الارض ، بشكل داوٍ ، صوت طلق المدافع الى سردابنا .

لم اكن ارغب في ألا يلحظونا .

وانداح هدير المدافع على غير انتظار فوق الحقول الساكنة وابتعد في الظلمات ينبئ باننا هنا .

اهجموا علينا ! التفتوا صوبنا ، ووجهوا الينا مدافعكم ومشاتكم ، واضربوا من الجو ـ اننا هنا !

اننا في عزلتنا ، في وجودنا بين فكي الكماشة ، لم نذهب مهما اغرتنا بالذهاب تلك الطريق الحرة الاخيرة ، ذلك البرزخ الضيق الذي لن يبقى حتى الصباح .

لقد بقينا لا اكي نختبئ ، بل لكي نربط الينا العدو ونحول الينا الضربات المعدة ضد اولئك الذين يسدون المنافذ على موسكو عند خط جديد .

لقد كانت مدافعنا تضرب الهدف المرئي بصورة مستقيمة من مسافة سبعمائة متر . وكانت كل طلقة تنبئ باننا هنا ولم نذهب .

وفي مكان ما لا نراه تسمعنا رئاسة الالاي . في مكان ما رفع ايفان فاسيليفيتش بانفيلوف رأسه وشمر حاجبيه وقال في غبطة : « اوهو ! » .

ودعوت مرة اخرى آمر البطارية للتلفون .

ـ كيف حال الالمان ؟ هل طيرتم عقولهم ؟ اطلقوا طلقة اخرى ! على البيوت بقنابل شديدة الانفجار .

وخرجت من الاستحكام .

كانت المدافع تفرقع من مسافة قريبة . وظهر في السماء بريق ابيض . عليهم ، عليهم !

وعاد الظلام والهدوء الى الغابة . . . وفجأة ، انداحت ، كالصدى البطيء ، ضربات صماء من مدافع اخرى . فارهفت سمعي ورحت اصغي في ظمأ . واطلقت المدافع صوتاً آخر . لقد كانت تهدر على بعد عشرة كيلومترات تقريباً إلى اليمين . وكأنها (لقد كان صعباً تعيين موقعها بتحديد) ، كأنها على خط الكتيبة ، على خط روزا . ووصل من ورائنا ، من الداخل ، صوت بعيد جداً ولكنه قوي طويل . وتراءى كأنما احد في تلك الجهة نقر على الاوتار الغليظة الممتدة في السماء دون ان ترى . انها مدافع « كاتوشا » ! ان الالمان يتعرضون في ليلتهم هذه ، في مكان ما بعيد بعيد ، لمئة القذائف التي تطلق دفعة واحدة وتثير عند انطلاقها هذا الهدير .

انداح الهدير . . . وعاد الهدوء والظلام الى الغابة . . .

في بيت الناطور

١

كان بيت الناطور ينقسم الى قسمين بواسطة ممشى كبير مبني بالعوارض الخشبية . وقد نقل جميع الجرحى إلى احد النصفين ، وفي النصف الآخر الذي مدت اليه خطوط التلفون ، اجتمع الآمرون والقادة السياسيون الذين دعوتهم .

قلت :

– اسمعوا اوامري . اولاً ان الكتيبة مطوقة . وقراري ان نحارب ضمن الطوق حتى تلقي الامر بالانسحاب . قطاعات الدفاع الدائري اشير اليها لآمري السرايا . يجب ان نعمل ليلاً حتى يكون كل محارب قد انتهى قبل طلوع الفجر من حفر خندق كامل . ثانياً ، يجب ألا

نسلم انفسنا كاسرى وألا نأسر احداً من العدو . امنح جميع الآمرين الحق في اعدام الجبناء على الفور . ثالثاً ، يجب توفير الذخيرة . امنع استعمال البنادق والرشاشات على مسافة بعيدة . ولا يجوز اطلاق النار إلا اذا كانت الاصابة مؤكدة . يجب اخذ البنادق والخرطوش من الجرحى والقتلى . يجب اطلاق النار حتى الخرطوشة قبل الاخيرة . اما الاخيرة فهى لانفسنا . رابعاً ، يجب على المدفعية ألا تطلق نيرانها إلا مباشرة وعلى الهدف الحي . ويجب اطلاق النار حتى القذيفة قبل الاخيرة . اما الاخيرة فهي لنسف المدفع . خامساً ، آمر ان تعلنوا هذا كله للمحاربين .

٢

لم تكن هناك اسئلة . فامرت ان يبقى بوزجانوف القائد السياسي لسرية الرشاشات . وانصرف الآخرون .

ــ بوزجانوف ، اين نسورك ؟

ــ هنا ايها الرفيق آمر الكتيبة ، قرب الرئاسة .

ــ كم عددهم ؟

ــ ثمانية .

كانوا بضعة من المراسلات وطقم رشاش بلوخا ــ حفنة من الرجال كانت ، في القتال الذي جرى مؤخراً ، ضربت بخنجر ناري سلسلة عدو متقدمة بعد ان تركتها تقترب .

قلت : ــ انطلق بهذه الجماعة إلى الالمان .

ثم بسطت الخارطة واشرت إلى علامة بالقلم تركها الكابتين شيلوف . كانت هناك ، وسط الغابة ، مدافع وقذائف متروكة . فبينت انه تجب المحاولة لسحبها من تحت انف العدو .

ــ خذ خيلاً وادوات تكدين وحوذيين . واعمل بمكر وهدوء . . .

وقال بوزجانوف مبتسماً : ـ اكساكال . . .

ـ ماذا ؟

ـ لقد اردت ، اكساكال ، ان ارجوك شيئاً . ليكن هؤلاء الرجال وحدة تابعة لي .

لقد قلت من قبل ان الرشاشات أُعطيت لسرايا القناصة ، ولم تبق في الكتيبة ، حقاً ، سرية الرشاشات الخاصة التي كان بوزجانوف قائداً سياسياً لها .

ـ ماذا ستكون هذه الوحدة ؟

فاجاب بوزجانوف بسرعة .

ـ احتياطياً لآمر الكتيبة . . . . لك ، اكساكال .

فقلت : ـ حسنا يا آمر الاحتياطي هيا بنا الى « وحدتك » .

٣

كان ضوء القمر الكامد يتغلغل في الغابة .

ـ قف ! من هناك ؟

فسأل بوزجانوف مجيباً : ـ مورين هذا انت ؟

ـ انا ايها الرفيق القائد السياسي .

كانت « وحدة » بوزجانوف كلها قد لطت تحت شجرة شوح واحدة . وكان المحاربون نائمين لاصقين بعضهم ببعض ، متكومين على انفسهم ، مغطين اجسادهم ورؤوسهم بقماش الخيام المشمع متدفئين باوراق الشوح الابرية .

كان مورين هو المناوب وكان الى جانب هرم البنادق رشاش يلمع سواده .

قال بوزجانوف : ـ يجب يامورين ايقاظ الرجال .

كان النعاس عند غاليولين العملاق اقوى منه عند الآخرين . فنهض قليلاً وجلس ثم اندس من جديد في فراش ورق الشوح الطري . فاخذ الآخرون يهزونه .

وامر بوزجانوف بصوت غير عال : —

— خذوا بنادقكم ، اصطفوا !

ونظر الى الصف القصير وخطا نحوي وقدم تقريره .

فقلت : — اعلن اوامري .

فبدأ بوزجانوف مقترباً من الصف :

— ايها الرفاق ، ان الكتيبة مطوقة .

ثم عرض الاوامر نقطة نقطة بصوت خفيض كالسابق : احتلال خط الدفاع الدائري ، عدم الوقوع في الاسر ، توفير الذخيرة ، عدم الاطلاق الا عند التأكد من الاصابة ، اطلاق النار حتى الرصاصة قبل الاخيرة ، والاحتفاظ بالرصاصة الاخيرة للانتحار .

وكرر قوله في بطء وكأنه يزنه : — الرصاصة الاخيرة للانتحار . اذا شئت الحياة فقاتل حتى الموت .

كان بوزجانوف يستنبط احياناً امثال هذه الجمل البليغة . انك ترى اليه ينطق بالكلمة العابرة واذا بها زاخرة بالفلسفة والحكمة . . . ولقد لاحظت هذا في الحرب عند كثيرين غيره . ان الجندي الحق الذي تجندت عنده في الحرب والقتال كل خلايا دماغه ، يستطيع ان ينطق بالحكمة . اقول : الجندي الحق .

وتابع بوزجانوف :

— لدينا مدافع ورشاشات ، ولدينا الاخاء في القتال . . . فحاول الاقتراب . . .

قلت :

ـــ اعلن ايها الرفيق القائد السياسى مهمات الجماعة .

فشرح بوزجانوف على مهل انه يجب الذهاب الى مواقع الالمان لنيل المدافع المتروكة في الغابة .

قلت لما انهى كلامه : ــ تستطيعون التفرق . استعدوا ، تحققوا من السلاح . واجمعوا حوائجكم . ولكن قبل ذلك اقتربوا من هنا ايها الاصدقاء .

فهرعوا الي في لحظة ، الا مورين الطويل الذي بقي حارساً عند الرشاش . ولكنه هو الآخر كان فارغ الصبر على الاستماع . فاشرأب بعنقه ولمعت نظاراته تحت ضوء القمر . « ايها الاصدقاء ! » تلك اول مرة دعوت فيها جنودي بهذا الاسم . فلم يكن ليعجبنى ان يدعى الجنود : « ياشباب » او « ياجماعة » . احذروا يا « شباب » . هل ترانا نلعب ؟ أما كلمة « اصدقاء » فهى شيء آخر .

ـــ لقد حاربتم اليوم ايها الرفاق جيداً وبدراية .

لم يكونوا واقفين في صف . ولذلك لم يكن يترتب عليهم ان يجيبوا جوابا مشتركاً . فلم يقل احد شيئاً .

ـــ والآن اعملوا على ان تسحبوا بهدوء تلك المدافع والقذائف . وعندئذ سنكون اغنياء .

فقال موراتوف :

ـــ ايها الرفيق آمر الكتيبة ، يجب ان نأخذ معنا سجقات .

اراد على ما يظهر ان يُضحك ، ولكن احداً لم يضحك . وسارع التتاري القصير الى القول :

ـــ اني ايها الرفيق آمر الكتيبة لا امزح . فقد يكون لديهم هناك دبابات .

فقال بوزجانوف في غير رضا : ــ ماذا تخترع يا موارتوف .

ـــ ماذا تقول لي ؟ اني ايها الرفيق آمر الكتيبة جاد فيما اقول . انهم ينامون في الدبابات ، وسمعت انهم يربطون اليها الكلاب ليلاً .

فقال بلوخا في صرامة : — لا تثرثر عبثاً .

لم يكن ذلك عبثاً . فبالفعل يجب التفكير بالكلاب ، ولكن تلك اللحظة كانت تتطلب كلمات اخرى وحديثاً آخر . ولم يجد احد الكلمات وسكت الجميع .

قال مورين : — هل تسمح ايها الرفيق امر الكتيبة ؟

فارهفت سمعي ، ولكن مورين قال في بساطة :

— لمن نعطي الرشاش ؟

وتذكرت كيف جاء إلي لاول مرة منذ ثلاثة اشهر ، في السترة ، وربطة العنق المائلة قليلاً الى جانب ، والنظارات ، طويلاً ، اخرق ، لا يعرف كيف يقف امام الآمر واين يضع يديه الرفيعتين اللتين لم تلوحهما الشمس . ظهر وعليه دلائل الاسى : « لقد سجلوني ايها الرفيق آمر الكتيبة في القسم الاداري . اعطوني فرساً وعربة . وانا لا املك اية فكرة اطلاقاً عن الفرس . وليس لهذا جئت » . وتذكرت كيف استولى عليه الذعر فهرب في عار مع الهاربين عندما اطلق الرشاش على مقربة وفي غير انتظار وصرخ احد : « الالمان ! » وكانت البندقية ترتجف في يده عندما وقف في الصف وصوّبها على الخائن ، على الجبان ، الذي امرت باعدامه امام الصف .

قد يكون مورين عانى باحدّ مما عانى غيره مخاوف الحرب والصراع الداخلي وولادته الثانية الروحية المؤلمة مع نوبات الاسى المميت المعاودة ثم البهجة العظيمة التي يحس بها المحارب عندما يقتل ذلك الذي سبب له الخوف وجاء ليقتله .

والآن ، وهو يستمع إلى الاوامر ، ويعرف انه يجب الذهاب الى مواقع العدو ، يسأل في بساطة :

— لمن نعطي الرشاش ؟

فماذا به ؟ ماذا اصابه ؟ ألا يشعر بالقلق ؟

ـ لا اظن ايها الرفيق مورين انك ستكون نافعاً هناك . فالخيل لا تستطيع لها قياداً . فابق هنا عند الرشاش .

وانتظرت منه جواب الجنود : «حاضر» ولكنه لم يقل ذلك . بل ظل ساكتاً قليلاً ثم قال :

ـ ايها الرفيق آمر الكتيبة ، اسمح لي برجاء . . . اني والحالة هذه . . . ـ وتوقف مستعيداً انفاسه ثم واصل الكلام في صوت اكثر خفوتاً : ـ اني والحالة هذه اريد ايها الرفيق آمر الكتيبة ان اكون مع الرفاق . ارجوك : اينما ذهبوا فانا معهم . . .

واذن كان يشعر بالقلق ، كان يفكر . ان ما كان يدفعه الآن ليس الخدمة ولا الانضباط ، بل شيء اكثر انسانية واكثر سمواً . ان تفسير هذا صعب ، ولكن روح الجندي ، روح الكتيبة ، قد تفتحت قليلاً لي . وانغرز في اليقين : نعم ، سنحارب بقسوة ، سنقتل ونقتل حتى الخرطوشة الاخيرة .

قلت :

ـ حسناً مورين . خذ الرشاش يا غاليولين . خذ اشرطة الخرطوش واحمله الى الرئاسة . وانت يابلوخا صف الرجال . اتمنى لكم التوفيق ايها الرفاق !

٤

وتمطت ساعات الليل ، وافكار الليل .

وكان المحاربون يحفرون الارض على طول طرف الغابة ، ويقلبون القشرة المتجمدة منها ويقطعون الجذور . وكانت تشق الدروب للمناورة بالمدافع ، وكانت المناشير تعمل ، والاشجار تتساقط .

لم نكن مختبئين . ليعرف العدو اننا هنا ! انه لن يملك الطريق الرئيسية التي تمر بقرية نوفلانسكويه : ان هذه الطريق تحت نيراننا . وهنا ، بقرب جزيرتنا ، لن تمر السيارات ، ولن تمر المدافع .

ولكن ماذا وراء ذلك ؟ ان الطوابير تتدفق في طرق اخرى وعبر نقاط اخرى ، عبر سيبونوفو ، وعبر التل الاحمر . ولكن المدافع جاوبتنا من هناك ، من وراء التل الاحمر . فرجالنا صامدون في مكان ما ، متشبثون مثلنا في قطعة ارض ، سادين الطرق في نقاط مختلفة .

ولكن الجبهة تجزأت مع ذلك ، والحاجز تهدم ، والالمان يتقدمون بجوارنا نحو فولوكولامسك ، نحو موسكو . فهل سنستطيع وقف العدو عند فولوكولامسك ؟

ومن جديد انطلقت افكاري في غير صبر إلى هناك ، الى بانفيلوف ، إلى رجالنا .

اين برودني الآن ؟ وهل سيعود قبل الفجر ؟ هل سيأتي بالامر ؟ هل نستطيع الذهاب قبل ان يرحل الظلام ؟

كلا ، يا باورجان ، لا تنتظر . . . قد تكون رئاسة الالاي قد هلكت . قد تكون رئاسة الفرقة نفسها مطوقة في مكان ما . ولن يأتي غد او بعد غد حتى يكون خط القتال قد اصبح وراءنا على بعد ثلاثين او اربعين كيلومتراً . ولن يصل الامر ، ولن يكون لدينا امر .

فماذا عندئذ ؟ انا آمر ، وانا مجبر على ان انظر برباطة جأش إلى اسوأ الحالات . لن يكون لدينا الأمر . فماذا عندئذ ؟

سيضيق العدو الخناق ويقترح الاستسلام ، فنرد نحن بالرصاص . لقد كنت واثقاً بجنودي . وكنت اعرف انهم واثقون بي ، بآمرهم . ولقد أُبلغوا كلمتي ، أُبلغوا اوامري .

انهم الآن يحفرون ويحفرون ، منحنين على امنا الارض ، حامية الجندي . ولن تصيبنا القذائف والقنابل في شقوق الارض . لن يستطيع

الالمان تقتيلنا بنيران مدافعهم إلا اذا استعملوا كل مدفعيتهم التي حشدوها في منطقة الهجوم . سنصمد للقصف ، وسنقوى على الجوع . وهناك خيل ، وان لحومها لتكفينا مدة طويلة . فجربوا التسلل الينا ، حاولوا سحقنا !

عندي ستمائة وخمسون محارباً . كل واحد منهم سيقتل عدة المانيين قبل ان يسقط في القتال . ان افناء كتيبتنا يحتاج الى فرقة كاملة . وسيهلك عندئذ نصف فرقة ! ليدفع الالمان اذن هذا الثمن لكتيبة رجال بانفيلوف .

غرقت في افكاري ، وجلست في مركز القيادة ، في بيت الناطور المبني بالعوارض الخشبية ، في نصفه المخصص للرئاسة . وكانت قد وضعت هنا التلفونات وامتدت من هنا الخطوط إلى السرايا والمدافع .

من هنا ساستطيع قيادة المقاومة ، ساستطيع توجيه القوى ضد العدو اذا فتح ثغرة وتغلغل إلى الغابة . وعندئذ سنحارب في الغابة ، ونقتل العدو من وراء الاشجار ، ومن وراء الجذوع المقطوعة ، منسحبين خطوة بعد خطوة .

وهنا ، عند بيت الناطور . سيكون الخط الاخير والحد الاخير .

بعد ان ينهي الحراس وعمال التلفون نوبتهم لا يذهبون الى النوم : بل يحفرون خط الدفاع حول الرئاسة ، يحفرون الحفر والخنادق واعشاش الرشاشات الاحتياطية ، ويكومون الاشجار كحاجز . سنخفي النوافذ بالجذوع ، وسنحفر في العوارض الثقوب ، وسنحارب حتى هنا ، في هذا البيت . ولقد جيء إلى هنا بصندوقين من القنابل اليدوية ، ووضع الرشاش في الممشى .

كنت واثقاً بجنودي وبآمري : فلن ينالهم احد وهم احياء .

وزحفت فكرة مشئومة : والجرحى ؟

٥

والجرحى ؟ ماذا سيكون موقفي منهم ؟
عبرت الممشى الى النصف الثاني ، اليهم .

كان فتيل مصباح الكاز منزلاً . وكان الممرض ، العجوز كيرييف الازرق العينين ، يوقد المدفأة . وكان الباب مفتوحاً على آخره . وكانت ظلال الضوء تتراقص على الجدار الخشبي وعلى الاغطية الرمادية وعلى الوجوه الجامدة .

وكان احد يهذي . وقال آخر هامساً :

— ايها الرفيق آمر الكتيبة !

اقتربت على اطراف اصابعي فرأيت سيفريوكوف هو الذي يدعوني . وكان مستلقياً على ظهره ، على طرف دكة من الالواح الخشبية الموصولة على عجل . ولم يرتفع رأسه الغارق في الوسادة . وكان يتنفس بصوت يصفر قليلاً . لقد اصابته الشظايا في صدره واربيته . وكانت الجروح خطيرة ولكنها غير مميتة . واحسست فجأة بشعور غريب : فقد بدا لي اني اذكره جريحاً منذ زمان بعيد ، في حين انه لم يجرح في الواقع إلا منذ عدة ساعات .

جلست عند موضع رجليه . فحاول سيفريوكوف ان ينهض ، مستنداً إلى مرفقيه ، ولكن عضلات وجهه تشنجت من الالم ، وأن انة صماء . فهرع كيرييف ، ووضعه على الفراش بحذروتأن ، وعنفه في غمغمة وحنان .

فقال سيفريوكوف بايجاز : — اذهب يا كيرييف .

وسكت إلى ان ابتعد الممرض نحو المدفأة ، ثم قال هامساً :

— إنحنِ قليلاً . اريد ان اسألك : ماذا هناك ؟ — واشار بنظره إلى ما وراء الجدار . — ما القضية ايها الرفيق آمر الكتيبة ؟

ـ اية قضية ؟

ـ لماذا لا ترسلوننا إلى المؤخرة ؟

بم اجيبه ؟ هل اخدعه ؟ كلا . ليعرف سيفريوكوف الحقيقة . فقلت :

ـ الكتيبة مطوقة .

فاغمض سيفريوكوف عينيه . وبدا وجهه الرمادي على الوسادة البيضاء ، بشعراته التي بدأت تظهر ، وبصدغيه الاشيبين الممشوطين في عناية ، بدا وكأنه لا حياة فيه . ترى بم كان يفكر ؟ وارتفع جفناه الداكنان .

ـ ايها الرفيق آمر الكتيبة . . . ارجوك ان تعطيني سلاحاً .

ـ نعم ، فهذا ضروري يا سيفريوكوف . سآمر بذلك .

واردت النهوض ، ولكن سيفريوكوف اخذ يدي .

ـ لن . . . لن تتركوا ؟ لن تتركونا ؟

وتشبث بي يداً ونظرات .

ـ كلا يا سيفريوكوف ، لن اترككم .

فارتخت اصابعه قليلاً . وابتسم لي في وهن . لقد كان يثق بآمر الكتيبة .

وتسللت نحو الباب مثقل الروح . ولكن صوتاً آخر ارتفع :

ـ ايها الرفيق آمر الكتيبة . . .

لم اشأ ، ولكنني اضطررت إلى الاقتراب .

ـ سودار وشكين ، هذا انت ؟

كان رأسه يبدو غليظاً الى حد الغرابة تحت الضماد الابيض الذي لم يتسخ بعد . وقد شمل الضماد الجبهة ، ولكن وجهه كان طليقاً .

وكانت يده المضمدة ، الضخمة الى حد الغرابة ايضاً ، ممدودة على اللحاف بلا حراك وكأنها ليست يده .

ـ متى اصابك هذا ؟

ـ ألا تذكر ايها الرفيق آمر الكتيبة ؟ فقد صرخت بي قائلاً : « اسكت ! »

واذن فقد كان هو . . . وتذكرت الوجه الخضيب بالدم ، واليدين الرطبتين الحمراوين ، والصرخات البشعة الرتيبة . فامرت : « اسكت ! » ــ فسكت طبعاً .

سأل سوداروشكين :

ـ هل طردتموه ؟

لماذا اقلقه قبل الاوان ؟ قلت :

ـ نعم .

ـ الحمد لـ . . . وهل سيتركوني ايها الرفيق آمر الكتيبة اذهب الى بيتي للنقاهة ؟

قلت : ـ طبعاً .

فابتسم .

ـ ولكني ساعود اليكم ايها الرفيق آمر الكتيبة ، وساكون عندك من جديد محارباً . . .

ـ طبعاً .

وذهبت مسرعاً قبل ان اسمع اسئلة واضطر الى الاجابة والكذب .

والتفت فرأيت الكابتين شيلوف . كان نصف جالس ، مغطى باللحاف حتى خصره فقط ، مستنداً بظهره إلى الجدار الخشبي ، وينظر إلي . وكان المصباح يرسل ضوءاً ضعيفاً . وكانت الظلال العميقة تبين بوضوح وجهه النحيف ، انه على الارجح لم يستطع ولم يحاول الاغفاء .

انه ، وقد حمل إلى هنا برجله المحطمة ، كان الوحيد بين الجرحى ، الذي يعرف ما لا يعرف الآخرون حتى الآن . كان يعرف ويلتزم الصمت عما يعرف . ولقد لجأ الى الصمت الآن ايضاً ، ولم يسأل عن اي شيء ، حتى ولم يفتح شفتيه .

ما العمل بهؤلاء الناس العاجزين ؟ قل لي ما العمل ؟

هل استطيع ان افعل كما يلي ؟ . .

. . . عندما تقترب النهاية ولا يبقى إلا شريط خرطوش واحد ، ادخل الى هنا مع الرشاش واحني هامتي واقول :

ـ ان جميع المحاربين قاتلوا حتى الخرطوشة قبل الاخيرة ، ولقوا جميعاً حتفهم . فاعذروني ايها الرفاق . اني لم اكن املك امكانية ترحيلكم ، ولست املك الحق في تسليمكم للالمان لكي تتعذبوا . سنموت جنوداً سوفييتيين .

. . . واكون آخر من اموت . اولاً اعطل الرشاش ، ثم اقتل نفسي .

هل استطيع ان افعل هكذا ؟ والا فكيف ؟ هل اسلم الجرحى ؟ للتعذيب ؟ كيف ؟ اجبني !

. . . ولن يبقى في الوجود أحد ليقول للعالم كيف هلكت كتيبة رجال بانفيلوف ، الكتيبة الاولى من الاي تالغار .

من يدري ؟ قد يوجد بعد الحرب في الارشيفات العسكرية الالمانية تقرير يقرأ فيه الناس عدد الاعداء الذين قتلتهم كتيبة سوفييتية مطوقة . ربما عندئذ سيعرف كيف قاتلنا ومتنا في غابة لا اسم لها قرب موسكو . . . وربما لن يعرف احد بذلك .

كانت تتمطى ساعات الليل ، افكار الليل .

٦

لم يرجع برودني . ولم يرجع بوزجانوف .

وخرجت على صهوة فرسي إلى طرف الغابة ، إلى خط الاعمال . وكان المحاربون يحفرون ويحفرون ، غارقين في الارض حتى خصورهم بل حتى اكتافهم بل اعمق من ذلك ، بل ان بعضهم غاب تماماً عن الانظار ولم يكن يرى إلا المجارف تعلو في الهواء والتراب يرمى من الحفر المظلمة .

وكان القمر يرسل ضوءه تارة ويغيب في الغيوم تارة اخرى . وكان الصقيع قد خف والسماء قد تجهمت .

ورحت انظر إلى الابعاد المظلمة التي يمكن ان يظهر منها برودني . وانتابتني رغبة في ان اطلق نار مدافع مرة اخرى على نوفلانسكويه وعلى نوفوشورينو . فنحن لا ننام ولن نترككم تنامون ! ولكن كان يجب توفير القذائف : انها ضرورية للابقاء على الطريق ، ضرورية لمواجهة سلاسل العدو المهاجمة عندما تحين الساعة .

وكان يخيل لي ان الليل طويل طويل . واطلقت العنان للغراء للعودة من طرف الغابة إلى الرئاسة . فعادت الفرس الطيبة ماشية ببطء بين الاشجار . ولم استحثها . ولم ؟

وفي مركز الرئاسة غرقت في الافكار والعذاب .

ورن التلفون في الساعة الواحدة تقريباً بعد منتصف الليل .

وقال عامل التلفون : — ايها الرفيق آمر الكتيبة ، يطلبونك .

كان المتكلم موراتوف الذي كلفه بوزجانوف لسرعة خطوه ، بابلاغي ان الجماعة تقترب ، جارّة معها القذائف والمدافع .

كانت الغراء مسرجة . فامتطيتها واسرعت لملاقاتهم . اربعمائة

قذيفة . اوهو ! يمكن الآن صب الحمم على نوفلانسكويه ونوفوشورينو . الآن اصرخوا واهربوا من اماكنكم الدافئة ايها السادة « الظافرون » ! اننا لا ننام ولن ندعكم تنامون !

سبعة وثمانون

١

قابلت الطابور قرب الغابة ممتطياً صهوة الفرس يرافقني سينتشنكو . توقفت مفسحاً الطريق للعربات . وكانت عجلات المدافع الثقيلة تسحق الثلج حتى الارض السوداء .

وقدم بوزجانوف تقريره بحيوية : الالمان ينامون خالي البال . مراكز الحراسة غير موجودة . لم يعق احد قوته الصغيرة .

وعرفت الغراء جالمحمد ، فمدت اليه رأسها . لقد كان كثيراً ما يطبطب لفرسي ويطعمها. وسمع هذه المرة ايضاً صوت تفتت السكر بين اسنانها .

قوة صغيرة . . . اية صغيرة هذه ؟ ما هذا ؟ من اين جمع هؤلاء الرجال ؟

فقد كان يسير إلى جانب الخيل والى جانب المدافع والعربات المحملة بالقذائف ، رجال بالبنادق والمعاطف العسكرية .

سألت :

— بمن اتيت ؟ من هؤلاء ؟

ضحك بوزجانوف في غبطة :

ــ مئة رجل تقريباً ايها الرفيق آمر الكتيبة . انهم من كتيبة شيلوف .
لقد كانوا يخرجون مثنى وثلاث من الغابة . وكادوا ان يقبّلونا .

امرت :

ــ طابور ، قف !

فوقفت جياد المدفعية وانقطع صرير العجلات .

ــ على الغرباء ان يبتعدوا ! لا يجوز السير وراء المدافع ! آمر الحضيرة بلوخا !

ــ حاضر !

ــ تحقق من التنفيذ ! سينتشنكو !

ــ حاضر !

ــ انقل اوامري لآمر اقرب سرية ثم للرئاسة ، لرحيموف ، بألا يدعوا شخصاً واحداً من الغرباء يدخل إلى موقع الكتيبة . . .

ــ حاضر ايها الرفيق آمر الكتيبة .

ــ انطلق !

فانطلق .

وانفصلت شخوص داكنة عن سلسلة العربات الطويلة ، بعضهم وقف على بعد والآخرون ساروا نحوي . وابلغ بلوخا انه لم يبق في الطابور إلا رجالنا .

ــ طابور ، سر !

فتحركت المدافع . ورحت انظر في صمت . وكان مورين آخر الماشين وفي يده البندقية .

حركت المقود فانطلقت الغراء وراء الرجال .

ــ ونحن ؟ إلى اين نحن ايها الرفيق آمر الكتيبة ؟

ــ اينما تريدون . . . فلست بحاجة إلى هاربين .

٢

ساروا وراء الغراء متدافعين واجتمعوا علي .

ـ ايها الرفيق الآمر ، اقبلنا . . .

ـ ايها الرفيق الآمر ، لقد جاءنا العدو من المؤخرة ، من جميع الجهات . فحدث ما حدث ايها الرفيق الآمر .

ـ اننا من التطويق ايها الرفيق الآمر !

ـ هل ترسلنا إلى الاسر ؟ لا يحق لك ذلك . . .

لم اجب . وشعرت من جديد بالكآبة . « من التطويق » . مرة اخرى يكرر هذه الكلمة، وكأنما عن سابق اتفاق ، متسكعون بمعاطف الجنود ساروا عبر خطوطنا قادمين من جهة فيازما . لقد علقت هذه الكلمة باذني واصبحت كريهة على السمع .

اردت ان اصرخ : « واين آمروكم ؟ لماذا لم يكبحوا جماحكم ؟ » ولكني تذكرت الكابتين شيلوف الجريح وتذكرت كيف قال في حماسة : « ان سريتين حاربتا ، انهم لم يتركوا آمرهم الجريح » .

ومع ذلك فالكتيبة محطمة وموزعة في الغابة . « فهل هذا نتيجة منطقية ؟ » هكذا سأل شيلوف نفسه في الاستحكام عندي جهراً منذ مدة . سأل ولم يأت بجواب .

لقد اُشفق على هؤلاء الجنود قبل القتال . فهربوا من العدو وعشش الذعر في انفسهم . ولسوف يهربون هنا ايضاً . كلا ، لن اقبلهم في جزيرتنا المتقنفذة المستعدة للقتال . لم تصمدوا في القتال ؟ هيا اذن تسكعوا الآن كالمتشردين .

امسك احد بالركاب .

وقال بوزجانوف بالكازاخية : ـ اكساكال ، انت لست على حق .

واذن فقد وجدوا محامياً لهم . واذن فهو يسير ورائي مع الهاربين الذين جمعهم .

وكرر قوله : — لست على حق . فهؤلاء اناس سوفييتيون ، جنود في الجيش الاحمر . هذا لا يجوز اكساكال .

لم اقاطعه ، ولكني لم اجب . فواصل بوزجانوف قائلاً :

— لا يجوز ، اكساكال ، طردهم . . . عيني آمراً عليهم . لقد جئت بهم ، ولسوف اكون معهم في القتال . اعطنا مهمة ، اعطنا قطاعاً عسكرياً .

فقلت : كلا .

٣

كان الجميع يصغون دون ان يفهموا اللغة الكازاخية ، وكانوا جميعاً ملتفين حول الغراء . وربما انهم حزروا ، من لهجة الخطاب ، ان القائد السياسي الضخم الجثة يدافع عنهم ، وان هذا الهزيل ، الراكب على فرس ، الذي يلتزم الصمت طول الوقت ، والذي قال بعد ذلك كلمة ما ، — لا يريد . وحاول بعضهم على ضوء القمر الاغبش ان ينظر إلى وجهي .

وكانت الغراء تتحرك طول الوقت ، وتشدني نحو غابتنا ، وكأنما تقول لي ايضاً متوسلة : الى هناك .

لقد فتحت قلبي لكلمات بوزجانوف وفكرت فيما قال . واجبت : « كلا ! » ووجهت الغراء بقوة إلى جانب من الغابة .

كان الرجال يتبعونني لاصقين فيّ .

لم اكن استطيع ، — افهمني في ذلك — لم اكن استطيع اخذهم إلى كتيبتنا . لو اشتغلت مع هذه الجماعة وعصرتها وطبعتها لاصبحت ، — وانا واثق بذلك ، — محاربين صالحين . ولكن لاجل ذلك يجب الوقت ،

وهو ما لا يتوفر لدي . فقد بقيت ساعات قلائل على بدء القتال العنيف .

ماذا كان بوسعي ان افعل لاجلهم ؟ فليذهبوا ، وساساعدهم على الوصول الى هناك ، الى حيث يُعصرون ويُطرقون . . . اما هنا . . . فلا حاجة لنا اليهم .

بعد ان انعطفت عن الغابة سرت على مهل في الحقل دون ان التفت . وهتفت لي مراكزنا عدة مرات .

وعاد سينتشنكو :

ــ الامر نفذ ، ايها الرفيق آمر الكتيبة .

ــ هل تلفنت لرحيموف ؟

ــ نعم .

وانتظرت ان يقول سينتشنكو شيئاً آخر ويبلغني بانباء عن رحيموف . ولكن سينتشنكو لم يقل شيئاً .

فغمغمت :

ــ حسناً . . .

واقتربنا من الطريق الذي يذهب إلى دولغوروكوفكا والذي يؤدي إلى قواتنا . وهناك ، على طول زقاق ضيق ، كان فرساننا الاستطلاعيون يقومون بدورية . لقد كانت مهمتهم ان يراقبوا الطريق بلا انقطاع ويعرفوا هل هي سالكة أم اغلقت وانسد البرزخ .

كانت لا تزال لدي بقية من امل في ان يأتي الامر ، ونستطيع قبل الفجر ، قبل ان ينسد البرزخ ، الخروج من الانشوطة .

وجدت مركز الفرسان الاستطلاعيين وسألت :

ــ ماذا من جديد ؟

ــ لا شيء . . . لا شيء يتحرك ايها الرفيق آمر الكتيبة.

ــ من يعرف الطريق ؟
ــ انا .
ــ باللف حول دولغوروكوفكا ؟
ــ نعم .
ــ كن دليلاً ، وقد هؤلاء .
والتفت إلى الناس الذين كانوا متحلقين من حولي يستمعون ، واشرت إلى الطريق :
ــ هناك فولوكولامسك ، هناك وحداتنا . سيقودونكم الى هناك . اذهبوا .
وعدت بالغراء ادراجي الى الغابة .

٤

واذا بهم يركضون ورائي .
ــ ايها الرفيق الآمر . . . ايها الرفيق الآمر . . .
ــ ماذا تريدون ؟
ــ ايها الرفيق الآمر . . . خذنا معك ايها الرفيق الآمر .
فاجبت :
ــ اوقفوا هذه الجلبة ! هل سمعتم امري ؟ لن يدخل احد من الغرباء إلى موقع الكتيبة .
ــ اي غرباء نحن ؟ اننا رجالكم ! ايها الرفيق الآمر ، انك تعرفني شخصياً . فانا بولزونوف . لقد تحدث الجنرال معي امامك . هل تذكر ؟
بولزونوف . . . لم اره في الظلام ، ولكني تذكرت وجهه الفتي وشفتيه الغليظتين المتدليتين قليلاً ، وعينيه الرماديتين الجديتين ، وتذكرت جوابه العنيد : « حسناً ، ايها الرفيق الجنرال » . هذا هو الحسن اذن .

ـ ماذا فعلت يا بولزونوف ؟ لقد قال الجنرال : « اريد ان اسمع من اخبارك يا بولزونوف » . . . وانت ؟

لم يجب ، فكررت سؤالي :

ـ وانت ؟ هربت ؟

فقال بولزونوف في عبوس :

ـ لقد كنا هلكنا هناك عبثاً . . . وليست ثمة رغبة ايها الرفيق الآمر في الموت عبثاً .

وقال احد إلى جانبه بجرأة :

ـ والى اين كان يجب ان نذهب وقد ضربنا من الخلف ؟ هل كان علينا ان نجلس في اوكارنا وننتظر حتى يمعسنا ؟ لهذا هربنا . اقول بصراحة : لقد هربت انا ايضاً . . . ماذا كانت الفكرة ؟ اليوم انت تغلبني ، وغداً اتمكن انا منك . . . ونصفي حسابنا . لن اذهب ايها الرفيق الآمر حيثما اشرت . سابقى ولو وحدي ، ساحارب حرب الانصار ولو وحدي ! اقول بصراحة : افعل بي ما تريد ، ولكني لن اذهب .

سألت :

ـ ما اسمك ؟

ـ المحارب باشكو .

وسارع بولزونوف مؤكداً :

ـ هذا هو اسمه الحقيقي ايها الرفيق الآمر . باشكو . قد تخشى ان يكون هنا جواسيس ؟ كلا ، ايها الرفيق الآمر ، اني هنا اعرفهم جميعاً . ويمكن التحقق بالاوراق . هل معكم دفاتركم يا شباب ؟

قلت :

ـ هل معكم جميعاً بنادق ؟

ـ معنا . . . معنا . . .

ـ ليجب الواحد منكم عن نفسه فقط . هل معكم قنابل يدوية ؟
ـ نعم ! معي انا !
اصبحت الاصوات الآن اقل .
ـ هل فقدتموها من الخوف ؟ بولزونوف ، كن الرئيس عليهم . صف الرجال واجعل هيئتهم عسكرية . ومن عنده قنابل يدوية فليقف على الجانب الايمن .
فراحوا يصطفون على عجل غير منتظرين امراً آخر .
وقال بولزونوف :
ـ ايها الرفيق الآمر ! ثمة من هو اعلى مني رتبة .
ـ سنرى الرتب فيما بعد . اما الآن فلديكم جميعاً رتبة واحدة هي : الهارب .
وارتفع صوت باشكو من جديد .
ـ لا اعد نفسي كذلك !
ـ اسكت !
كان باشكو يبدو اجرأ الجميع ، ولكني رأيت ان اول صفة من صفات الجندي ، وهي الطاعة العمياء لكلمة الآمر غريبة عليه . واذا لم يكن الجندي معداً فلن تحصد إلا الشوك ولو كان رأسك من ذهب ، كما قال بانفيلوف . . . كلا ، ما كان يجب ان آخذهم . . . فامرت بنفس غير مغتبطة :
ـ سووا صفوفكم ! بولزونوف ، سوّ الصفوف ! تهيأ ! كفوا عن الكلام ! كفوا الحركة ! عدوا حسب ترتيب الارقام !
وابلغ بولزونوف ان في الصف معه سبعة وثمانين محارباً .
قلت :

ــ غير محاربين ! وانما سبعة وثمانون هارباً ، سبعة وثمانون دجاجة مبتلة ! لن يكون لي معكم حديث طويل . لقد تباكيتم وقلتم : خذنا معك. ولكن موسكو لا تثق بالدموع . ولا اثق بها انا . ان امري سيظل دون تغير : لن يدخل جبان واحد ، لن يدخل هارب واحد من الخط ، إلى موقع الكتيبة. لن يدخل صفوفنا الا محاربون . اما انتم فستذهبون إلى المكان الذي هربتم منه . ستذهبون الى ابعد ، الى مؤخرة العدو . وستذهبون الآن . وستعودون على جثث الاعداء . وعندئذ سيكون الباب مفتوحاً امامكم . اعين القائد السياسي بوزجانوف آمراً للوحدة . الى اليمين ! در ! ورائي ، سر !

٥

رفعت المقود وارسلت الغراء تعدو بخطى متساوية غير سريعة . ومن ورائي سار سبعة وثمانون شخصاً مصفوفين مثنى مثنى. وسار الى جانبي بوزجانوف .

طلب تعليمات ، فغمغمت له :

ــ انتظر . . .

كانت نفسي كئيبة كالسابق . الى اين اقودهم ؟ اني اسير على غير هدى وبلا استطلاع ولا خطة ، ولا اعرف الى اين . والرجال ليسوا منظمين في حضائر وفصائل ، ولا يعرفون مكاناً لهم في القتال ، لن يستطيعوا اتخاذ ترتيبات القتال . فهم مع اصطفافهم مثنى مثنى ، ظلوا كتلة لا شكل لها .

كان يجب تشكيل حراسة امامية . . . كان يجب دعوة فصيلة او فصيلتين من كتيبتنا حتى يهجموا على الالمان من ناحيتين او ثلاث .

كان يجب . . . ماذا كان يجب ايضاً . . .

لقد كانت معرفة الواجب تحفر دماغي احياناً في الم وعذاب :
لقد كنت اعرف ان الكتيبة بحاجة إليّ ، بحاجة الي حتى النهاية ، وان مكاني ليس هنا ! فلماذا اسير في الظلمات لا يعرف الا الشيطان مع من والى اين ؟ اني لا يحق لي ان اترك الكتيبة ، وليس علي ان اعلق بعمل طائش اهوج لا ينتهي بخير .

ولم تكن لدي قوة ولا ارادة حتى اسيّر الامور في مجرى آخر .

وخطرت على بالي فكرة : ماذا لو عاد برودني وانا غائب ، ماذا لو جاء الامر ؟ فتضاحكت : لا تخادع نفسك ، فلن يكون أمر ولن تفلت .

كانت تمتد امامنا حقول الثلج المتربة حتى السواد . وكانت الغراء تتفادى الحفر التي خلفتها القذائف في الارض . وهذا هو ايضاً خط الخنادق المهجورة الصامتة القفراء .

كل شيء هنا اعرفه : كل ممر وكل درب . وكل شيء تغير حتى اصبح وحشياً لا يعرف . وكانت ترى من جانب ، من ناحية نوفلا نسكويه ، نافذتان او ثلاث نوافذ مضاءة . فالالمان لم يكونوا يخافوننا ، ولم يأبهوا للتعتيم . . . وانفجر فيّ الحقد : انتظروا ، انتظروا ! . .

نظرت إلى الصف الممتد ورائي . سبعة وثمانون هارباً . ماذا يستطيعون فعله ؟ آه ، ما كان يجب ان يكون كذلك . . .

وتذكرت كيف ارسلت لاسبوع مضى مئة نسر إلى الغارة الليلية . كانت الحمى في اوصالنا آنذاك ، وكنا نرتجف من الانتعاش وروح المخاطرة والحدس بالنجاح في القتال . لقد كانت تلك عملية ، فكرة ، حساباً ، ضربة في الصميم .

اما الآن ؟ لماذا اسير ؟ اي شيطان يحملني في طيش ؟

٦

اجتزنا خط الخنادق القفراء ونزلنا نحو النهر . وهنا اعرف كل مكان ضحل ، وكل جذع شجرة مد من شاطئ إلى شاطئ على مساند ضعيفة .

اوقفت الرجال عند جسر كهذا . وكان النهر يركض خاراً مشكلاً عتبة بيضاء على زوج من الجذوع .

في تلك الناحية ، على بعد مئة خطوة من المياه ، كانت تنتصب الغابة شبحاً اسود .

وشرحت في صوت خفيض تفاصيل المهمة : الوصول الى نوفلانسكويه في تلك الناحية، عبر الغابة، وعبور النهر من جديد في مكانه الضحل قرب القرية ، واقتحام القرية ، وتقتيل الالمان ، واحراق السيارات واحراق الجسر العائم .

ثم سألت :

ــ مفهوم ؟

فاجاب غير كثير منهم وبصوت خفيض :

ــ مفهوم . . .

لم تنتبني قشعريرة الانتعاش والتحفز للقتال . . . ان هؤلاء الناس ، الذين هربوا حديثاً من الالمان مأخوذين بالرعب لم يكونوا واثقين بانهم سيصبحون الآن رهيبين . . . وانا ؟ هل كنت اثق بذلك ؟

قلت آمراً : ــ مروا من هنا واحداً اثر واحد ، ثم تقدموا واحداً وراء واحد متفرقين . بولزونوف ، الى امام !

فركض مشرعاً بندقيته حانياً ظهره . . . وتوقف عند الجسر ، ووطئ الجذوع الزلقة . . . ثم غاب شخصه الادكن في دكنة النهر . وبعد قليل ظهر شخصه من جديد في بياض منحدر الشاطئ الآخر .

وتسلق بولزونوف المنحدر واستلقى قليلاً على القمة ثم نهض واستقام وسار نحو الغابة :

وقلت :

ـ الجناح الايمن ، الى امام ! سيروا في الغابة واحداً وراء آخر حسب ترتيب الارقام . المسافة خمس الى ثماني خطوات .

ونزلت الغراء الى النهر مطيعة حركة يدي . وكان المكان ضحلاً يصل فيه الماء إلى بطنها .

لماذا امرت بان يتقدموا في الغابة منفردين ؟ ولماذا فرضت هذه المسافة عليهم ؟ ورحت اكشف عن فكرتي الغامضة . . . وفكرت بان الجبناء سيختبئون وهذا سهل في ظلمة الغابة : يكفي ان يبتعد احدهم جانباً ويلتصق بشجرة حتى يغيب عن الانظار . اختفوا كما يحلو لكم ، والى الشيطان ! هيموا على وجوهكم بلا وطن ولا شرف ! وفكرت في نفسي انه لن يبقى منهم إلا نصفهم او اقل . وهذا النصف أو اقل سأثق به واعيده إلي واضمه إلى كتيبتي .

وسرت بين الاشجار سابقاً بولزونوف متقدماً الجميع غير مبتعد عن طرف الغابة وغير ناظر الى وراء .

كانت درجة الحرارة قد ارتفعت واصبحت قطرات الماء تتساقط من الاغصان . وحجبت الغيوم وجه القمر فاصبح بقعة كامدة تكاد لا تبين .

هذه هي نهاية الغابة . وإلى جانبها الطريق الذي يؤدي إلى نوفلانسكويه .

وعلى مقربة من ذلك جسر عائم ، ثم مرتفع ، وعلى المرتفع تقع القرية . بعض النوافذ يرسل ضوءاً واضحاً .

كان الناس يتقدمون واحداً بعد آخر . وكان بوزجانوف الاخير .

فامرت بالاصطفاف .

ــ بولزونوف ! عد الحاضرين !

فتفقد بولزونوف الصف من اوله الى آخره وابلغ هامساً .

٧

ــ سبعة وثمانون ايها الرفيق الآمر !

سبعة وثمانون ؟ كلهم هنا ! جاءوا جميعاً ليقاتلوا !

فشعرت برجفة غبطة . واحسست بانهم اصبحوا اعزاء إلي وبان قلبي مال اليهم . ولكن يجوز ان تكون رجفة شعور آخر ، يجوز ان تكون رجفة عصبية جاءتني منهم .

وترامى إلى سمعي هدير محرك سيارة يقترب . فادرت رأسي نحو مصدر الصوت ، واذا بضوء مصباح قوي يغمرنا من بين الاشجار. كانت مصابيح السيارة وهي تتسلق مرتفعاً صغيراً ترسل ضوءها كاملاً . ووجه انعطاف الطريق حزم الضوء الينا .

لم يتحرك احد في الصف . وظل الجميع واقفين شاحبين ، اقرب الى البياض من اثر الضوء ، ضاغطين على البنادق اللامعة ، ناظرين الى امام باعصاب متوترة . وتحركت ببطء ظلال الاشجار السوداء وكأنها منقوشة على خشب .

وزحف الضوء إلى مسافة ابعد . وغمر الظلام الوجوه . وكانت حزم الضوء تبتعد ، متأرجحة علواً وسفولاً ، وتقصر ، وتستلقي على الطريق .

قفزت عن السرج ، ولم اعد ، بعد الضوء المجهر للعيون ، اميز احداً سوى اقدام الغراء البيضاء التي تتراءى غير واضحة .

امرت : ـ انبطحوا ! راقبوا !

وعادت العيون ترى كل شيء . . . وكانت الاضواء تنعكس في الماء . وترامى صريف الجسر . ورأينا بقعة حمراء لمصباح كهربائي تظهر وتستقبل السيارة . وصلت السيارة الى الضفة الاخرى ووقفت ودخل الحارس في ضوء مصابيح السيارة . وكانت بعض حركاته مفهومة . فقد التفت ومد يده مرتين نحو الغابة التي تكمن فيها كتيبتنا . ثم اشار إلى اتجاه التل الاحمر . يبدو ان مكان الالتفاف يمر من هناك .

وهدر المحرك ، وتحرك الضوء ، وسارت السيارة صعداً ، والقت المصابيح ضوءاً سريعاً على الشارع الذي بدا فضياً وعلى ما فيه من سيارات شحن طويلة عند البيوت . ثم زحفت حزم الضوء إلى جانب ، وتقدمت متأرجحة علواً وسفولاً على طول الشاطئ ، إلى مكان الالتفاف .

اقترب شخص مني :

ــ ايها الرفيق الآمر ، ساتولى ذلك .

كان الصوت مألوفاً .

ــ باشكو ؟

ــ نعم . . . ساتولى ذلك .

ــ وما ذلك ؟

ــ ساصرعه . . .

ــ الحارس ؟ وكيف ؟

فرفع باشكو طرف المعطف فلمع نصل خنجر قصير ابيض .

وقال : ــ كن مطمئناً . . . ثم اصفر .

ــ كلا . . . ــ واعطيته مصباحاً كهربائياً . ــ خذ ، اضيء هذا ثلاث مرات .

فدس المصباح تحت قبعته .

ــ استطيع اعطاء اشارة بالمصباح الذي غنمته . . . الاحمر . ممكن ؟

ــ ممكن . . . اذا اشعلته ثلاث مرات كان معنى ذلك ان الطريق خال . هل تستطيع ذلك وحدك ؟

وعرفت بالسمع اكثر مما بالنظر انه ابتسم .

ــ استطيع . . .

ــ اذهب . . .

واختفى باشكو بسرعة في الظلام .

ليكن ما يكون . . . لن استطيع الآن العودة . ترى هل هكذا سنقتحم ــ في عصابة ؟ فدعوت بوزجانوف .

ــ فرق الناس الى عشرات . . . خذ جماعة معك ، واضرب في ظهر الحرس الذي في مقابل الكتيبة . والعشرة الاخرى مهمتها حرق الجسر . . اما الآخرون فليعملوا في القرية . ليذهب كل من معه قنابل يدوية الى هناك . . .

ــ حاضر ايها الرفيق آمر الكتيبة .

وبدأ يدبر اموره .

ومرت سيارتان اخريان . ومرة اخرى ظهر الحارس في حزمة الضوء . ومن جديد القت المصابيح ضوءها الفضي على الشارع . وفتح الباب في احد البيوت وخرج رجل طويل ابيض اللباس حافياً جاراً نفسه كالنائم وراح يبول عند المدخل . ياللاوغاد ، هكذا اذن ينامون في الجبهة ، خالعين كل ملابسهم ما عدا الداخلية منها ، في البيوت ، على الاسرة .

ومن جديد غرق كل شيء في الظلام . وانعطفت حزم الضوء ، متذبذبة ، إلى جانب ، وسارت في طريق ملتو .

كنا مستلقين ، ننظر متوتري الاعصاب في سواد الليل البهيم ، ننظر إلى هناك حيث اختفى باشكو . هل سيفلح ؟ هل سيرسل الاشارة ؟ وبعد ذلك ؟ كيف ستمر هذه الـ « بعد ذلك » ؟

وشعرت لحظة باحساس غريب : فقد بدا لي ان هذا الالتحام جسداً إلى جسد ، كما الآن ، قد حدث مرة (متى — لا اعرف ؟ هل في حياة اخرى ؟) ، — وكنا آنذاك مستلقين في الظلام كما الآن ، متخفين ، متسللين من وراء مواقع العدو النائم ، مستعدين للاندفاع الى هناك فجأة . شيء غريب . هل هذه حقاً هي الحرب العصرية ؟ لم اكن اتصورها هكذا .

ولكن اين الاشارة ؟ وطالت الدقائق معذبة . آها ، يبدو انها هي . . .

وظهرت في الظلام عند الجسر ، في يد غير مرئية ، بقعة حمراء . . . تعلقت ثم غابت . . . واحد . . . ثم اضاءت ثانية . . . اثنان . . . وها هي المرة الثالثة .

قلت :

— انهضوا ! استعدوا ! القنابل اليدوية للقتال ! والآن ايها الرفاق . . . قانون الجندي : اما العز او الموت ! يجب التغلغل في سكون . بوزجانوف انطلق بهم !

— عبر الجسر ؟

— نعم .

فأمر في همس :

— اتبعوني !

وركض . وركض الجميع وراءه .

وسمع بعد دقيقة صريف الجسر .

٨

ونجح كل شيء . . . نجح بسهولة لا تتوقع .

فدخلت ببطء عبر الجسر الى القرية التي لونتها نار الحريق بلون احمر قان .

وكانت القنابل اليدوية وطلقات الرصاص لا تزال تفرقع هنا وهناك ، ويدوي الصراخ . نعم ، لم يكن هذا قتالاً ، بل مجزرة .

لقد نام الالمان ليلاً في فراشهم أو على القش وخلعوا لباسهم الخارجي ، بعد ان وضعوا حراسة في جانب الغابة من ناحية كتيبتنا . ولما سمعوا الرصاص وانفجارات القنابل اليدوية هبوا من نومهم واختلط حابلهم بنابلهم واختبأوا هنا وهناك : تحت الاسرة ووراء المواقد وفي الاقبية والعنابر ، مرتجفين من البرد والخوف .

لن اصف هذه المشاهد .

لقد اندلعت النار في الجسر بعد ان صب عليه البنزين . وارتسم ظل الكنيسة الهائل . كم مرة عدت في يوم واحد إلى هنا ، إلى مدخل الكنيسة هذا ؟ لقد كان الزجاج قد تطاير واطر النوافذ اسودت ، واللهب يضيء في الخشب القليل الذي ظل سليماً .

فوضت سينتشنكو بان يبحث عن بوزجانوف ، آمراً اياه بان يجمع المحاربين ويأتي بهم الى الكتيبة .

٩

عادت الغراء تخطو بين الاشجار متجهة إلى بيت الناطور .

وطارت الفرحة وعاد الانقباض إلى نفسي . فكنت اجلس على السرج ، متهالكاً بكل ثقلي ، بلا ذلك الشعور الرائع بالانطلاق المجنح ، بلا تلك السعادة التي يأتي بها النصر .

النصر ُيصنع قبل القتال — هذا ما علمنا اياه بانفيلوف . ولقد اخذت عنه هذا وكثيراً غيره .

ولكن ماذا صنعت قبل القتال ؟ قابلت هاربين وقدتهم دون استعداد . ولا شيء اكثر من ذلك . وانتصرت. انك تعرف آرائي ومعتقداتي كضابط . لقد قال سوفوروف : « ان الانتصارات السهلة لا تغري قلب الروسي » .

زحفت الي الافكار الكئيبة . نعم قتلنا مئة وخمسين او مئتي الماني . وماذا بعد ذلك ؟ فنحن لا نزال في الطوق ، نحن لا نزال منعزلين وسط بحر من الاعداء .

كنت طول الطريق الى ان وصلت الى بيت الناطور افكر : ترى ألم يعد برودني ؟ ألم يأت الامر ؟ طبيعي ان هذا الانتظار المقيم للامر بالانسحاب لا يبدو دليلاً على الجرأة والشهامة . ولكن الحقيقة كانت كذلك . ولقد كنت اخفيها عن الجميع ولكن اخفاءها عن الضمير غير ممكن .

١٠

كان المصباح يضيء في غرفة الرئاسة الخشبية الواسعة . ونهض رحيموف والتعب يبدو على وجهه ورفع تولستونوف رأسه المتكوم تحت معطفه على الارض . وراحا ينظران إلي بترقب . . .

هل اسأل ؟ ومع ذلك فقد سألت رغم علمي المسبق بالجواب . نعم . لم يكن هناك برودني ولا أمر .

وُأتيت بالعشاء ، فلم اشتهه . . . فنهض تولستونوف وجاء بوزجانوف بعد قليل وكانت معه لي هدية هي منظار الماني سداسي التكبير . . . لوكان ذلك في وقت آخر لاثار سروري . . . اما الآن فقد كنت قليل الاكتراث بكل شيء . وكانت الساعة قد تجاوزت الثالثة . وكان علي ان انام حتى الفجر ، ولكني كنت اشعر باني لن اغفو .

هتفت لسينتشنكو :

ـ سينتشنكو ، هل عندك فودكا ؟ رحيموف ، هل تشرب ؟

ولكن رحيموف رفض . فسكبت لتولستونوف ولنفسي . ساشرب ، فقد استطيع عندئذ ان اغفو .

الصباح

١

استلقيت للنوم ، واضعا تحت رأسي مضربيتي المحشوة بالقطن التي كانت تضوع منها رائحة الحريق . ودخنت سيكارة والقيت نظرة على الساعة ، ورأيت على الاسكملة قبعتي ذات اللسانين . لقد كانت بعيدة ، في غير محلها . فيجب اخذها وربطها بحزام حقيبة المسدس حتى لا افتش عنها اذا ما نفخ نفير الخطر وقمت من نومي . . . ولكني لم اشأ التفكير لا بالخطر ولا بما سيكون . ومع ذلك فقد نهضت . وقد بذلت جهداً جهيداً حتى اخطو هذه الخطوات لاخذ قبعتي التي ذكرتني بالواقع . واخذتني الرغبة في ان انسى وان اذهب بافكاري من هذا البيت ، من هذه الغابة .

وعدت فاستلقيت واغمضت عيني. . . ومرت امامي صور الماضي الحبيبة الى القلب . ان ما مضى قد مضى ولن يعود ، وهل قليل ما مضى ؟

شيء واحد اعرفه كل المعرفة ، هو اني كنت لا افكر بنفسي وحسب ، بل بالكتيبة ايضاً . وما هو في الحقيقة إلا تفكير بنفسي .

في لحظات الضعف تلك ، في شبه النسيان ، لم تكن الصور المتفككة التي اراها خاضعة طبعاً لتلك الفقرة من النظام التي تخول الآمر ان يقول عن وحدته : « انا » . فبالنسبة لي لم يكن ذلك فقرة ، بل شرفاً

وضميراً وخلقاً ووجداً . ماذا اقول ايضاً ؟ ان في كتيبتي حقاً قد وضعت كل الـ « انا » . فهي ابداعي ، هي كل ما صنعته على الارض .

لقد كنت اتذكر باشياء مختلفة ، منها على الارجح التافه والمؤثر والمضحك .

تريد مثلاً ؟ اليك اذن إياه .

٢

في احد ايام آب المشمسة خرجت الكتيبة إلى الرماية .

وكنا نشكل معسكراً عند نهر تالغاركا الجبلي السريع . وعلى مسافة غير بعيدة ، عند دسكرة تالغار ، كانت تمتد الحدائق الخضراء التي ينمو فيها التفاح الكبير الآلما ـ آتي الذي لا مثيل له في العالم . ومن حولنا البادية المستوية المحترقة بالشمس . ولكن إلى الجنوب ترتفع فوق البادية سفوح جبال تيان ــ شان . وفي مكان ما في الاعالي ، تلمع ثلوج القمم الخالدة تكاد لا تستبين على صفحة السماء . انها كازاخستان الجنوبية التي لن استطيع وصف محاسنها ابداً .

ان البادية مكان للرماية مثالي . فهي قريبة ، وهي تحت اليد بل تحت الرجل بكل معنى الكلمة ، وهي ملساء كلوح الكي .

وهذا سهل ، هذا يلذ للنفس : يكفي ان تقطع كيلومترين او ثلاثة على هذه الارض الملساء حتى ترمي وتعود . ولكني كنت اهيئ الرجال للحرب . سهل ؟ يلذ للنفس ؟ واذن فليسقط مكان الرماية المثالي . وهكذا اخذت الكتيبة إلى الجبال .

وصلنا إلى اول سطح وكان مليئاً بالشوك وبنبات « كوراي » الجاف الزاحف . كلا ، هنا لا تمكن الرماية .

كان مرتفع حجري شديد الانحدار يؤدي إلى السطح التالي . واذن فيا كتيبة الى امام ! اتبعيني ! وتسلقنا الجبل . وكان المتسلّق شديد الانحدار . فكانت الحجارة تتدحرج من تحت احذية الجنود في حفيف .

تسلقنا على اربع ووصلنا . ياللشيطان ، فهنا ايضاً لا يوجد مكان للرماية ! فالنبات الغض كان يقف امامنا كالجدار بطول قامة الانسان تقريباً . الى اين الذهاب ؟ فالى اعلى كانت تنتشر على المنحدرات خضرة معتمة من غابة البلوط .

تلك هي مفارقات الجبال . ولكن كازاخستان كلها على هذا المنوال . ألم يحدثك احد عن اسطورة خلق كازاخستان ؟ تقول الاسطورة ان الله خلق السماء والارض والبحار والمحيطات وجميع الاقطار والقارات ونسي كازاخستان . ثم تذكر في آخر لحظة ، ولكن المواد كانت قد نفدت . فاخذ على عجل من كل مكان جزءاً : اخذ طرفاً من اميركا وكتلة من ايطاليا ومقطعاً من الصحراء الافريقية وارضاً من القفقاس ، — وجمعها ووضعها في المكان الذي يجب ان تكون فيه كازاخستان . وهكذا تجد هناك في وطني كل شيء : السباخ الخالية من المياه ، الجرداء إلى الابد وكأنما لعنتها السماء ، والمناطق التي لا مثيل لخصبها وجودتها .

ولكن اين نستطيع الرماية ؟ صففت الكتيبة في اربعة صفوف وقدت هذا الجدار إلى جدار النبات . ومشى الجند جيئة وذهوباً عدة مرات . فدعكت الاحذية العسكرية الثقيلة سيقان النبات وكسرتها ودلكتها . ثم مشوا مشية عسكرية واخذوا يقلعون في اثنائها بايديهم كل ما بقي سليماً من النبات . وكنت انا قد بقيت واقفاً إلى جانب اتأمل باعجاب مغموراً بسعادة لا تنسى . اية قوة هي الكتيبة ! بهذه الكتيبة ، المنضبطة ، المستعدة للقتال ،

المفولذة ، احارب جيشاً عرمرماً من الاعداء وامر هكذا ، داعساً عليهم في الارض ، ماشياً على قبورهم . كنت اعرف ان الحرب ليست كذلك ولكني لم اكن اتصورها على خلاف ذلك .

ورسم على الارض مستطيل عريض وضعت على طرفه الاهداف . وكانت الكتيبة لا تزال واقفة في الصف ، وكان الجميع يرون رؤوساً في خوذات على طرفها الصليب المعقوف المعروف ، مرسومة بالفحم على لوحات من الخشب المعاكس . واردت ان احس مرة اخرى بقوة الكتيبة . فامرت الصف الاول بان ينبطح والثاني ان يرمي من الركب ثم هتفت :

ـ على الفاشيست بدفعات من الرصاص ! .. كتيبة ...

وتوقفت قليلاً . وكانت عدة مئات من البنادق مصوبة على اربعة اهداف . ولم تكن دفعة الرصاص للكتيبة مكتوبة في ذلك الحين في نظام القتال ، ولكني اردت ان اجرب :

ـ نار !

يا للعنة ! لقد بقينا بعد دفعة واحدة بلا اهداف . فكأنما قصت هذه قصاً . ان سبعمائة طلقة دفعة واحدة شيء رهيب. فقد فتت الرصاص الاعمدة التي تقوم عليها الاهداف ، وفرق الخشب المعاكس . لقد كنت اسب واضحك في الوقت نفسه . لقد تسلقنا الجبل على اربع ، ومهدنا مكان الرماية بنعالنا ، ووقفنا مرة اخرى لا نستطيع الرماية ...

هكذا فتتنا الالمان قبل القتال . وهنا ... ولكني لم اشأ التفكير بـ « هنا » .

وعادت تكر من جديد صور الماضي الحبيبة الى القلب . كلا ، لم تكن كل الافكار عن الكتيبة . كانت ثمة افكار عن غيرها . لقد مر بخاطري الشيء الكثير !

٣

وفجأة دوى صوت برودني :

— ايها الرفيق آمر الكتيبة . . .

لقد اجبرت نفسي على عدم الانتظار ، ومع ذلك فقد كنت انتظره والامر . وضحكت في شبه اغفاءة .

قفزت من فراشي . وكان رحيموف قد نهض ومعطفه ملقى على الارض . اما هو ، رجلي الدقيق ، رئيس مركز الرئاسة الذي لا يخاف ، فلم يلتقطه من الارض . كان يبتسم وينظر إلى برودني وإلى كورباتوف .

لقد دخلا معاً . وكانت تلمع على معطفيهما كليهما طبقة رقيقة من الطين لم تجف بعد . فلا بد انهما اضطرا إلى الزحف في مكان ما .

— أيها الرفيق آمر الكتيبة ، اسمح لي . . .

لقد كان ذلك في اليقظة ، لقد كان ذلك برودني الحي وكلامه السريع ونظرته السريعة وخداه المتوردان المتوهجان .

— هل هناك امر ؟

— نعم ايها الرفيق آمر الكتيبة ، بالانسحاب . . .

وقدم لي ورقة مكتوبة . انك عندما ترغب في شيء اشد الرغبة لا تصدق فوراً بانه قد تحقق . واني لاذكر كيف خطرت ببالي فكرة : أليس هذا كله في حلم ؟ كلا ، ان الاحلام انتهت . فنظرت الى ساعتي وكانت الثالثة والنصف . هل حقاً لم استلق إلا عدة دقائق ؟

وابلغ آمر الالاي الماجور ايلين ، في خطوط رسمها على عجل ، أن احد آمري الرئاسة سيقابلنا في الغابة وراء قرية دولغوروكوفكا ، وسيقول لنا كيف سيكون مسيرنا إلى فولوكولامسك التي يتجمع فيها الالاي .

إلى فولوكولامسك! انسحاب لمسافة ثلاثين كيلومتراً ! ولكن لامجال للانفعال . فالساعة الآن الثالثة والنصف ، وفي السابعة يبزغ الفجر .

٤

كانت الكتيبة تسير في الظلام في طوابير حسب السرايا ، على ارض زلقة يذوب ثلجها . وكان يسير المحاربون والمدافع والعربات ذات العجلتين المحملة بالرشاشات ، وعربات الخيل الموسقة بالذخيرة ، وعربات الصحة ، ثم المحاربون من جديد .

وكنت ، كعادتي ، اترك الجنود يمرون من امامي ثم ارسل الغراء فاستبق الصفوف ، – ثم اتركها تمر مرة اخرى .

وكان القمر يخترق الحجب احياناً فيبدو بقعة كدرة على صفحة السماء السوداء . وعندئذ يصبح الظلام كدراً ايضاً .

واستبقت صفوف الكتيبة من جديد .

كان الطابور يقوده كرايف . كانت سريته في الرأس . وكان يرش من تحت رجليه الماء ، ويلوح بيديه الطويلتين ، وينحني قليلاً بجسده إلى امام كعادته ، ماشياً مشيته العسكرية ومصدراً ايقاعاً خاصاً . وكان المحاربون يتقدمون غير متأخرين عنه مصطفين رباع رباع . وتمر السرية .

ومن ورائها تأتي عربات الفصيلة الصحية الموزعة بين الوحدات العسكرية . ومعنا اربعون جريحاً . وعرفت العجوز كيرييف ، ممرضنا الضخم الجسم المندلع البطن . انه في سيره منهمك : يسير الى جانب العربة ، وينحني على احد ليصلح من وضع رأسه . ثم يغمره الظلام .

وها هي جماعة بوزجانوف الضالة .

درنا حول دولغوروكوفكا واقتربنا من الطريق ، من نفس الطريق الذي ذكرناه اكثر من مرة في قصتنا هذه ، – اقتربنا من الطريق المرصوف بالحجارة ، الذي يؤدي إلى فولوكولامسك ، وهناك ، في زاوية قائمة تقريباً ، يندمج بطريق فولوكولامسك .

لعدة ايام خلت ، في السادس عشر من شهر تشرين الاول ، اندفع الالمان نحو هذا الطريق بعد ان جمعوا قبضتهم للضرب ، حاسبين انهم سيحطمون خط دفاعنا منذ الهجوم الاول ، ثم ينطلقون على الدبابات وسيارات الشحن والدراجات النارية في طريق فولوكولامسك إلى موسكو . ولما رُدوا عند سوفخوز بوليتشوفو واوقفوا في الايام التالية عند خطوط اخرى ، لم يكونوا ، وهم الذين يعرفون ان قوى قليلة تعترض سبيلهم في هذا القطاع ، لم يكونوا يصدقون بامكان الاخفاق . فكان يبدو لهم ان جهداً آخر يبذلونه ووثبة اخرى يقومون بها فينخرق الحاجز وينفتح الطريق إلى موسكو — طريق فولوكولامسك المزفت . وها قد انسحبت وحداتنا التي كانت تقاتل على الطريق. ولكن الالايات نفسها والكتائب نفسها ستقف غداً من جديد في طريق العدو ، وستجبره من جديد على خوض قتال طويل . لقد كان الالمان في كل مرة يفكرون بان هذه آخر مقاومة وآخر معركة ، ويندفعون بعناد غير راغبين في التخلي عن الاتجاه الذي اختاروه . فلا يزال طريق فولوكولامسك محور ضربتهم الرئيسية .

٥

قابلنا وراء دولغوروكوفكا مساعد رئيس مركز رئاسة الالاي ، الملازم كورغانسكي ، وهو رجل شديد الحيوية قوي العزيمة ، فصافحني بسرور وقال لي في الحال ان الكتيبتين الثانية والثالثة اصيبتا بخسائر خطيرة ، وان الناس حاربوا جماعات جماعات تنسحب ثم تعود فتتشبث بالطريق من جديد ، فتقتل الالمان وتسحق قوة العدو الحية . وتحت حماية الوحدات الساترة وتحت ستار المدفعية العاملة ضد الدبابات ، كانت الوحدات تندفع بسرعة إلى فولوكولامسك - إلى النقطة الرئيسية التي تسد طريق فولوكولامسك . وهناك خط الفرقة الجديد .

جاءت مع كورغانسكي عدة عربات محملة بالمواد الغذائية للكتيبة . وقد ارسل الينا طن من الخبز الابيض الذي خبز ليلاً في فولوكولامسك .

وكانت العربات تنتظرنا في الغابة . فقررت ان اخبئ الكتيبة هناك ، فافسح المجال للجنود حتى يأكلوا ويستريحوا ويطعموا الجياد .

أما خيول المدفعية القوية فقد كان عليها ان تعود ادراجها ، ذلك لاننا تركنا في الجزيرة المهجورة ستة مدافع واربعمائة قذيفة ، — وهو ما حصلنا عليه في الليل . وقررت ان نستخلصها مرة اخرى من تحت انف الالمان .

كان النور قد ظهر في الشرق ، ولكن الضباب كان يلف كل شيء . وكانت الكتيبة تدخل في الغابة . فاقتربت من بوزجانوف .

— بوزجانوف ! اوقف رجالك ! واخط عشرخطوات إلى جانب .

وامرت الوحدات الاخرى بان تواصل سيرها إلى امام بينما رحت انظر إلى احتياطيّ الذي لا يدخل في الكادر . وكان رجال الرشاشات الموجودون عند عربة الرشاشات ذات العجلتين في الطرف ، يقفون في ذيل الصف . والى ابعد منهم ، كان يقف في صفوف ، اولئك الذين طردتهم ليلاً من كتيبتي ، اولئك الذين مروا بعد ذلك في مطهر القتال .

وامرت بوزجانوف بان يأخذ خيول المدفعية وان يحاول ، متستراً تحت جنح الضباب ، ان يأتي بالقذائف والمدافع .

— خذ وحدتك كلها . وغط المدافع من جميع الجهات . واذا اصطدمت بجماعة قليلة العدد فحاول افناءها . أما اذا كانت القوة كبيرة فلا تشتبك معها في القتال ، بل فجر المدافع وارجع الى هنا . واعمل بسرعة . وتذكر اننا ننتظرك هنا .

فنصب بوزجانوف قامته ورفع يده بالتحية العسكرية ، وقال وعيناه الصغيرتان الضيقتان تلمعان :

ـ حاضر ايها الرفيق آمر الكتيبة .

كان يبدو ارشق مما في العادة . وكان وجهه شديد العزيمة . لقد كان يعجبه ان يكون آمراً ، كان يعجبه ان ينفذ بنفسه المهمات البالغة الجرأة .

٦

اشعل المحاربون النار ، وراحوا يغلون الشاي ويجففون ملابسهم ، وكان الكثيرون منهم جمعوا اوراق الشوح الابرية وناموا عليها ـ على فراش الجنود الاخضر هذا . وكان حساء اللحم الدسم يغلي في المطابخ السيارة . وكانت الكتيبة تستريح بعد أن نصبت حراسة دائرية .

كان الفجر قد بزغ والثلج يذوب والضباب يتبدد . كان الصباح متجهماً .

وفي الساعة الثامنة ، عندما كان على بوزجانوف ، وفق حساباتي ، ان يعود ، نجم في السماء هدير طائرات يقترب . ورأينا الطائرات . لقد كانت قاذفات قنابل المانية تطير على ارتفاع قايل ، تحت ذيول الغيوم ، تكاد تكون إلى جانبنا . وفي الوقت نفسه تقريباً دوى من الارض صوت رشاشات ومدافع غير مرئية . وانفجرت قنابل طائرات ثقيلة . وكانت الطائرات تتوالى على موجات ، واحدة بعد اخرى ، وتلقي حملها في نقطة معينة تبعد عنا اربعة او خمسة كيلومترات حيث كان يمتد الطريق المؤدي إلى فولوكولامسك .

وفجأة اصبحت الطلقات اكثر تواتراً . ولم تعد في السماء طائرات ، ولكن في المكان الذي القيت عليه القنابل اصبحت تزمجر الآن المدافع ـ

لا عشرة ولا عشرون بل ربما مئة بل مئة وخمسون مدفعاً . وابلغني فرساني الذين ارسلتهم الى هناك ، ان الدبابات الالمانية تهجم والمدفعية تردها .

وبعد قليل دوى طلق الرصاص في مكان آخر ، في الجانب الآخر منا ، على بعد اربعة او خمسة كيلومترات ايضاً . وكانت نار المدافع هناك اضعف بكثير ومصحوبة باصوات البنادق والرشاشات .

ولم يعد بوزجانوف . . . اللعنة على الشيطان الذي جعلني اعطي الكتيبة فترة استراحة وارسل الجياد والمحاربين لجلب المدافع . كان يجب تفجير المدافع في مكانها وينتهي الامر .

إلى اين اذهب الآن بلا عربات المدفعية ؟ على كل حال ليست القضية قضية عربات . . . هل استطيع ان اذهب واترك رجالي ولا انتظرهم ؟

الطلق من جهتين وبوزجانوف لا يزال غائباً . . . ياللعنة ! هل يتكرر ما جرى بالامس ؟ يجب الذهاب سريعاً كما أُمرنا ، وها نحن في مكاننا لا نريم . . .

قلت لرحيموف :

ـ انقل اوامري لآمري السرايا بان ينهضوا الرجال ويشغلوا خط دفاع دائري .

عند مفترق الطرق

١

على الطريق ، فيما وراء ساحة الرؤية ، زمجرت المدافع من جديد بضراوة بعد هدأة قليلة ولم تعد الاذن تميز الطلقات المفردة إلا نادراً في هذا الرعد المتواصل .

وكذلك في الجانب الآخر لم يهدأ القتال . ولكن كل شيء هناك ايضاً كان يختفي وراء الغابات المتفرقة .

وكذلك من ورائنا، في مكان ما وراء الطريق ، بدأت الدنيا ترعد.

وبوزجانوف ، ليأخذه الشيطان ، لا يزال غائباً . ورحت العنه والعن نفسي واجمع الفرسان لارسلهم وراءه . ولكن مهما غضبت فلن نتقدم. فلقد اوقعت نفسي بنفسي في الورطة واغلقت على نفسي المنفذ .

كان المحاربون يحفرون على طول طرف الغابة خط دفاع دائري . وكان هذا يتم تحسباً للطوارئ . . . فعندما يظهر بوزجانوف ننطلق ونذهب في الحال . ويغمغم جندي : « عبثاً حفرنا » . ليت هذا كان صحيحاً .

تفقدت السرايا مع رحيموف . وبعد استراحة قصيرة ، وتناول الخبز الابيض وحساء اللحم الساخن، اصبح الرجال في بهجة وسرور . فكانوا يستقبلونني بالمزاح . وماكان هدير المدافع القريب ولا طلق الرصاص من كل جانب ، يترك فيهم انطباعاً خاصاً . فليست هذه اول مرة بالنسبة لنا : فان الشعور بالخوف ذهب في الامس واصبح من ماضي الكتيبة . وانتقل الانشراح إلي فقلت في نفسي : « لن يصيبنا مكروه ! »

٢

دعوت في خيمة الرئاسة آمري السرايا . وشرحت لهم ان مفرزة بوزجانوف التي أرسلت للاتيان بالمدافع قد تأخرت عن الموعد المضروب ، واعلنت لهم قراري ، وهو ان الكتيبة لن تذهب ما لم يرجع رجالنا . واذا اقتضى الأمر سنذهب لنجدتهم .

ورأيت في عيونهم انهم جميعاً تقبلوا هذا الأمر بقلوبهم .

وبعد ان تكلمت مع الآمرين صرفتهم وخرجنا معاً من الخيمة .

وظهر فارس بين الاشجار ، وصرخ من بعيد فرحاً :

ــ انهم قادمون !

فوقفنا جميعاً . لقد جاء الفارس بالنبأ المنتظر ، وهو ان رجالنا يقتربون ، ان مفرزة بوزجانوف تتقدم من الغابة ، جارة معها المدافع .

والآن اخيراً استطيع ان اعطي الامر بمواصلة السير إلى فولوكولامسك .

قلت : ــ كل إلى مكانه ! تهيأوا للتحرك . فيليمونوف ، ابق !

كان فيليمونوف آمر السرية الثالثة ، وكان ملازماً قوي العزيمة نحيف القوام في الخامسة والثلاثين من عمره .

تلقى مني مهمة انهاض سريته والشروع في الحال بتشكيل حراسة امامية في المسير . لقد كان ذلك ترتيب الكتيبة في المسير في ظروف القتال : وهو أن تتقدم الحراسة الامامية على الطابور الرئيسي بمقدار ثلاثة او اربعة كيلومترات .

ونظرنا انا وفيليمونوف في الخارطة . لقد كان الاتجاه المباشر والاوفق من غيره هو الطريق المزفت. فان ارتفاع درجة الحرارة في الجو لا بد ان يكون قد احال جميع الطرقات الجانبية إلى خليط ، ما عدا هذا الطريق الصلب الوحيد . ولكن إلى هناك ، إلى ذلك الطريق ، اندفع الألمان من عدة نقاط في جماعتين او ثلاث جماعات . واشرت على الخارطة خطاً للسير اصعب ولكن آمن ، وهو ان نقطع الطريق ثم ننعطف نحو الشمال ونخرج في طرقات غير معبدة نحو فولوكولامسك .

وكان على فيليمونوف ان يتحرك فوراً بهذه الطريق وان يسبق نواة الكتيبة بالمسافة الواجبة .

فذهب مسرعاً إلى سريته .

وجاء سينتشنكو بالغراء . فامتطيتها وذهبت إلى مفرزة بوزجانوف .

كانت خيول المدفعية الضخام تجر المدافع في جهد جهيد عبر اراض لا طرق فيها ، في وهدة خفيفة الانحدار . وكان الضباب قد مسح

طبقة الثلج الخفيفة . وكانت العجلات تشق قشرة الارض . وكان المحاربون يساعدون الخيل ، مسندين ارجلهم إلى النباتات المبتلة الزلقة .

كانوا ينظرون إلي بتجهم . وشتم احدهم في عبوس . وقال آخر :

ـ ايه ايها الرفيق آمر الكتيبة . . . انه يزحف في جميع الطرقات . . .

وغمغم ثالث وهو ينظر إلى الارض :

ـ وما على باله هو ؟ يسوط فرسه ، وينتهى الامر . . .

فعرفت فيه باشكو :

ـ باشكو ! ماذا قلت ؟

ـ لا شيء . . .

كان يجب ان اعيده إلى جادة النظام واجعله يشعر ما هي يد الآمر ، ولكنني التزمت الصمت . لم اكن اعرف ماذا جرى للرجال . لقد عادوا في سلامة من قضية خطرة وصعبة ، ونفذوا مهمة قتالية في شرف . فلماذا اذن هذا الانقباض بدلاً من الاعتزاز والبهجة ؟

واقترب بوزجانوف . انه في العادة شديد الحيوية كثير الابتسام ، ولكنه الآن كان ايضاً مقطب الجبين رصيناً .

واخذ بوزجانوف يلقي تقريره في لهجة رسمية ، ولكنني قاطعته :

ـ ماذا حدث لكم هناك ؟ لماذا هذه الكآبة عليكم جميعاً ؟

فخفض صوته وقال في مضض :

ـ عرفنا . . .

ـ ماذا عرفتم ؟

ـ رجالنا في كل مكان هنا انسحبوا . ونحن من جديد . . .

ـ ماذا من جديد ؟ ما هذا الهراء ؟

ونظر إلي نظرة طويلة في عينيّ وقال في حزن :

ـ اكساكال ، لماذا تعاملني هكذا ؟ انك تعرف اني انا . . .

ولكني قاطعته مرة اخرى :

ـ اليك « انا » هذه ! ـ واشرت إلى المحاربين المتجهمين الذين يجرون المدافع ـ فكر فيهم . فانك مسئول عنهم . نعم ، ماذا يعني « نحن من جديد » ؟

ـ من جديد وحدنا . . .

ـ من اين لك هذه الفكرة ؟

ـ لقد ازيلت جميع مراكز الحراسة في حضورنا . . . وذهب الجميع . . . منذ زمن بعيد ، اكساكال .

هذه هي القضية اذن ! وتذكرت كلمات سيفريوكوف : « تلفون الجنود اللاسلكي » . كم كان هذا « التلفون » يثير البهجة آنذاك ، في ساعة النجاح في القتال ! اما الآن ، في ساعة الانسحاب ، فليس الامر كذلك . . .

كانت المدافع وصناديق القذائف تتحرك في بطء . وكنت انظر إلى الناس وافكر . وشاهدت باشكو مرة ثانية . كان كالسابق يطرق في الارض ويدفع المدافع مع الآخرين . كان منحنياً بكل جسده المفتول العضل على ركيزة المدفع ، مستنداً بكعبي حذائيه إلى الارض الطرية . وكان الطين قد غمر حذائيه ولكن مسماتيه العاليتين الفاخرتين المصنوعتين من جلد الخروم الاصفر كانتا مع ذلك بينتين . وسألت بوزجانوف بغير ارادة مني :

ـ ما هذه الاحذية التي يلبسها ؟

فاجاب بوزجانوف :

ـ انتزعها من الماني في نوفلانسكويه . قتل ضابطاً . واخذها . . .

نعم ، ان باشكو شاب طريف . جريء متهور ولكن . . . لا يزال معدوماً فيه ، لا يزال غير ظاهر فيه ، كما لاحظت في الليل ايضاً ،

ذلك المظهر الاول من مظاهر الجندي الرائعة . وهو الطاعة والانضباط الذي يأتي به التدريب القاسي في الجيش ثم يصبح طبيعة ثانية للجندي .

ولأسفي على اني لم أؤدبه . فقد كان ذلك درساً للجميع . . . كان يجب ان يسمع الجميع الآن كلمة الآمر .

ولكن الوقت لم يعد مناسباً لذلك . وعلي ان اتحقق في الحال مما قاله بوزجانوف ، واستوضح الموقف ، واعرف ماذا يجب ان افعل ، واتخذ قراري .

هكذا ارتكبت خطأ لا يُغتفر للآمر مهما كانت الظروف : وهي اني تسامحت مع جرأة جندي ، وغيرت القاعدة القائلة : « لا تتغاض ابداً » ، ولم اقو نفس الجندي بكلمة الآمر الناهية .

وقد جاءت عاقبة ذلك رهيبة ، اذ اريق بعد دقائق دم كان يمكن ألا يراق .

٣

اصبحت طلقات المدافع التي كانت منذ لحظات تندمج في هدير راعد ، اصبحت الآن تدوي في تواتر اقل ، ولكنها تأتي اكثر وضوحاً . فكأنما تقدمت اكثر او ان الصوت هناك ، خارج الغابة ، لم تعد الاشجار تبتلعه . أما في الجانب الآخر فقد ابتعد صوت الرشاشات والبنادق .

وأما من امامنا فقد كان كل شيء قفراً كالسابق : جزء من الطريق يلمع براماته ووحله ، وانحدارات وهدة مبتلة ، وقمة متعرجة مرتسمة بوضوح على صفحة السماء الرمادية ، تخفي عن الانظار كل ما وراءها ، ومن ورائنا الغابة .

كان موقفاً غير مستحب : فلست تعرف شيئاً كما يجب ، ولست

ترى شيئاً ، بل تسير بلا هدف بين بؤرات القتال . وكانت الكتيبة تُحرس من قبل الفرسان ، ولكني عزمت ، بعد نبأ بوزجانوف ، ان القي نظرة من اقرب مرتفع جانبي لارى ماذا يحدث من حولي .

قلت لبوزجانوف :

– جر المدافع إلى الغابة . وساتسلق مرتفعاً وارى . . .

واراد سينتشنكو ان يذهب معي ولكني ابقيته عند طرف الغابة .

وبعد دقيقة حملتني الغراء مهرولة إلى تلة . ومن هناك رأيت القرية الممتدة على طول الطريق. ورأيت حركة في الشارع ، وحركة في الطريق، وتوهجات بيضاء خاطفة لطلقات مدفعية . فاحكمت المنظار على عيني .

كانت مدفعيتنا تنسحب ، والجرارات المربوطة بالمدافع تبتعد عن القرية وتتقدم في الحقل متجنبة الطريق . ورأيت رجال المدفعية يسيرون إلى جانب مدافعهم وهم يديرون انظارهم في قلق . وعرفت القامة الطويلة للكولونيل مالينين آمر الاي المدفعية . وشاهدت في المنظار انه توقف واخرج علبة سيكاراته وفتحها واخذ سيكارة واشعل عود ثقاب ودخن ، وفعل كل هذا بتأن ومهل وهدوء ظاهر . ثم اوقف مدفعاً كان يزحف إلى جانبه ، واشار إلى مكان . فتنحى الجرار جانباً ، ووقف رجال المدفعية في اماكنهم . فنظرت من خلال المنظار إلى حيث اشار مالينين ، فرأيت لاول مرة الدبابات الالمانية . . . ورأيت الصلبان البيضاء على فولاذها الاسود الفاحم ، واللهب يخرج من الفوهات الدقيقة . . . لقد كانت الدبابات تدخل إلى القرية وهي تطلق النار .

تملكتني الرغبة في ان اتتبع بانتباه هذه المعركة ، هذا الشريط من اشرطة الحرب الحديثة الذي يمر امامي ، ولكني ابعدت المنظار والقيت نظرة على ما حولي . كان فرساني منطلقين في الطريق الثانوي

الذي يتصل بالطريق المزفت . وتكهنت بانهم تقابلوا في مكان ما مع الالمان القادمين إلى هنا ، وان وحداتنا المنسحبة إلى الشمال لا بد انها تركت هذا الطريق الثانوي .

فبأية وسيلة ، واي طريق سنخرج الآن ؟ كان يجب الآن توجيه الكتيبة إلى تلك الناحية من الطريق الثانوي قبل ان تنسد الثغرة ويقطع العدو علينا الطريق ويحصرنا في الزاوية من الطريقين . واستمررت انظر في قلق إلى المكان واذا بي أرى سرية فيليمونوف التي كانت قد تقدمت على الكتيبة حسب اوامري .

كانت السرية السائرة في الوهدة تتقدم في طابور نحو القرية ، نحو براثن الالمان مباشرة ، دون ان ترى ماذا يجري في القرية ، دون ان ترى الدبابات . ماذا يفعل ؟ هل جن ؟ انه يسير كالاعمى ، فليأخذه الشيطان ! فضربت الغراء بمهمازيّ في ضراوة ، فانتفضت من الالم . سارعت هرولة بقرب طرف الغابة، بقرب الكتيبة، لالحق بالسرية.

٤

لحقت بها .

ـ سرية ، قف ! فيليمونوف ، إلى اين انت ذاهب ؟ إلى اين انت منطلق ؟

فقال في حيرة :

ـ اني مصغ ايها الرفيق آمر الكتيبة .

ـ الى اين انت ذاهب ؟

ـ كنت افكر ايها الرفيق آمر الكتيبة بان اخرج إلى القرية عبر هذه الوهدة ، ثم اسير في الطريق حسب خط السير المرسوم .

ـ لماذا لم ترسل رواداً ؟ ان الالمان في القرية !

فظهر الارتباك على وجهه الاحمر . لقد اصبح فيما بعد ، هو يفيم يفيموفتش فيليمونوف ، احد ابطال الكتيبة ، ولكنه كاد هنا يصدم سريته بالدبابات دون ان تكون لديه اسلحة مضادة للدبابات : كان يقود المحاربين في الوهدة دون ان يرى شيئاً فيما حوله .

لقد اوقفته في الوقت المناسب ، فلم تخسر السرية محارباً واحداً ، ولكننا فقدنا الوقت بذلك .

واندفع الينا في الوهدة شخص ممتطياً حصانا منطلقاً بكل سرعة . وعرفت فرس سينتشنكو الرمادية . ووصل وقال :

ـ ايها الرفيق آمر الكتيبة ، لقد هربوا . . .

ـ من ؟

فواصل كلامه ، دون ان يجيب ، لاهث الانفاس ، مضطرباً :

ـ رأوك . . . فصرخوا : « آمر الكتيبة هرب ! » وهربوا . . .

ـ من ؟

ـ انهم . . . رجال الامس . . . الذين قبلتهم في الكتيبة . . .

ـ والكتيبة ؟

ـ لا اعرف . . . فعلى الطريق الالمان . وما ان صرخوا « آمر الكتيبة هرب ! » ، وما ان هرب كل في سبيله ، حتى جئت اليك على الفور . . .

قلت :

ـ فيليمونوف ! ارجع السرية ادراجها ! بسرعة ! سينتشنكو ، اتبعني !

وللمرة الثانية في هذا اليوم ضربت الغراء بمهمازيّ .

٥

هرعت إلى الغابة . وكانت من بعد تبدو خالية . ترى هل هي حقاً خالية ؟ هل حقاً دب الذعر ؟ هل حقاً تبعثر سيفي الفولاذي ، كتيبتي ، في لمح البصر ؟ اذن لاحياة بعد الآن ! ولكنني لا اصدق ، لا اصدق .

ولاحظت ، وانا منطلق ، عدة اشخاص عند طرف الغابة . كانوا كأنهم ينتظرونني . فاسرعت إلى هناك . ورأيت كرايف المتجهم ، ورأيت خطاً من الحفر غير كاملة الحفر ، واكواماً من التراب المستخرج حديثاً . ولم يكن ثمة محاربون .

ـ كرايف ! ماذا حدث للكتيبة ؟ اين المحاربون ؟

فاجاب وهو يؤدي التحية :

ـ كان الأمر ايها الرفيق آمر الكتيبة بالاستعداد للتحرك .

ـ نعم ، ولكن اين السرية ؟

ـ مصطفة في الداخل . . . ان النظام لم يختل في السرية ايها الرفيق آمر الكتيبة .

ـ وماذا جرى هنا ؟ اين ؟

فاشار كرايف الى حيث التقيت لعدة دقائق خلت بالمدافع . وغمغم في تجهم :

ـ هناك . . .

اوه ، انك لا تستطيع انتزاع كلمة منه ! وانطلقت بي الغراء بكل سرعتها .

وفي احدى النقاط تكشف لي لحظة عابرة منظر القرية . لقد كانت السيارات تسير ، وكانت المدافع تسير على جنازير . انهم الالمان

ونزلت الآن من سفحة التلة إلى الوادي . وكان ثمة مدفعان لم يجرا بعد إلى الغابة. وعند المدفعين كانت تتكوم جماعة من الجنود، ممن قبلتهم في الكتيبة امس بعد مجزرة الليل في نوفلانسكويه . لم يكونوا يجرون المدفعين ولا يعملون شيئاً ، بل كانوا ملتصقين بلا نظام بالعجلات الغائصة والخيول الواقفة . ورأيت بوزجانوف شاحب الوجه ، مطبق الشفتين في توتر ، ممسكاً في يده مسدساً .

صرخت : ــ بوزجانوف ! هل هرب هؤلاء ! هل صرخ هؤلاء بان آمر الكتيبة هرب ؟

فهز رأسه بالايجاب صامتاً . فكانت شفتاه لا تزالان مطبقتين بقوة ، ووجهه الممتلئ المعروف قاسياً قسوة لا اعهدها فيه ، وخداه غائرين ، وجميع ملامحه اصبحت اكثر حدة .

صرخت :

ــ هذا هو آمر كتيبتكم ! هل ترون جميعاً ؟ بوزجانوف ، من الذي صرخ ؟ كلهم ؟

ــ هذان . . .

واشار بوزجانوف بحركة من رأسه إلى ناحية ، حيث كانت جثتان ملقاتين على وجهيهما على المنحدر عند مسافة معينة . وكان دم قد سال إلى تحت إلى آثار الحوافر العميقة . وعرفت ، تكهناً اكثر مما باية علامة خارجية ، واحداً منهما ، هو الذي كان يمكن ان يصبح بطلاً مشهوراً ولكنه مات كخائن وكجبان . نعم انه باشكو . وكان حذاءاه العاليان الاصفرا الجلد ملوثين بالطين على رجلين انحنتا انحناء غير طبيعي وكأنما تجمدتا وهما تتحركان .

ووجد بوزجانوف في نفسه القوة ليقول لي بلهجة رسمية :

— اسمح لي بتقديم تقريري . . . على اثر الذعر الذي دب ، وجدت نفسي مضطراً ايها الرفيق آمر الكتيبة ، لاستخدام السلاح .

— وهؤلاء ؟ ألم يهرب هؤلاء ايضاً ؟ لماذا لم تعدم كل من هرب ؟

فسكت بوزجانوف .

— اني آمر بان تقتل بلا انذار كل جبان اذا هرب .

— سمعاً وطاعة ايها الرفيق آمر الكتيبة .

كلا ، لست شرهاً للدم . ان القسوة التي لا معنى لها شيء مقرف . ولكن الموقف كان يتطلب ان يذكر الرجال الدرس ، وان يحفظوا عن ظهر قلب إلى الابد قانون الحرب ، قانون الجيش .

نظرت إلى الجماعة :

— هل ترون جميعاً آمر الكتيبة ؟ هل تسمعون جميعاً ؟ بوزجانوف ، اصلح من منظر الرجال ! اسحب المدافع ! ثم تعال إلي في الرئاسة لتنال قطاعاً من خط الدفاع .

وهزت المقود، فسارت الفرس الطيبة وقد استعادت انفاسها، إلى خيمة الرئاسة في الغابة .

٦

كنا في فكي الطوابير الالمانية . وانقطعت صلة الكتيبة مرة اخرى .

اذا رأى احد نقدة قصتنا في المستقبل ان من الضروري اتهام احد في هذا، فبوسعي تسهيل المهمة عليه ، فالمذنب انا ! انه لا حرب بلا مخاطرة ! ولقد خاطرت وارسلت الرجال إلى مؤخرة العدو ليأتوا بقذائف ومدافع متروكة . ولقد جيء بالمدافع ، ولكن الكتيبة انعزلت وانقطعت صلتها . والآن لن نخرج قبل حلول الظلام .

ترى هل ارتكبت غلطة ؟ ربما . ترى ألم يكن من الواجب العمل بذكاء اكبر وببعد نظر اكثر؟ ربما .

ليوبخني الناس على هذه الغلطة اذا كنت استحق ، ولا يتسامحوا معي ، ولكني لن ادعي اني آمر منزه عن الخطأ ، آمر من ذهب ، او بالاصح : من سكر .

لقد كنا بين فكي الطوابير الالمانية . وكانت الدبابات تسير في الطريق المرصوف بالحجارة . ومن ورائها كانت تسير في صفين إلى فولوكولامسك ، إلى موسكو ، سيارات الشحن والدراجات النارية والعربات الجرارة ، والمشاة ، والذخائر الحربية والمدافع ، والحشدة الالمانية المعدة للضربة الرئيسية . ومن الطريق الثانوي كانت تنصب في الطريق المزفت وتتقدم بنفس الاتجاه عربات الجماعة المساعدة التي اخترقت الخط بقربنا امس .

كان الاحتشاد يزداد عند مفترق الطرق . وكانت مصلحة المرور الالمانية قد نظمت الحركة موقفة هذا الطابور تارة و ذاك تارة اخرى .

نظرت في المنظار . فرأيت وجوه الجنود الالمان الجالسين في سيارات الشحن كتلك التي رأيتها امس عند نوفلانسكويه ، كلها وجوه شباب . ولم يكن يُلحظ فيهم سرور او ضحك أو انتعاش خاص . كانوا جالسين في بيريهاتهم و معاطفهم الصيفية الخفيفة ، وكان الكثيرون منهم يدسون ايديهم في اكمامهم من البرد : فقد كان طقس تشرين الاول الرطب البارد يسئمهم . لقد كان ذلك بالنسبة اليهم ، هم الفاتحين ، اياماً عادية ، لقد اصبح ذلك لهم شيئاً عادياً : إلى امام ، الى امام !

اقترب مني آمر بطارية المدفعية .

فسألت : ــ هل المدافع مصوبة إلى الهدف ؟

ــ نعم ، ايها الرفيق آمر الكتيبة .

ـ يجب حشوها ثم الابلاغ عن ذلك !

قدمنا ثمانية مدافع إلى لسان الغابة الممتد نحو ملتقى الطرق . وارسل قسم من رجال المدفعية إلى مدافع شيلوف الستة الموضوعة في نقطة اخرى . وكانت المسافة من لسان الغابة حتى مفترق الطرق زهاء كيلومتر . وكان الهدف واضحاً . وكانت السيارات الالمانية ترى بوضوح في منظار التصويب . ويسمى هذا بالضرب المباشر .

وابلغ آمر البطارية : ـ كل شيء جاهز !

ـ هيا ! اضرب بدفعات ! بدفعات !

ودوى الامر :

ـ بطارية . . .

ثم سادت فترة صمت .

ـ نار !

واندلع اللهب ، ودوى الرعد ، واهتزت الارض . ورأيت في المنظار ان الشظايا وقطع التنك تتطاير .

ـ نار !

وراح الالمان يقفزون من السيارات ويندفعون إلى الخندق ، مبتعدين عن الطريق . واختفى في مكان ما رجال مصلحة تنظيم المرور الالمانية .

ـ نار !

كلا ايها السادة « الظافرون » ، لن تمروا من هنا ! هل قطعتم عنا الصلة ؟ كلا ، بل نحن قطعنا بنارنا عليكم الطريق ، وفصلنا طوابيركم . هل اسرعتم الى موسكو، إلى موسكو ؟ قفوا اذن ! اعملوا اولاً على التخلص منا ، وحطموا كتيبة من الجيش الاحمر !

ايتها البندقية ، ايتها البندقية ألن تنجدينا؟

١

توقف كل شيء على الطريق المزفت . اما السيارات الخلفية فراحت تدور على اعقابها في الزحمة . وتعود الى القرية بعد ان تتفادى السيارات القادمة وتتأخر في الزحام .

تركت في لسان الغابة مدفعين وأمرت بأن يضربا السيارات ثم يغيرا موقعهما عندما يبدأ العدو في الرد .

وجررنا المدافع الأخرى عبر الغابة ، ونظفنا في سرعة بالقَدُم والمناشير طريقاً يؤدي إلى ذلك الطرف الذي نصبح فيه أقرب إلى القرية . وتسلق المصححون و معهم المناظير وسماعات التلفون إلى اعالي أشجار الصنوبر . وجاءنا من مراكز المراقبة هذه ان القرية غاصة بالسيارات وان العدو يرسلها إلى جانب في الطريق الثانوى ولكن سيارات الشحن تغوص هناك في الوحل .

قلت لآمر البطارية :

ـ شدد عليهم نارك ! اقذف هذا الجمع المزدحم بستين قذيفة . ثم انتظر الأوامر . سنكرر العملية اذا تحركوا .

وتوجهت الى الرئاسة . وكانت السرايا قد شغلت في الغابة خط الدفاع الدائري . وغاص المحاربون في الارض . وكان الاسفين الغابي الذي تحصنا فيه اوسع من جزيرة الامس . ولكنني لم اكتف بهذا بل جعلت خط الدفاع اكثر تخللاً حتى تنقص الخسائر التي لم اشك في ان نار الالمان ستلحقها بنا . وانسحبت فصيلة رشاشات وثلاث فصائل قناصة الى داخل وتوزعت في نقاط مختلفة بصفة احتياطي .

وأمر محاربو الأحتياط بأن يحضروا لانفسهم خنادق ضيقة . كما ان المركز الطبي ، مع جميع الجرحى ، غادر سطح الارض إلى الملاجئ الارضية والخنادق الضيقة المتعرجة . واما فصيلة الادارة فقد حفرت ملاجئ للجياد .

وكذلك مركز قيادة الكتيبة لم يعد في الخيمة ، بل تحت الارض ، تحت صفوف متراصة من العوارض الخشبية . وعاد المصباح هناك إلى الاشتعال ، وقامت المائدة المعروفة ، وجلس عمال التلفون في الزاوية . ونهض رحيموف ، كعادته ، لاستقبالي .

ومن مركز القيادة تلفنت إلى حيث كانت مواقع نار مدافع شيلوف ، وكانت مصوبة إلى الطريق الثانوي الذي كان مسدوداً بزحام السيارات المعطلة عند المفترق .

امرت باطلاق خمسين قذيفة على اقرب قرية في هذا الطريق ، حيث تجمعت السيارات ايضاً . وكنت اشعر بان العدو قد تسمر في مكانه لا يستطيع حراكاً . والآن سيكشر لنا عن انيابه . حسناً لنر كيف سيبتلعنا . . . ألن يغص حلقه بهذا القنفذ ؟

لست ادري اذا كنت تعرف ما هو الاحساس بالتجمع التام ، عندما تكون كل خلية ، على ما يبدو ، معبأة ، عندما يكون الذهن صافياً صفاء غير عادي ، ويكون الجسم خفيفاً إلى حد عجيب ؟ كانت المدافع تهدر من جميع الجهات . وكنا نحن الهاجمين . كنا نحن ندير اللعب . وكانت مخاوف الامس واحاسيس كآبة الامس كأنما لم تكن .

٢

كان احد المبادئ التكتيكية للحرب « الصاعقة » ، التي استعملها الألمان كما هو معروف في بولونيا وهولندا وبلجيكا وفرنسا ، هو التالي :

اختراق خط الجبهة في نقاط مختلفة ثم الاندفاع الى امام ، الى امام ، تاركين وراءهم وحدات عدوهم مشتتة مقسمة محطمة المعنويات . ولكن الهتلريين لم يستطيعوا تطبيق هذا المبدأ عند موسكو .

غير اني هنا لن اتكلم إلا عن كتيبتي .

عندما وجدنا انفسنا منقطعي الصلة خلال المسيرة ، عندما توقفنا (واعيد هنا بين قوسين : بذنبي انا) في الطريق ، الطريق المزفت الوحيد في تلك المنطقة ، الذي استطاع به الالمان ان يتقدموا بسرعة ، قمنا نحن بدورنا وقطعنا عليهم الطريق بنارنا . وهذا ما يسمى باللغة العسكرية مراقبة الطريق بالنار .

وبهذه الوسيلة اجبرنا الالمان على الاهتمام بتصفية نقطة المقاومة بدلا من ان يسيروا « الى امام ، الى امام ! » . لقد اجبرناهم على ذلك . . . وهذا ما يسمى باللغة العسكرية فرض الارادة على العدو .

وبدأ الالمان يمطرون الغابة قذائف والغاماً . فكنا نرد عليهم مناورين بالمدفعية . كنا نضع المدافع الاربعة عشر جميعاً في مكان ما ، ونطلق وابلها عدة مرات على مؤخرة العدو ، ثم نفرق المدافع بسرعة مثنى مثنى ، او رباع رباع ، ونطلق نيراناً متواترة على نقاط اخرى . وتراءت ست قرى من اعالي شجر الصنوبر ، وجميع هذه القرى الست محتلة من العدو. وكنا ننال العدو في جميع هذه النقاط بالتناوب ، ولا سيما اننا كنا اغنياء بالقذائف والمدافع .

اغارت تسع قاذفات قنابل ، واخذت تنقض معولة . واهتزت الغابة من الانفجارات الثقيلة . وماذا ؟ ان امنا الارض كانت تحمينا . ولم يتأذ على وجه الخصوص إلا الخيل التي لم نجد متسعاً من الوقت لاعداد الملاجئ لها . فكانت نتيجة هذه الغارة الجوية هلاك اربع عشرة فرساً وتحطيم مدفعين وجرح ستة اشخاص .

وعند الظهر ، في الابعاد ، على مسافة خمسة عشر كيلومتراً تقريباً الى الشمال ، اي باتجاه فولوكولامسك ، عادت المدافع من جديد ، كما كان الامر في الصباح ، تهدر بكثرة . وكانت طلقات المدافع البعيدة ، تندمج احياناً في زمجرة متواصلة : لقد كان يستدل من الصوت ان النار هناك تنطلق لا من عشرة ولا من عشرين مدفعاً ، بل كما في الصباح من مئة أو مئة وخمسين . وقد عرفنا فيما بعد ان الدبابات المندفعة واجهت الاياً مدفعياً آخر . وأما هنا فقد قطعنا الطريق على الامدادات ، على المدفعية والمشاة الآليين والذخيرة .

هاجمتنا سلاسل العدو ثلاث مرات وفي كل مرة كنا نتركهم يقتربون ثم نرسل عليهم وابلاً من البنادق وناراً خنجرية من الرشاشات ، فنحصد السلاسل الالمانية ونلصق السالمين بالارض ونجبرهم على الانسحاب زحفاً . وقد حدث هجوم في المكان الذي كانت فيه بضعة من مدافعنا تناور بعجلاتها في الغابة . فجاءت المناسبة ــ المناسبة التي ينتظرها كل مدفعي حق في سره ، ــ وهي ان يقابل مشاة العدو في الوجه . هل تعرف ما هو الضرب في الوجه ؟ هو ان القذيفة الملقاة من ماسورة المدفع تنفجر في الحال وهي طائرة في الهواء وتتناثر منها مئات الرصاصات ، مئات الشظايا الحامية القاطعة التي تضرب المشاة الهاجمين في وجوههم بقوة رهيبة .

لقد بينا للعدو ثلاث مرات في ذلك اليوم ، حقيقة القتال الاساسية ، وهي ان الزحف بصدر مفتوح إلى النار الخنجرية عمل فارغ لاطائل تحته ، وان مهاجمة الموقع قبل اسكات نقاط النار وتحطيم المعنويات ، عمل فارغ لاطائل تحته .

وتحطيمنا ، ــ اوه ! كم من ضربات المدفعية وكم من الوقت

ننتزع من يد الالمان ! الوقت ، الوقت ـ هذا ما انتزعناه من العدو . انتزعنا منه ايضاً الناس ، القوة الضاربة الحية .

حل المساء دون ان يلحظ . وحان الوقت للتفكير بالانسحاب . ولكن تصور اني لم ارغب في الانسحاب . ولكن ذخيرتنا قد نفدت ، وإلا لحاربت في ذلك المكان يوماً آخر ، وامسكت العدو يوماً آخر من ذيله ، ولعبت به . . .

لم يعد ثمة خوف . وذهبت همومي عني ، بقيت في جزيرة الامس .

وهكذا استؤصل الخوف من التطويق . هكذا مررنا باول درس من دروس التعليم العسكري العالي .

٣

اسدل الظلام سدوله . واتتنا اخبار الاستطلاع بان القوات الالمانية موجودة في جميع القرى المجاورة ، وان كل قرية محمية بحراسة قوية ، وان كل الطرق مقطوعة على الكتيبة .

ولكن الطريق المزفت ليس حتى الآن ملكاً للالمان ايضاً ، ما دمنا نحن هنا . ورحت افكر بطريقة للخروج من التطويق . يمكن الذهاب في الغابات . انظر إلى الخارطة . هل ترى هذا الشريط الطويل من الغابة ممتداً الى الشمال حتى فولوكولامسك تقريباً . ان المشاة يسهل عليهم المرور في الغابة . ولكن العجلات ؟ المدافع والاحمال ؟ هل نتركها ؟

كنت ، وانا افكر ، اواصل الحرب . وقد حاول الالمان استغلال فرصة الظلام لاستئناف حركتهم في الطريق المزفت . ولكننا لم ندعهم يفعلون . فوجهوا السيارات للالتفاف . ولكننا اعقناها ، فقد كنا نضرب تشعبات الطريق . وشعرت كالسابق اني ممسك بذيل العدو . فلم اشأ افلاته .

وفي الساعة التاسعة او العاشرة مساء جاء رسول من بانفيلوف ، هو الملازم آنيسيين . وقدم لي ورقة من الجنرال يأمرني بالخروج في الحال من التطويق وايصال الكتيبة إلى فولوكولامسك .

وقد وصل الينا آنيسيين عبر طريق الغابة . وكانت المسافة الفاصلة بين كتيبتنا وقواتنا تبلغ خمسة وعشرين كيلومتراً. فكيف نجتاز هذه المسافة؟

عزمت على ان نتسلل في الظلام إلى قلب الغابة ، وهناك نسير حسب البوصلة باتجاه فولوكولامسك ، ممهدين الطريق للمدفعية والاحمال . واقمت حفلة الوداع ، طلقات مدفعية الوداع على كل مؤخرات العدو التي تنالها مدافعنا . وهنا الى اللقاء ايها السادة ! سنتقابل مرة اخرى .

وبدأت الكتيبة تنضم .

٤

كنا نسير في الظلام عبر الغابة الازلية التي يمنع فيها قطع الاشجار. وكانت تشتغل المناشير والقُدُم ونسقط الاشجار ونجرها ، ونشق الطريق ، نشق تذكاراً لانفسنا .

كان لدى الكتيبة سبعون منشاراً ومئة وخمسون قدوماً ، وكلها يعمل . وكنا نحن نسير ونسير . وكانت مقاطع جذوع الاشجار التي نقطعها تعطي بياضاً كدراً في الظلمة . وكانت تتقدم في هذا الطريق العربات ذات العجلتين وعربات الصحة والمدافع . لقد كنا نجر معنا اثني عشر مدفعاً ، بعد ان تحطم اثنان في المعركة ثم نسفناهما بعد ذلك . وكنا قد خسرنا حوالي عشرين حصاناً ، ولكن الاحمال اصبحت اقل : القي اكثر من الف قذيفة على العدو ، وبقي فقط احتياطي الطوارئ . وبقي ايضاً قليل من صناديق الخراطيش . أما ما انفقناه فهو قذائفنا التي اطلقناها وهو نار الرشاشات وهو الهجمات الثلاث التي صددناها . ولم

يكن في العربات لا خبز ولا محفوظات ولا حبوب ولا خضار ، إلا الشيء القليل الذي حُفظ للجرحى . نعم ، لقد حان الوقت ، حان الوقت للانسحاب . وستصيبنا الضائقة غداً .

كنا نسير ونقطع ونحتطب ، ونتقدم ببطء ، في اماكن اخرى ، في اماكن قطعت العاصفة اشجارها ، في الادغال ، اقل من كيلومتر في الساعة . ولكننا كنا نتقدم ونشق لانفسنا الطريق مسترشدين بالبوصلة ، مبقين لانفسنا نصباً تذكارياً لعشرات السنين هو الأشجار المقطوعة .

كنا نسير بلا توقف ، بلا استراحة ، كل ما في الامر ان المفارز العاملة كانت تتغير وتتناوب كل ساعة .

وفي الغابة ، طلع علينا الفجر ونحن نسير . وكانت الجذوع الشاهقة تتساقط في صفير وانين ، محطمة الاشجار الصغيرة والجافة . وفجأة توقف كل شيء . وسكتت المناشير . وانقطعت ضربات القدم . ورسمت قبة شجرة متأخرة قوساً ، فتوقف القطع .

وابلغت الحراسة الامامية ان الكتيبة وصلت إلى فسحة لا أشجار فيها تمتد معترضة ايانا ، وان هناك طريقاً ثانوياً يؤدي إلى الطريق المزفت ، وان على الطريق العدو .

٥

وقفت عند طرف الغابة ورحت انظر .

كانت سيارات الشحن تزحف ، وتغوص في الوحل فيجرونها جراً . وكانت المقاعد التي يجلس عليها المشاة ، خالية من الجنود . ولكن في صناديق سيارات الشحن مواسير مدافع الهاون وكأنها حطب للوقود ، كأنها اخشاب مكومة . وكان المشاة يسيرون على اقدامهم ويدفعون السيارات . وكان بعضها محملاً حملاً ثقيلاً من الذخائر ، وبعضها الآخر مربوطاً

بالمدافع الخفيفة . وكانت الرشاشات والقنابل اليدوية موضوعة في مكان ما في السيارات .

وقفت خمس دقائق ، عشر دقائق ، انظر وافكر . والسيارات تزحف وتزحف ، رامية من تحت عجلاتها نوافير طين جانبية . والمشاة يدفعونها ويتقدمون معها . وعاد الفرسان الذين ارسلتهم إلى طرف الغابة ، وابلغوا بان النهاية لا ترى . لقد اندفع الى هنا السيل الذي قطعنا عليه امس الطريق في نقطة اخرى .

كان عرض الفسحة في الغابة يبلغ تقريباً الكيلومتر . فيجب اجتياز هذا الكيلومتر ، يجب اجتيازه والاختفاء في الجدار الآخر من الغابة .

ولكن كيف ؟ هل نهيئ المدافع للضرب ؟ هل ننزع الرشاشات من العربات ذات العجلتين ؟ هل نشتبك في قتال ؟ ولكن القذائف لا وجود لها تقريباً ، والخرطوش قليل .

هل ننتظر الليل ؟

لا يجوز ! فالعدو لا بد انه عرف او سيعرف قريباً اننا غادرنا عشر الامس . ولا بد ان يكشفنا هنا في كل لحظة ، متبعاً الاثر ، متبعاً الممر الذي شققناه لانفسنا ، وليس لدينا تقريباً ما نرد به ، ليس لدينا ما يجعلنا نجيب على النار بالنار لمدة طويلة .

ولكن نستطيع مع ذلك ان نحاول التغلغل في اعماق الغابة ، والاختفاء هناك حتى حلول الظلام ، فالالمان لا يحبون التغلغل في الغابات ويفضلون عدم الاشتباك فيها في القتال .

ولكن لدي امراً بان اقود الكتيبة الى فولوكولامسك . ان بانفيلوف يطلبنا الى هناك . انهم بحاجة الينا هناك لمقابلة هذه الجحافل بالنار .

انهم بامس الحاجة الينا هناك حتى نقوي حاجزنا الذي تقعر تحت ضغط العدو .

يجب الاقتحام ! الاقتحام في الحال قبل ان ينتبه العدو ، وقبل ان يعرف اننا هنا .

كيف ؟ أبهجوم مفاجئ بالحراب ؟ ان الالمان عندما يجدون انفسهم تحت النار فجأة ، فلا شك انهم في اللحظة الاولى لن يبدوا اية مقاومة تذكر بل ستأخذهم الحيرة والدهشة عندما تدوي في الهدوء ، الصرخة الروسية المرعبة « هورا » . وعندما نفتح ثغرة واسعة ننبطح من جانبين ونبقي الممر مفتوحاً إلى ان تمر عرباتنا ومدافعنا وجرحانا . وسنغطي مرورهم بالنار ، والخرطوش يكفينا لذلك . ثم تترك السرايا اماكنها وتنسحب . ويجب تغطية انسحابها ايضاً . فبم ؟ بزوج من الرشاشات . في الحق ان اصعب المهمات ، ان ابعد المهمات عن طاقة البشر ، تقع على عاتق هؤلاء الناس ، اعني رجال الرشاشات ، الذين سيبقون الاخيرين ، وسيواجهون وجهاً لوجه ، العدو المندفع الذي يعود الى رشده . ولن يكون ثمة من يغطي انسحاب هؤلاء ، ولذلك فلن يكتب لهم الانسحاب . وهذا العمل ، هذه البطولة تتطلب اصلب الرجال واخلصهم ، تتطلب اولئك الذين سيطلقون النار حتى آخر نفس من انفاسهم ، ويؤدون واجب الجنود المقدس حتى النهاية ، وينفذون الأمر بعدم الانسحاب ! انه لصعب . . . صعب ان اقول ولو بيني وبين نفسي : « ان آخر من سيبقى طقم رشاش بلوخا » . سيبقى الى الابد في هذه الفسحة من الغابة . وبوزجانوف ، نعم ، فبوزجانوف سيكون مع رجال الرشاشات . اني الآن موقن بان احداً لن يصيبه الذعر عند الرشاشات ، واننا سننسحب بانتظام ، واننا سنستطيع ان نأخذ معنا كل من يقع منا من جريح او قتيل ، إلا . . . إلا الجماعة الباسلة الاخيرة .

٦

تقدمت الكتيبة في صمت نحو طرف الغابة . وامرت :

ـ انقلوا إلى الطوابير : « آمرو السرايا إليّ ! » ، « القائد السياسي بوزجانوف اليّ ! » .

كيف اقول لبوزجانوف ؟ هل اقول : « جالمحمد ، اني ساضحي بك » ؟

وكنت وانا انتظر الآمرين انظر كالسابق إلى سيل السيارات المتقدم في بطء بلا نهاية . ليس هناك بعد اي دليل على القلق . ليس هناك بعد من يحسب بانه على بعد مائتين او ثلاثمائة خطوة توجد كتيبة من كتائب الجيش الاحمر مختفية في الغابة .

ولكن ماذا لو اتخذنا خطة اخرى ؟ ماذا لو ؟ .. كلا ، ان ذلك مخاطرة رهيبة . ان ذلك لا تجده في نص اي نظام داخلي او اي كتاب تدريب .

نظرت الى المحاربين الذين التزموا الهدوء بين الاشجار غير محولين نظرهم عن العدو . ان لدى كل جندي من جنودي بندقية ، ولدى كل واحد منهم مجموعة كاملة من الخرطوش ـ لكل محارب مئة وعشرون خرطوشة . ماذا مع ذلك لو جربنا ؟ .. آه يابندقية ، يا بندقية ، ألن تخلصينا ؟ لو خاطرنا واقدمنا على هذه الخطوة الخطرة التي تملكت علي فكرتي ، واصابنا الاخفاق فقد تكون النتيجة هلاكنا جميعاً. ولكن اذا افلحنا سلمنا جميعاً ولم يترتب ترك احد ضحية في شدقي الموت . ان المخاطرة عمل نبيل. لا ، فالمخاطرة ، بلا حساب ، ليست بعمل نبيل . ولكن ألم نجر الحساب ؟

ونظرت مرة اخرى الى المحاربين . انه ليمكن سؤال كل شخص : « مارأيك ؟ هل نترك بعض الرفاق للهلاك من اجل انقاذ الآخرين ، ام

نخاطر : فاما ان نهلك جميعاً او ننجو جميعاً ؟ » وكل شخص سيجيب : « خاطر ! » .

حسنا ايها الاصدقاء ! لن نترك احداً !

واصبح العبء خفيفاً على قلبي في الحال . وشعرت بخفة مدهشة تسري في كل جسمي ودماغي . ولعب الدم في عروقي وانتعشت الجرأة .

واقترب الآمرون واحداً بعد آخر . ونظرت الى بوزجانوف في حنان . فشعر بهذه النظرة ، وحدق في دهشة ، ورد ببسمة ليس فيها كثير من الاطمئنان .

٧

شرحت للآمرين فكرة الاختراق . وكانت كالتالي : تصطف الكتيبة في صف واحد ، بشكل هندسي يشبه المعين . وتوضع داخل هذا المعين العربات والمدافع . وعندما يصدر الامر مني تتحرك الكتيبة في خطوات معتدلة ، مع الاحتفاظ بشكل المعين . وتُحمل البنادق مشرعة ، مستعدة للاطلاق . وعندما آمر تُطلق النار في وابل مع الاستمرار في السير . ويجب اطلاق النار لا في الهواء ولا في الارض بل على العدو مباشرة .

لم يكن من السهل اعادة الاصطفاف في الغابة . فوضعت رحيموف في الامام ، في الزاوية الحادة . ووضعت في الزاويتين الجانبيتين كرايف وتولستونوف ، وفي الزاوية الاخيرة بوزجانوف .

فكانت مفرزة بوزجانوف ، احتياطيّ الذي لا يدخل في الكادر ، تغطي المؤخرة . وقلت لهم ، لجنودي المتبنين ، لرجال شيلوف — بوزجانوف :

— اني اضعكم ايها الرفاق في اكثر الاماكن تبعة . اني واثق بكم ! مروا كالابطال — ولننس الذنوب .

ووزعت عليهم كمية اضافية من القنابل اليدوية ، ومنها الضخمة المضادة للدبابات ، وذلك لكي يفجروا ، عندما ينفذ الصف ، عدة تفجيرات قوية في طابور السيارات الالمانية .

وانتقلت من الزاوية الخلفية إلى امام ماراً بالعربات والمدافع . ووقفت الى جانب رحيموف فالتفت ، ثم أمرت بصوت غير مرتفع :

— كتيبة ... سر !

وسرت . وقدت المعين المتقنفذ .

لم يعرف الالمان لاول وهلة من نحن ، وماذا نحن ، وما هذا الصف الغريب الصامت الذي يتقدم من الغابة . فاستمر كثيرون منهم يدفعون السيارات ، والتفت آخرون نحونا وراحوا ينظرون الينا في دهشة . لقد كان الامر حقاً مستعصياً على فهمهم . فجنود الجيش الاحمر لا يركضون مشرعين الحراب ، ولا يصرخون « هورا » ، فليس هذا اذن بهجوم . فهل تراهم قادمون للاستسلام ؟ ان مظهرهم لا يدل على ذلك... ترى هل جنوا ؟

وتركونا نمر زهاء ثمانين او مئة متر ، دون ان يدقوا نفير الخطر . ثم ارتفعت صيحة آمرة ، باللغة الالمانية ، فادركت ان بعضهم اندفع إلى السيارات ، نحو الاسلحة والرشاشات . نعم ، لقد ادركت ذلك . فكأنما الوقت انقسم الآن إلى اجزاء متناهية في الصغر .

— كتيبة ...

وساد السكون لحظة . ولم ترتفع البنادق الى الاكتاف . فقد كان الامر ، كما تعرف ، ان نطلق النار من اليد ، باسناد اعقاب البنادق إلى حقائب الخراطيش .

ــ نار !

وقطع وابل الرصاص حبل الصمت .

ــ نار !

وفي صوت هادر عنيف مثير للرعب ، اطلقنا مرة اخرى ، بشكل مروحة ، عدة مئات من الرصاصات .

ــ نار !

كنا نسير ونطلق . وكان ذلك شيئاً رهيباً ، اعني ذلك الوابل من نار الكتيبة ، ذلك الطلق الواحد من سبعمائة بندقية ، الذي يتكرر في فترات منتظمة رهيبة . فاجبرنا العدو على الانبطاح ، غير ممكنين اياه من رفع رأسه والاتيان باية حركة .

كنا نسيرونطلق النار قاتلين كل من يعترض سبيلنا . ولم يحد احد من المحاربين عن الصف ولم ترتجف له يد . وكنت اقود الكتيبة إلى الفسحة بين السيارات . وكان الالمان قتلى على الطريق في الوحل . وقد دعست على احدهم بينما كنت اصدر الامر كالسابق واتقدم دون ان التفت . وغاصت الجثة تحت حذائيّ في الوحل بسهولة .

ومر الناس والخيل والعجلات على جثث القتلى عبر الطابور الالماني . ودوت عدة انفجارات ، هي انفجارات قنابلنا اليدوية . وتابعنا المسير واطلاق النار .

واجتازت الكتيبة الطريق ، فصرخت في احدى فترات السكون :

ــ كتيبة ! الأمر للملازم رحيموف !

فصرخ رحيموف الآن « نار ! » . واطلق المحاربون رصاصهم ملتفتين . وكالسابق لم نكن نترك للعدو فرصة ليرفع رأسه ويتحرك ؛ وانتقلت انا الى الخلف ، وسط المعين ، ماراً بالعربات والمدافع ، وشغلت مكاناً في الزاوية الخلفية الحادة الى جانب بوزجانوف . وكان

قد بقي حتى نصل للغابة مئتان او مئتان وخمسون خطوة . وكنا حتى الآن لم نتح الفرصة لاحد من الالمان ان يستعمل سلاحه .

وفجأة ظهرت من خلفنا وعلى بعد منا عدة دبابات . وكانت هذه الدبابات تتقدم نحونا مصدرة صريفاً رهيباً متزايد القوة، وتطلق نار رشاشاتها وهي تسير . فأمرت بصوت عنيف :

ـ كتيبة ! ركضاً ! الخيل هرولة ! الى الغابة !

فركض الجميع ، إلا رجال شيلوف ـ بوزجانوف الذين يشكلون الزاوية الخلفية ، فقد واصلوا سيرهم وهم يتطلعون إلى بوزجانوف وإلي . ومع ان الموقف كان حرجاً فقد ضحكت. لتحل بهم اللعنة، هل فقدوا العادة على الركض ! فصرخت فيهم :

ـ هل تحتاجون الى امر خاص ؟ اتبعوني ! ركضاً !

وركضنا نحن ايضاً . وكان من ورائنا الازيز والهدير ، كانت من ورائنا طقطقة الرشاشات .

واختفى الناس والعربات والمدافع في الغابة . وقبل ان اصل إلى الغابة بعشرين او ثلاثين خطوة ، سقطت. سقطت عن قصد . فقد كان يجب النظر ومعرفة ما اذا خلفنا وراءنا جرحى ، ما اذا تركنا احداً في الحقل بلا دفاع ولا مساعدة ، فاذا ما كنا قد خلفنا ولو واحداً وجب اعاقة العدو لانتزاعه وحمله . ولكن لم يكن احد متروكاً . بل كان ثمة محاربان يحملان شخصاً على ايديهما وهما يركضان محنيي الظهر كثيراً .

نظرت من حولي . فرأيت بوزجانوف واقعاً جنبي ومعه خمسة رجال فيهم بولزونوف . كان مختبئاً وراء جذع شجرة مقطوع ، وكان شاحب الوجه ، متطاول الرقبة ، في توتر اعصاب ، وكانت عيناه الذكيتان الصافيتان تنظران من حولهما إلى المكان بسرعة ، وكانت في يده قنبلة يدوية ثقيلة مضادة للدبابات على اتم الاهبة . وكان وجهه الفتي ذو

الشفتين الغليظتين ، الذي رسخ في ذاكرتي منذ ذلك الصباح عندما كان بانفيلوف يتكلم معه ، كان الآن يبدو بشكل آخر تماماً : فقد كان يثير الدهشة بما ينطبع عليه من عزم وقوة تركيز . فصرخت :

– بولزونوف ! اذا اجتمعتُ بالجنرال فسيسمع عنك !

فلم يبتسم بولزونوف . فامرت :

– هيا بنا ! اتبعوني !

فنهضنا واسرعنا نحو الغابة من جديد . ووجهت الينا نافورة رصاص كاشف من احدى الدبابات . وازت احدى الرصاصات بقرب رجلي بشكل لا يبعث على البهجة .

ولكن مدافعنا كانت قد توزعت في الغابة . بوه ! بوه ! لقد كان وقت الذخيرة الاحتياطية . فالتفت وانا راكض فرأيت دبابة محطمة الجنازير تدور على نفسها كالدوامة العظيمة مصدرة هديراً . أما الاخريات فقد وقفت في اماكنها . حقاً ان المدافع لا تهان ، فهي منيعة على الدبابات وراء اشجار الصنوبر الازلية . وهكذا دخلنا الغابة كالطير ، وانسحبت الدبابات راجعة وهي تهدر وتواصل اطلاق النار .

٨

لقد جاء ذكر وابل النار عدة مرات في هذه القصة .

واني لأؤكد على ذلك عمداً . فاني اريد ان تكون بعض الافكار في هذه القصة الحقيقية ، بارزة عن غيرها كالاحرف السوداء بين اخواتها البيضاء أو كالاحرف المائلة بينها .

طبيعي ان هذه الطريقة فظة غير ناعمة . وكان الاجمل ان نعرض هذا للنقد ليكشف عن التلميح ويقارن شيئاً بآخر ويبين سبب كل شيء.

ولكن حديثنا هنا ليس عن الحب الذي عاشه كل انسان ويفهمه

كل انسان ، بل عن فن القتال ، عن قضايا الفن الحربي والاختصاص الحربي . ولهذا نشرح كل شيء بانفسنا .

ولقد علمتنا تجربة الحرب نحن الآمرين أن الوسيلة الحاسمة للتأثير في العدو وفي نفسية العدو هي في القتال العصري ــ ان هجوماً او دفاعاً ــ النار ! واقوى مفعول هنا للنار المفاجئة : النار المذهلة التي تشل المراكز الدماغية العليا في لحظة .

واني لاسمي نفسي بتلميذ بانفيلوف ، واسعى إلى ان اكون اهلاً لهذا الشرف . وبانفيلوف كما تعرف كان يقول لنا باصرار : « احفظوا الجندي ! احفظوه لا بالاقوال ، بل بالفعل ، بالنار ! ».

نعم ان المشاة يجب حفظهم بالنار والمناورة ، وتمهيد الطريق لهم وشقه بالنار ، ثم بالنار ، ثم بالنار !

ولست اقصد هنا المدفعية وحدها . « اعتمد على المدفعية ولكن لا تخطئ ! ان المدفعية لن تطلق عنك النار من البندقية ، ولن تقود عنك السرية ، ولن تقود كتيبتك » . انها كلمات بانفيلوف ايضاً قيلت مرة في نقد التدريبات .

نعم ، ان لدى المشاة وسائل كافية لتأمين المناورة بقوة النار الخاصة . ان لدى المشاة سلاحاً رهيب المفعول اذا أُحسن استخدامه ، وخصوصاً في حرب المناورات ، شل نفسية العدو في شبه تأكيد ، -- وهو وابل نار البنادق . اعود فاقول ان القوة الخاصة لوابل النار هي في مباغتتها . واساس هذه المباغتة ، الى جانب اختيار اللحظة المناسبة لبدء النار ، هو مرة اخرى واخرى : الانضباط .

هذه هي الافكار التي اريد ان ابرزها بخط عريض : تحريك المشاة بالنار ــ لا بنار المدفعية وحدها بل ايضاً بالنار الخاصة ، نار المشاة ، ــ بالنار لا بالصراخ ولا بالزعيق .

في فولوكولامسك ، عند بانفيلوف

١

ها نحن من جديد نسير في الغابة ، نقطع الاشجار ، ونشق الطريق . لقد اصبحت فولوكولامسك غير بعيدة . وباتت طلقات المدافع مسموعة بوضوح .

ها هي نهاية الغابة. ومنها ترى قباب الكنائس في الأبعاد. والى جانبها قليلاً وعلى مسافة اقرب الينا ، تظهر منشآت محطة فولوكولامسك المبنية بالطوب الاحمر . انها تبعد عن المدينة بضعة كيلومترات . وفي هذا الاتجاه ، عند المحطة ، تزمجر المعركة .

وعلى حين غرة ارتفعت الابراج الحديدية الواطئة في الهواء — انها مستودعات البنزين الضخمة ، — وبعد لحظة تبدو فيها وكأنها معلقة في الهواء ، تتساقط في ثقل متناثرة امام العين . واندلع اللهب والدخان . ثم وصلت موجة الانفجار المقرقعة . ان المحطة لا تزال لنا . ولكن القوات بدأت تنسف الخطوط الحديدية والمستودعات حتى لا تترك للعدو قطرة من المحروقات او حبة من الاغذية .

كنت اقود الكتيبة إلى المدينة . وهتفت لنا المراكز . انهم محاربون من الاينا . وقد عرفت منهم ان رئاسة الالاي في المدينة ، في طرفها الشمالي الشرقي .

كنا نخطو إلى المدينة في طريق مرصوف بالحجارة ، ثم جاء الطريق المزفت ، الذي يؤدي إلى موسكو نفسها — طريق فولوكولامسك الذي يندفع اليه الالمان .

اوقفت الكتيبة لفترة استراحة قصيرة على بعد مئة خطوة من اولى البيوت .

وبعد عشر دقائق كنا نتقدم نحو المدينة في طوابير بحسب الفصائل ، مع جميع مدافعنا ، وعربات رشاشاتنا ذات العجلتين ، وعرباتنا ، الموزعة بين الوحدات العسكرية . وكنت اخطو في المقدمة تاركاً العنان للسائس .

٢

اني لاذكر الاثر الذي تركته فيّ فولوكولامسك في ذلك الحين . فقد كانت بعض البيوت ، ولا سيما في الوسط ، مهدمة بقنابل الطائرات ، وكان يبدو ان طائرات العدو اغارت على المدينة اكثر من مرة . وقد سقطت قنبلة ثقيلة على مستودع الدقيق الخشبي فحطمته . وكانت احدى الزوايا قد تهدمت . وكانت نهايات جذوع الاشجار المنسوفة ظاهرة في الكوة ، وسقط السقف وتطايرت الابواب واطر النوافذ . وتناثر الدقيق الذي اثاره الانفجار طبقة مبتلة على منحدر خندق الطريق الذي لم تمسسه رجل انسان أو عجلة عربة . وكان الزجاج يتكسر على الطريق تحت وطء الاحذية .

كان دقيق المستودع المتهدم يوزع على السكان . وكان ظاهراً نوع من النظام والادوار ، ولكن الدقيق لم يعد يوزن ، بل كان يعطى للناس بسرعة ، ويصب بالدلاء في الاكياس واغطية الوسائد .

كنا نسير مصطفين رباع رباع ، محافظين على الاستواء ، وعلى توازن الخطى ، ناظرين في تجههم إلى جميع الجهات .

وكان يبدو ان الجميع في الشارع يحثون الخطى الى مكان ما ، ويتحركون ويركضون ، وكان يبدو ان احداً من السكان لم يحافظ على مشيته الهادئة .

وشاهدنا في طريقنا بيتاً آخر خشبياً غير كبير قد هدمته قنبلة ، ورأينا مرة اخرى جذوع الاشجار مائلة إلى جانب واحد تظهر منها شقوقها الجديدة الصفراء ، وتكسر الزجاج مرة اخرى تحت ارجلنا . وكانت امرأة عجوز ميتة ملقاة عند الاطلال على حافة الرصيف . وكان الهواء يحرك شعرها الاشيب المنفوش . ولكن خصلة من شعرها كانت لاصقة على جمجمتها بالدم الذي لم يتجمد بعد ولا يزال احمر . وكانت رامة غيركبيرة من دم يبرد متجمعة عند رأسها . وكان واضحاً ان ايدياً سحبت القتيل إلى جانب . اما الآن فلم يكن الى جانب الجثة احد .

وفي بناية حجرية سوداء النوافذ فارغتها من الزجاج الذي اعتادته العين ، أسقطت موجة الانفجار لوحة الكتابة ، فتدلت على شص واحد ، ولم يعد احد يصلحها ، كما لم يعد احد يسد النوافذ .

في الشارع كانت دورية تمر ، وعند ملتقى شارعين كان يقف جندي المرور وعلى كتفه بندقية وعلى ذراعه شريط احمر . فوقف « متهيأ » وادى لنا التحية العسكرية . كان النظام الحربي هو السائد في المدينة . أما النظام المدني السابق المعتاد فلم يكن له وجود .

كان السكان يمرون مستعجلين ، ويتراكضون هنا وهناك ، ويتناقلون الجمل على عجل ، وكان بعضهم يحملون امتعة لاسباب غير معروفة ، وكان الجميع يسرعون ويسرعون .

واني لاذكر انه قد خيل إلي ان مسلكاً كهذا أشبه بمسلك مسافرين في باخرة حطمتها العاصفة ، ورمت بهم إلى صخور مجهولة . فاستولى الذعر على النفوس : عما قريب تتحطم العوارض وتهوي الباخرة إلى الحضيض .

لم تكن المدينة قد اخذها العدو بعد ، لم تكن قد سلمناها بعد ، ولكنها مع ذلك كانت تبدو وكأنها مأخوذة ـ مأخوذة بالرعب .

كان يقف عند باب احد البيوت شاب يافع في السابعة عشرة من عمره . وقد تقابلت نظرتي بنظرته في لحظة خاطفة . كان ينظر بامعان، ولكن من تحت حاجبيه . وكان وجهه الفتي جدياً جداً ، ورأسه مطأطئاً قليلاً . وقرأت في هذه الوقفة وهذه النظرة ، العناد واللوم . وبعد مئة متر نظرت إلى صفوف الكتيبة وانا انظم الخطوات بصوت مرتفع ، ولحظت مرة اخرى ذلك الشاب عند ذلك الباب . كان يقف وكأنه بمعزل عن الهرج والمرج .

وعندما عرفت فيما بعد بكفاح انصار فولوكولامسك ضد المحتلين ، وبالمشانيق الثمانية في فولوكولامسك ، تذكرت ولا ادري لماذا ذلك الشاب . وقلت في نفسي انه كان فيمن حارب . انه لم يكن في المدينة وحده ، ولكننا آنذاك ، في ذلك اليوم الكئيب من ايام تشرين الاول ، لم تلحظ عينانا إلا ذلك الهرج والمرج والاضطراب الذي كان سائداً في الشارع .

وكنا نسير ونسير ، ناظرين في تجهم الى ما حولنا .

وكان الناس ينظرون الينا ايضاً . ففي شوارع مدينة مقضي عليها ، كما كان يبدو ، حيث كان يأتي من جانب المحطة دخان الحرائق ، كانت تسير وحدة عسكرية في نظام، في فواصل مراعاة بدقة ، وبآمرين على رأس كل مفرزة ، ومدافع ورشاشات وعربات . وطابور الكتيبة في المسير يمتد — كما تعرف — كيلومتراً تقريباً .

كلا ، لم نكن نسير بخطوات استعراضية ، بل كان المحاربون يسيرون متعبين ، عابسين ، ذلك لانه لم تكن بانتظارهم اعياد او مباهج ، بل معارك اقسى وافدح ، ولكنهم وقد رأوا نظرات السكان تصوب اليهم ، رفعوا صدورهم وسووا صفوفهم ونظموا خطواتهم .

وكانوا ينظرون الينا في غير اعجاب . فالقوات المنسحبة لا تثير

الاعجاب ، القوات المنسحبة لا تستدعي الاكبار والاجلال . فكانت النساء ينظرن في شفقة ، وكان بعضهن يمسح الدموع . فلا بد انه خيل للكثيرين ان القوات تغادر المدينة . وكانت العيون الحزينة الخائفة كأنها تسأل : « هل حقاً انتهى كل شيء ؟ هل حقاً هلك كل ما بذلنا في سبيله عرق الجبين واحلام الخيال ؟ » .

لقد كانت تلك المسيرة في المدينة مرهقة ثقيلة الوطأة . ولكننا كنا ، رداً على نظرات السكان وعلى الهرج والمرج والاضطراب ، نرفع رؤوسنا ونشرع اكتافنا كما في الاستعراض ، ونلقي بارجلنا بشكل اصلب واشد غضباً .

كنا بكل ضربة من ضربات اقدامنا التي كانت تبدو واحدة عند المئات ، نجيب :

ـ كلا ، ليست هذه كارثة ، انما هي حرب .

وكنا ، في مشيتنا الجندية ، نرد على الحزن والاشفاق :

ـ كلا ، لسنا حفنات تثير الشفقة ، خرجت من الطوق وحطمها العدو . بل نحن قوات سوفييتية منظمة ، عرفت قوتها في القتال . لقد قتلنا الهتلريين ، والقينا في قلوبهم الرعب ، ومشينا على جثثهم ، انظروا الينا ، اننا نسير امامكم في صفوف ، رافعين رؤوسنا ، كوحدة عسكرية ابية ـ وحدة من الجيش الاحمر العظيم الرهيب !

٣

كانت الكتيبة تقترب من طرف المدينة الشمالي الشرقي الذي توجد فيه رئاسة الالاي .

وعند احد ملتقيات الطرق ، ـ في المكان الذي كان يقف فيه جندي المرور كما يبدو ، ـ تبدلت الطريق المعبدة بطريق مزفتة :

في هذه النقطة يبدأ طريق فولوكولامسك ، المؤدي الى موسكو مباشرة على طبقة واسعة من الاسفلت الاملس .

وفي احد البيوت ــ وقد انطبعت في ذاكرتي درفات نوافذه الزرقاء النظيفة ــ انفتحت نافذة على مصراعيها فجأة وكأنما بفعل صدمة قوية . واطل من النافذة بقوة رأس مفوض الالاي بيوتر لوغفينينكو ولوح لنا بيده في سرور . وهرع الينا من سلم المدخل ماجوراشيب هو رئيس مركز رئاسة الالاي سوروكين . فضغط على يدي ، ولمعت عيناه اللتان تجاوزتا عهد الشباب ورأتا الشيء الكثير في الحياة . ولما وجد لوغفينينكو نفسه في الشارع عانقني وجذبني إلى جانب واخذ يقبلني .

وكان ذلك لي مدعاة حيرة . فلماذا يستقبلوننا هكذا ؟ لقد كنت افكر وانا في الطريق بعكس ذلك ، وكنت احسب انني سانال توبيخاً على تأخري . ولم اعرف إلا هناكيف قلق واضطرب رفاقنا لمصير كتيبة عزلها الالمان وظلت وقتاً طويلاً منقطعة الاخبار . ولا بد ان فكرة سوداء بهلاكنا قد مرت في خواطرهم في السر ، واصبحوا في سريرتهم يذكروننا بكلمات التأبين الوداعية .

كان آمر الالاي الماجور ايلين ، وهو رجل متحفظ منكمش على نفسه ، يقف على السلم ساكتاً يدع الصفوف تمر . فاقتربت منه بالتقرير . فاصغى ثم قال في ايجاز :

ــ حسن . تعال فيما بعد لتفصيل التقرير . اما الآن فوزع الكتيبة على المهاجع . يمكن الاستراحة . ان الالاي هو احتياطي لآمر الفرقة .

وانفجر الاعتزاز في صوته السويّ عندما نطق بالكلمات الاخيرة . ولم يستطع ايلين اخفاءه . لقد كان في الحرب العالمية الماضية ، ضابطاً شاباً ، ثم آمراً عاملاً في الجيش الاحمر . وكان يعتز به ، بجيشه الذي كان له شرف الانتماء اليه .

هل تعرف اي معنى كان آنذاك ــ بعد كل ما عانيناه ــ لهذه الجملة البسيطة : « الالاي هو احتياطي لآمر الفرقة » ؟

لقد كان معناها ان الفرقة ــ بعد اختراق الالمان لخطوطنا ، وبعد يومين او ثلاثة ايام حرجة مع لياليها ــ تقف من جديد امام العدو ، مستعدة للقتال الدفاعي ، مع احتشادات احتياطية قوية تعسكر في الداخل قليلاً . ان هذه الجملة البسيطة كانت تعني ان الجبهة قد التحمت من جديد امام الهتلريين الهاجمين ، وان موسكو محمية كما في السابق .

كانت الكتيبة تسير وتسير . وكانت المدافع تتحرك مصدرة هديراً منذرا .

ونجم فجأة من حيث لا ادري مرافق بانفيلوف ، وهو ملازم شاب احمر الخدين . فادى التحية لي وقال :

ــ ايها الرفيق ماميش اوغلي ! الى الجنرال !

ــ واين هو ؟

ــ هيا بنا اليه . في ذلك البيت . لقد تطلع الجنرال من النافذة وتساءل : ما هذا ومن اين هذه القوات ؟

وابتسم المرافق .

فدعوت رحيموف وامرته بتوزيع الرجال للاستراحة ، وانطلقت مع المرافق .

٤

دخلت إلى بانفيلوف عبر غرفة أمامية توزع فيها عمال التلفون مع اجهزتهم ، وكان فيها آمرو الرئاسة في نوبتهم . ونهض بانفيلوف في حركة نشيطة عن مقعده وراء المائدة التي كانت عليها ايضاً اجهزة تلفونات وخارطة طوبوغرافية مبسوطة عليها كلها .

ونصبت قامتي واردت ان اقدم تقريري ، ولكن بانفيلوف لم يدعني ، بل تقدم مني بسرعة وتناول يدي وضغط عليها بقوة ـ ضغط عليها لا بالطريقة الروسية ، بل بالطريقة المتبعة عند شعبي ، عند الكازاخيين ، بكلتا يديه .

ـ اجلس ايها الرفيق ماميش اوغلي ، اجلس ... هل تريد شاياً ؟ آمل انك لن ترفض الاكل ؟

ولم ينتظر الجواب ، بل فتح الباب وقال لاحدهم :

ـ هات الغداء وسماور الشاي ... وكل ما ينبغي .

ثم عاد إلي . وكانت بسمته ، وعيناه الصغيرتان المائلتان قليلاً ، الشبيهتان قليلاً بالعيون المونغولية ، كانت تطفح بالرقة .

ـ اجلس . وحدثني . هل فقدت كثيراً من الرجال ؟

فابلغت عن الخسائر .

ـ هل اتيت بالجرحى ؟

ـ نعم ، ايها الرفيق الجنرال .

ـ هل امرت باطعام الرجال ؟ باراحتهم وتدفئتهم ؟

ـ نعم ، ايها الرفيق الجنرال .

واقترب بانفيلوف من التلفون واستدعى رئيس مركز رئاسة الفرقة وامره بان يبلغ على الفور اركان الجيش ، ان يبلغ روكوسوفسكي ، بانه وصلت الى فولوكولامسك كتيبة كاملة قادمة من مؤخرة العدو .

وبعد ان استمع بدوره في التلفون إلى نبأ ما انحنى على الخارطة وبدأ يسأل عن شيء . وسمعت :

ـ ومن الشمال ؟ الهدوء يسود ؟ متى حصلتم على آخر المعلومات من هناك ؟ وفيما بعد ؟ اني لا اصدق بهذا الهدوء ، هل تعرف ؟

اسأل مرة اخرى واستوضح الامر ... وارسل إلي من فضلك الكابتين هوفمان مع جميع الرسائل والتقارير .

ووضع السماعة ، وظل بعض الوقت يتطلع في الخارطة . وكان وجهه رصيناً ، بل متجهماً . وسعل عدة مرات . وتناول علبة سيكاراته بصورة آلية واخذ سيكارة . ونقر بطرفها على المائدة ، ثم انتبه ونظر إلي .

ــ اعذرني ...

ومد إلي بعلبة سيكاراته في عجلة .

ــ نعم ، ايها الرفيق ماميش اوغلي . حدثني . حدثني عن كل شيء .

٥

قررت ان اقدم تقريري باوجز ما يكون حتى لا الهي الجنرال عن عمله وانتزع منه وقته . فقد بدا لي انه الآن ، في هذا الجو الحربي المتوتر ، ليس خالي البال حتى يسمعني ويسمع تقريري .

فبدأت : ــ في الثالث والعشرين من تشرين الاول ، مساء ...

فقاطعني بانفيلوف : ــ اوهو ! من اين بدأت ! اترك الثالث والعشرين من تشرين الاول ... وحدثني اولاً عن القتال في الطرقات . هل تتذكر لولبنا الحلزوني ؟ قل لي كيف كان مفعوله ؟

بالنسبة لي ، بعد كل ما رأيته وعشته ، كانت هذه المعارك الصغيرة ، هذه الاعمال التافهة بمقياسها ، التي قامت بها جماعات صغيرة ــ فصيلة دونسكيخ وفصيلة برودني ــ قد ذهبت بعيداً بعيداً . فيا للغرابة ! لماذا يسأل بانفيلوف عن هذا ؟ واية اهمية الآن لمناوشاتنا الاولى القديمة ؟

ابتسم بانفيلوف وكأنما حزر ما في فكري .

قال : ــ ان قواتي هي اكاديميتي ... وهذا يصح عليك انت ايضاً ايها الرفيق ماميش اوغلي . فكتيبتك هي اكاديميتك . فقل لي ماذا تعلمت منها ؟

شعرت بالراحة فجأة تغمر قلبي من هذه الكلمات . ذلك ان صور المدينة التي استولى عليها الذعر ، قد اثرت فيّ تأثيراً شديداً رغم مغالبتي ذلك . واما بانفيلوف في هذه المدينة ، في الغرفة التي وصل اليها بلا شك هدير المدافع ، فقد سأل مبتسماً : « قل لي ماذا تعلمت ؟ » وفي الحال ، ومن هذا السؤال البسيط وحده ، انتقلت إلي ثقته الهادئة الراسخة .

انحنى علي بانفيلوف بجسده وراح ينتظر جوابي في اهتمام صادق حي .

ماذا تعلمت حقاً ؟ مهما يكن من امر فساعرض اهم النقاط . فقلت :

ــ ايها الرفيق الجنرال ، لقد ادركت ان الحرب الحديثة هي حرب نفسية .

ــ ماذا قلت : حرب نفسية ؟

ــ نعم ، ايها الرفيق الجنرال . فكما يكون الهجوم نفسياً ، كذلك الحرب تكون كلها نفسية ...

ــ نفسية ؟ ــ قال ذلك من جديد في لهجة استفهامية . والتزم كعادته الصمت وراح يفكر . وانتظرت في قلق ما سيقوله بعد ذلك ، ولكن الباب فتح في هذه اللحظة ، وقال شخص :

ــ هل تسمح بالدخول ؟

ــ نعم ، نعم ، ادخل .

ودخل رئيس قسم العمليات في رئاسة الفرقة ، الكابتين هوفمان ، وتحت ابطه مصنف اسود كبير .

ــ بناء على اوامرك ...

ــ نعم ، نعم ... اجلس .

ونهضت كما تقتضي اللياقة .

فقال بانفيلوف : الى اين ايها الرفيق ماميش اوغلي ؟ ثم قال مازحاً : ــ هل تريد ان تغلق الكتاب عند امتع صفحة ؟ هذا لا يجوز ..

هل كان له ان يعرف ان هذه الدقائق وهذه الكلمات ستسجل فعلاً في كتاب ؟

ــ كُلْ في هذه الاثناء ...

واشار بانفيلوف في بشاشة إلى مائدة صغيرة كان الغداء ينتظرني عليها منذ بعض الوقت .

٦

لم ار من اللياقة في شيء ان انصت للحديث المنخفض ، ولكن بعض الجمل ترامت إلى سمعي .

كان بانفيلوف ، كما فهمت عن غير ارادة مني ، لا يثق بالانباء المطمئنة الواردة من قطاع معين لا يزال حتى الآن هادئاً نسبياً ، بعيداً عن اتجاه ضربة الالمان الرئيسية ، فكان يطالب باجراء تحقيق دقيق شامل .

ثم سمعت :

ــ هل فهمت عني ؟

كان جنرالنا ينهي حديثه عادة بهذا السؤال . وقد اتيح لي كثيراً من المرات ان اسمع كيف يلفظ بانفيلوف هذه الكلمات الثلاث : ولم تكن عنده بمثابة عادة يكررها عند كل قول ، بل كان يسأل فعلاً ، وكان دائماً يحدق في الشخص الذي يسأله .

ولما اصبح الكابتين عند الباب سأله بانفيلوف من جديد . وسمعت سؤالاً لم اعره اهمية في تلك اللحظة ، ولكن معناه تكشف لي فيما بعد .

سأل بانفيلوف :

ــ هل جاء ممثل رجال الشرق الاقصى ؟

ــ نعم ايها الرفيق الجنرال . سيكون قريباً هنا .

ــ حسن . ارسله إلي من فضلك على الفور .

وصرف الكابتين بحركة من رأسه ، ثم اقترب مني وقال :

ــ كل ، كل ، ايها الرفيق ماميش اوغلي .

فقمت وشكرته .

ــ اجلس من فضلك ، اجلس .

كان السماور المندلق البطن القديم الموضة ، الذي وضع ايضاً على المائدة ، يخرج صفيراً هادئاً رفيعاً . وصب لي بانفيلوف ولنفسه شاياً قوياً حاراً ، وجلس ، وتنشق بمنخريه البخار المتصاعد من الفنجان ، وتمطق قليلاً بلسانه وابتسم .

قال : ــ طيب ايها الرفيق ماميش اوغلي . حدثني بكل شيء حسب الترتيب . كيف نجح ما خططنا معاً على الخارطة بالقلم ؟ كيف فعلت الفصائل على الطرق ؟

رحت اقدم التقرير . وكان بانفيلوف يصغي بامعان وهو يرشف الشاي رشفات صغاراً . وكان احياناً يقاطعني بملاحظات موجزة لا تمس الشيء الرئيسي . مثال ذلك ان سأل بصدد دونسكيخ :

ــ هل كتبت لاهله رسالة ؟

ــ كلا ايها الرفيق الجنرال .

ــ لا يجوز . هذا غير حسن ايها الرفيق ماميش اوغلي . ليس هذا من شيم الجندية ولا من شيم الانسانية . اكتب من فضلك . واكتب ايضاً للجنة الكومسومول .

وامر باعادة الملازم برودني الى سابق مركزه :

وقال مفسراً : — انه استحق ذلك . وعلى العموم ايها الرفيق ماميش اوغلي ، لا يجوز تغيير مناصب الرجال إلا عند الضرورة القصوى . فالجندي يعتاد آمره كما يعتاد بندقيته . ولكن تابع ، تابع ...

وتحدثت عن اليوم الثالث والعشرين من تشرين الاول ، وكيف طوقت الكتيبة :

فابعد بانفيلوف الفنجان وراح يصغي منحنياً بعض الشيء إلي ، وناظراً فيّ ، وكأنه يرى في كلماتي اكثر مما اضع فيها من معان .

وشرح تقريري لبانفيلوف بعض تفاصيل المعركة التي امتدت حتى الآن منتقلة إلى الشوط الثاني . وقد يكون الآن فقط قد ادرك كل الادراك لماذا شعر في تلك اللحظة ، ليومين خليا ، وهو يدير المعركة في توتر ، ان ضغط العدو ضعف فجأة وخفت وطأته . ففي تلك الساعة ، بعيداً عن فولوكولامسك ، بعيداً عن قواتنا ، بدأت العمل مدافعنا وكتيبتنا المعزولة عند مفترق الطرق . لقد قُطعت طوابير العدو ، وسُدت الطريق الرئيسية ، وخفت الضربة — فلم يكن لدى الالمان ، بعض الوقت ، ما يعززون به هجومهم ويسندونه به .

كان يبدو انها صدفة محمودة في الكفاح . ولكن صدفة الامس استخدمها بانفيلوف في الغد كطريقة تكتيكية مقصودة متعمدة . وقد ايقنت بذلك بعد عدة ايام ، عندما القى علي بانفيلوف مهمة قتالية في موقف جديد . نعم ، ان قواته في الحق كانت اكاديميته .

٧

وصفت ، وانا اعيش قلق القتال من جديد ، كيف شققد لانفسنا بوابل الرصاص طريقاً عبر الطابور الالماني ، وكيف مررنا على

جثث العدو . وكنت في سري اعتز بالانتصار الذي احرزناه في فسحة الغابة : فهناك ، في ذلك القتال القصير ، شعرت لاول مرة اني لا املك معرفة القتال وحسب ، بل املك فنه ايضاً .

فقال بانفيلوف مبتسماً : ـ انك تتحدث كما لو ان اطلاق النار بدفعات هو من اختراعك . اننا ، ايها الرفيقماميش اوغلي ، هكذا كنا نطلق النار في الجيش القيصري . كنا نطلق حسب أمر : « سرية ، دفعة واحدة ، نار ! .. » .

وبعد ان فكر قليلاً استمر يقول :

ـ ولكن لا يسئك هذا ايها الرفيق ماميش اوغلي . احسنت ، احسنت جداً باهتمامك في هذا . وفي المستقبل ايضاً افعل هكذا . وعلّم الرجال هذا .

وسكت وهو ينظر الي بحنان منتظراً كلماتي . فقلت :

ـ لقد انتهيت ايها الرفيق الجنرال .

فنهض بانفيلوف واخذ يسير جيئة وذهوباً .

ـ حرب نفسية ... ـ قال وكأنما يفكر بصوت عال . ـ كلا ، ان هذه الكلمة ايها الرفيق ماميش اوغلي لا تشمل هذه الحرب . ان حربنا اوسع . ولكن اذا كنت تقصد بعض الامور كالرعب الدبابي ، والرعب الرشاشي ، والرعب التطويقي وامثال ذلك (استعمل بانفيلوف هذه التعابير الغريبة بالذات ، التي سمعتها منه آنذاك للمرة الاولى) ، فانت على حق ولا شك .

واقترب من المائدة التي عليها الخارطة واستدعاني :

ـ تفضل الى هنا ايها الرفيق ماميش اوغلي .

ثم اطلعني في ايجاز على الموقف . كان العدو يضغط على فولوكولامسك من الشمال والجنوب ، وقد تغلغل إلى الشرق من فولوكولامسك

في المسافة الممتدة بين طريقين مزفتين ، وبسط ظله هناك على مؤخرات الفرقة ، ولكنه لم يستطع بعد الدخول إلى طريق فولوكولامسك المزفت ولا في نقطة من النقاط .

وقال بانفيلوف وهويشير الى الخارطة : ــ وهنا ايضاً دفاعنا غير كاف ، هنا ايضاً نجد الموقف مخيفاً . ولكني اجلس هنا وامسك بمركز الرئاسة هنا ايها الرفيقماميش اوغلي . إنه يجب سحب مركز الرئاسة قليلاً ، ولكن اذا تم فستجد رئاسات الالايات تنسحب ايضاً ، وستجد آمر الكتيبة يتزحزح ايضاً ويبحث لنفسه عن مقر انسب . وكل هذا سيكون قانونياً ، حسب الاصول ، ولكن ... ولكن سينتشر في الخنادق الهمس : « الرئاسات تنسحب » . وعندئذ تجد الجندي وقد فقد هدوءه وثباته .

وابتسم بانفيلوف مرة اخرى بسمته الساحرة الذكية .

ــ الحرب النفسية ... ــ وسعل بانفيلوف وهو يواصل ابتسامه : لقد اعجبه التعبير كما يبدو . ــ نعم ، كان يمكن في هذا القطاع (واشار إلى القطاع الذي تركناه امام فولوكولامسك) كان يمكن تأخير الالمان هنا شهراً كاملاً ، ولكن بعضنا انخدع بالاعيبه ، وتمكن في بعض الاماكن من ان ينالنا على حين غرة . ومع ذلك فها قد مضى اسبوعان تقريباً ، اذا حسبنا ابتداء من الخامس عشر ، ونحن نوقفه هنا . وهكذا ينتج ايها الرفيق ماميش اوغلي ان المرء يستطيع ان يكون مغلوباً رغم انه الغالب .

ــ وكيف هذا ايها الرفيق الجنرال ؟

فاجاب بانفيلوف في نشاط : ــ الثمن ! الثمن الذي يدفع لقاء النصر .

وذكر رقماً تقريبياً لخسائر العدو في جميع ايام القتال عند فولوكولامسك (زهاء خمسة عشر الف قتيل وجريح) ، وقال ان هذا الرقم وان يكن بحد ذاته غيركبير ، ولكنه مع ذلك محسوس إلى اقصى حد بالنسبة للتجمع الالماني الذي يندفع إلى طريق فولوكولامسك .

واستمر بانفيلوف يقول : — ولكن ما هو اهم بالنسبة لنا الآن هو الوقت .

واصغى لزمجرة مدافع صماء وادار وجهه إلى تلك الجهة ، ثم نظر إلي من جديد وغمز لي بعينه .

قال : — ان رعدهم لا يزال كثيراً . ولكن اين صاعقتهم ؟ اين هي ايها الرفيق ماميش اوغلي ؟ ان جيشنا انتزعها من هتلر ، ان جيشنا حطمها ، ونحن واياك من افراد هذا الجيش . اننا ايها الرفيق ماميش اوغلي كسبنا الوقت وسنكسبه .

وبعد ان سكت قليلاً كرر قوله :

— والغالب يجد نفسه مغلوباً ... هل فهمت عني ، ايها الرفيق ماميش اوغلي ؟

— نعم ، ايها الرفيق الجنرال .

واقترب حديثنا من نهايته . وطرح بانفيلوف علي اسئلة اخيرة .

— والجندي ؟ ماذا تعلم الجندي من المعارك ؟ هل عرف دخيلة ما سميته بالحرب النفسية ؟ هل عرف دخيلة الالماني ؟

وفجأة تذكرت بولزونوف .

— عفواً ايها الرفيق الجنرال . لقد نسيت ان احدثك عن بولزونوف .

فرفع بانفيلوف حاجبيه متذكراً :

— نعم ، نعم ، ماذا ... — قال ذلك في فضول .

٨

فتح الباب من جديد ودخل المرافق .

— ايها الرفيق الجنرال ، ان الكولونيل الثاني فيتيفسكي يريد مقابلتك . انه من رئاسة فرقة القناصة التي وصلت .

فنظر بانفيلوف بسرعة الى الساعة :

— حسن ، حسن جداً .

ثم اصلح من شعره بحركة غير ارادية ، ولمس شاربيه السوداوين المحلوقين بشكل فرشاة ، واقام قليلاً ظهره المحدودب بعض الشيء . لقد كانت امامه على ما يظهر مقابلة جدية جداً . لكنه قال للمرافق وهو ينظر إليّ :

— ارجه من فضلك ان ينتظر قليلاً .

انه لم يشأ ان يبتر الحديث معي ، فقد كان ، وهو جنرالنا ، يحسن تخصيص الوقت لآمر الكتيبة دون ان يضن عليه به .

وقال : — نعم ، نعم ، بولزونوف ...

وقلت له كيف كان بولزونوف عندما خرج من الغابة مع الخارجين ممن سميتهم « بالهاربين » ، وقلت له كيف رأيته في آخر معركة خضناها وهو ينظر الى المكان بعينين صافيتين ذكيتين مرهفتين ممسكاً بقنبلة مضادة للدبابات معدة للالقاء .

فقال بانفيلوف : سلم لى عليه . ولا تنس ذلك . ان كل جندي ايها الرفيق ماميش اوغلي يريد ان توجه اليه كلمة طيبة لقاء خدمته الشريفة .

وقبل ان يودعني ، مد لي يده وامسك بيدي ، وضغط عليها مرة اخرى في حرارة وحنان بكلتا يديه — بالطريقة الكازاخية .

— ارجوك ايها الرفيق ماميش اوغلي ان تقدم لي اليوم قائمة باسماء من يستحق المكافأة . ارجوك ان تكون القائمة والاستمارات عندي اليوم...

والآن انصرف ! اعتقد اني استطيع السماح لكتيبتك ان تستريح حتى الغد . مع السلامة !

وسبقني الى الباب وفتحه :

ـ ايها الرفيق الكولونيل الثاني ، تفضل .

ودخل كولونيل ثان معتمراً قبعة ذات اطار احمر لا تستعمل في الجبهة .

واردت ان امر بالباب ، ولكن بانفيلوف جذبني برفق من كمي . واشار لي بعينيه إلى الرجل الداخل ، واقترب من اذني وهمس :

ـ هذه ، ايها الرفيق ماميش اوغلي ، امدادات من رجال الشرق الاقصى . سافروا اثني عشر يوماً ، وجاءوا في الوقت المناسب . هذا هو ايها الرفيق ماميش اوغلي معنى القتال الدفاعي عند فولوكولامسك .

وتخضلت عيناه لحظة خاطفة بدموع التأثر والسعادة .

وفيما اغلق من ورائي الباب ، رأيت الجنرال مرة اخرى ، وقد وضع ساعة جيبه المفكوكة الحزام على المائدة ، ووقف بقامته الصغيرة ، المحدودبة قليلاً ، ورقبته المتغضنة التي لفحتها الشمس ، وقف وظهره الى الباب واشار للكولونيل الثاني الى المقعد بحركة ترحيبية ، وراح بيده الاخرى ـ او الاصح باصبعه الكبيرة وحدها ـ يدلك في حركة آلية زجاج الساعة المحدب .

كان المطر الشديد يهطل في الخارج ، والسماء واطئة داكنة ، والمدافع تزمجر عند المحطة ، ورائحة الحريق الخفيفة تضوع في الجو . وكان كل شيء من حولي قد اسدل عليه غطاء معتم شامل .

محتويات

القصة الاولى

القصة الثانية

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم
وابديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب ، وترجمته ،
وشكل عرضه وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكي بولفار ، ٢١
موسكو — الاتحاد السوفييتي





... أجل ، كان عليهم ان ينظروا ، عن قرب ، بأم أعينهم الى الموت في تلك الساعات الصعبة من حياتهم . وبقي الكثيرون منهم مستلقين ، الى الابد ، على الارض الخريفية المتجمدة. بيد ان هذه الارض كانت ارضهم التي لم يسلموها الى العدو . ان نقول بأن قلوبهم لم تعرف الخوف . ان الشيء الآخر أهم من ذلك وهو انهم عرفوا جيداً ما الذي يعنيه حب الوطن ، وما الذي يعنيه الحقد على العدو . ان هذا الوعي ينتصر على الخوف ويلد الجرأة .

لقد كتب الكسندر بيك كتابه عن جرأة الناس السوفييتيين الذين دافعوا عن وطنهم في سنوات الحرب والسلاح في ايديهم .

